ر

رواية

مجيد طوبيا

تغريبة بني حتحوت إلى بلاد الجنوب

دار سعاد الصباح

الطبعة الأولى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص. ب: ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص. ب: ١٣ المقطم - القاهرة
تليفون: ٢٤٩١٧٢٧
٢٤٩٧٧٧٩
فاكس: ٥٠٦١٠٣٠

رقم الإيداع: ٧٩٥١ / ١٩٩٢

I.S.B.N : 977 - 5344 - 15 - 8

الاشراف الفني: حلمي التوني

ر روايــــة

تغريبة بني حتحوت إلى بلاد الجنوب

مجيد طوبيا

دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع

(١)

حكاية الغلمان مع الغزلان

بليت النعال فى بحر الرمال ، تثاقلت الأقدام وتباطأت الأيام ، فصارت الأسابيع شهوراً ، والشهور دهوراً ، وهم عطشى جائعون بين الدروب ضائعون . تحاصرهم صخور الندم ورمال العدم . وجميع ذلك كى تتم نبوءة ضاربة الودع الغجرية ، أن يتغرب الفتى حتحوت جنوبا ، ليلاقى السود ، ويجابه الأسود ، ويرى سحالى وتماسيح ، وأفاعى ذات فحيح ، ولا تتم له النجاة حتى يرى المياه تتساقط هادرة فى الأجواء ، ومن حولها الرذاذ يملأ الفضاء ، فإن ظهر قوس قزح بألوانه السبعة ، أمن ضراوة كل فهد وضبع ، وعاد إلى مسقط الرأس قوى البأس (١) .

تذكر حتحوت حال أمه وأبيه ، والريس مرسى أخيه ، سبب الضياع فى التيه ، وكيف خرج باحثاً عنه فى بر الصعيد الطويل ، ومعه صاحبه الشاطر الذى قدم من القاهرة مهاجراً . من المنيا إلى ديروط ومنفلوط وأسيوط . فى جرجا التقيا بصاحبهما إدريس ، الذى لحق بهما هارباً من الفرنسيس. وظل الثلاثة ضاربين فى المسالك تفاجئهم المهالك، وحتحوت يحدثهما عن أسرتـه ، والشاطر يدفعه إلى الحديث عن زهرة المليحة ذات العيون الآسرة والتى راقته وأحبها .

---

(١) بدايات صيف ١٨٠٢ .

مشوا وقعدوا وناموا ثم ساروا ، مدة أسابيع وشهور نسوا عددها . نضب فيها معين الكلام . وهم يبالغون فى الحذر ، ويتجنبون الدروب المطروقة ، حتى اجتازوا مسافات طويلة ونفد زادهم ، وصاروا يعيشون على القنص ، من أفراخ صغيرة لا تطير . وبيض لم يفقس فوق أعشاش الصخور . وقد تصادفهم بئر مهجورة فيرتوون ويملأون قربهم . وفى جراب ادريس الذى هرب به من عند الفرنسيس بارود وأدوات فرنسية ذات حيل صناعية .

فلما طال الزمن اقتسموا ما به وخبأوه تحت طيات ثيابهم الفضفاضة ، وهو يحرض صاحبيه دون ملال على إكمال السير إلى بلاد كردفان ، حيث الذهب المنثور والصندوق المسحور الذى يري من يجلس بداخله ما يحدث فى أرجاء الدنيا .

تحمس الشاطر وتردد حنحوت ولم يدر كم من الزمن تغرب لاختلاط الأيام والليالى فى غمار المطاردة والخوف من قطاع الطرق والفرنسيس والمماليك ، وانقطاع أخبار مصر المحروسة . لأن المكتوب لهم أن يصادفوا من الأهوال ما يفوق كل الظنون ولا يخطر على بال عاقل أو مجنون .

انهار حنحوت قاعداً جائعاً مجهداً ، مادت به الأرض واختلط عليه الطول والعرض . أسبل جفنيه يريح عينيه ، ولما فتحهما لم يصدق ناظريه . هلل وصاح :

ــ ماء . هناك ماء وأشجار وارفة خضراء .

التفت صاحباه إلى حيث أشار فلم يجدا غير الصحراء . وكان ما رآه هو سرابا يحسبه الظمآن ماء . فعاد يحط عليه البلاء . وقال لصاحبه إدريس الكردفانى :

ــ لكن ما يكون . لا أمل فى النجاة !

فضاعف من حزن إدريس وهمه ولومه لنفسه ، نزلت دموعه وقال :

ــ أنا السبب فى جميع ما جرى ، من أجلى كان الفرار ، والفرنسيس يبحثون عنى وليس عنكما .

وقبل أن يرد حنحوت ، أسكتهما الشاطر بإشارة وهو يقول :

ــ هناك أصوات .

ــ طبعا تهيؤات .

وقال إدريس :

ــ سراب العين رؤية الواحات ، وسراب الأذن سماع الأصوات .

فعاد يسكتهما ، ونهض يسير عدة خطوات ، وأمعن النظر الى إحدى الجهات ، ثم أشار لهما بالاقتراب ، مؤكدا انه ليس بسراب ، فنهضا اليه فى هدوء ، وعلى الفور فغر ادريس فاه ، وقال حنحوت مكذبا عيناه :

ــ كأنها غزلان .

أكد ادريس أنها غزلان ، وأخرج غدارته بقصد صيد إحداها ، لكن الشاطر أوقفه هامسا :

ــ مشكلتنا الماء ، الماء ثم الطعام ، والغزلان تعرف مكانه سواء أكان نهرا أم نبعا .

ــ فكيف ترشدنا اليه ؟

ــ ننتظر حتى تشعر بالظمأ .

مكثوا يراقبون الغزلان ، وهى ترتع فوق الكثبان وأسفلها ، وصغارها تلهو بالقفز والتناطح مثل الجديان ، وكبارها تنعم بأمن الخلاء ، غير متوقعة وجود الدخلاء ، حتى قرب مغيب الشمس فى السماء ، وإذا بكبيرها يصدر صوتاً يجمعها ، ثم يتجه بها شرقاً ، موغلاً بين الصخور وهو يخور ، والفتيان عن كثب يقتفون الآثار وهم فى غاية الحيرة والانبهار ، لأن الصخور بدت لهم متلاصقة ، ليس فيها مكان للعبور ولا طريق للمرور . لكن القطيع كان يعرف ، إذ سار فى صف واحد ، مجتازاً ممراً ضيقاً ، قائدها أولاً ثم الصغار فالكبار ، انحنى الممر ثم تعرج ثم انحرف ، وكأنه بيت جحا أو متاهة ، من الشرق إلى الجنوب إلى الشرق ، ثم ما بين الشرق والشمال ، وتواصل المسير وطال ، حتى زاد عجب حنحوت فقال :

ـ كأننا حول أنفسنا ندور .

أسكته الشاطر لأن ليل الصحراء ينقل الصوت إلى أقصى الأنحاء ، وقد تخاف الغزلان وتلجأ إلى الفرار والاختفاء عن النظار ، فيفقدون أثرها ويضيعون فى عتمة الليل ويلاقون كل ويل ! .

وطال المشى فى كل اتجاه ، حتى بدأوا ييأسون ، ثم إذا هم يشمون فى نسيم الليل رائحة الزرع والضرع ، وصار جفاف الهواء ، محملاً ببخار الماء ، فانتعشوا بالأمل والرجاء وبقرب الارتواء .. وتقدموا متحمسين ، وإذا بالممر ينحنى ثم ينفرج بهم بشبه المعجزة على واد منبسط فسيح ، وشموا رائحة النيل المبارك ، وسمعوا نقيق الضفادع ، لا حس لانسان ، فقط وقع حوافر الغزلان ، فسعوا هابطين ، ثم لمحوا ناراً خافتة عن بعد ، فاندفعوا نحوها ، وإذا هم يسمعون صوتاً أجش ، ثم رأوا خيالات القطيع وشبح إنسان ، يهش الغزلان ذودا عن الزرع .

فقال حنحوت جزلان :

ـ نحن الآن فى أمان .

لكن الشاطر قال فى حذر الماكر :

ـ نجهل ما هناك ، ليتأخر أحدنا ، فإن رأى الأمر خيراً دنا ، وإن رآه شراً قدم يد العون .

اختاراه ليبقى وتقدما نحو الرجل ، فلما رآهما كف عن الصياح وأسرع إلى السلاح ، وكان رمحاً من الرماح ، فجمدا دون حراك ، وقال إدريس :

ـ لسنا من أعدائك .

فسأله إن كانا من المماليك أو الأتراك ، فأجاب : لا هذا ولا ذاك !

فلما رأى الشاطر ما يحدث تحفز ، ومد يده يخرج غدارته ، تقدم زاحفاً ، عندما صار الفلاح على مرمى الاطلاق ، كان إدريس قد تفاهم معه وطمأنه ، فأنزل رمحه وعاد إلى هش القطيع وهما يساعدانه ، فجفلت الغزلان وبدأت تتراجع بطيئاً ثم فى إسراع ، حتى إقتربت من مكمن الشاطر الذى تذكر ما هم فيه من جوع ، فانقض بخنجره على أقرب غزال وطعنه من غير عناء طعنة نجلاء ، ثم نهض يجره مثيراً الغبار ، لينضم إلى صاحبيه ، فعاد الفلاح إلى السلاح ، لولا أن صاح إدريس :

ـ هذا ثالثنا ، هذا معنا .

ورأى الشاطر زير المياه فترك ما بيديه ، واندفع يملأ الكوز ويشرب ، تقدم حنحوت يخطف الكوز ويشرب ، ثم إدريس فالشاطر فحنحوت ، والجميع ينهلون ولا يكفون ، حتى حال العجوز بينهم وبين الزير والكوز ،

وأمرهم بالجلوس ، لأن الشرب الكثير بعد العطش الطويل يثير الأمعاء إلى حد الإعياء . ثم قدم لهم رغيف عشائه ، فالتهموه فى غمضة عين ، وأدرك مدى جوعهم ، ونهض يحضر لهم المزيد ، فسأله إدريس :

ــ من أين يا عم :؟

ــ من عند الأجداد

ثم انصرف ، وتوجهوا صوب القرية القريبة ، بين التكذيب والتصديق والحيرة واليقين ، الأكواخ تبدو مهجورة ، اقتربوا أكثر ، اغتموا وقد رأوها إما محروقة وإما مهدومة ، ثم تنبهوا إلى صوت الشيخ يقول :

ــ خربوها المماليك الانجاس !

قدم لهم خبزاً وبعض الجبن :

ــ أحكى لكم وأنتم تأكلون .

تحلقوا فى دائرة حول النار يلتهمون الطعام ، والعجوز يحكى كيف أن القرية كانت آمنة تدفع الإتاوة لعرب الشايقية ، حتى جاء بعض المماليك يزاحموهم..

سأله حتحوت : من هم الشايقية ؟ . فأجاب :

ــ محاربون أشداء ، مثل المماليك فى مصر المحروسة ، يعيشون على جهد الآخرين وكدهم ، ويفرضون الأتاوة على قرانا النوبية المسالمة ، وهم سادة البقاع من هنا إلى ما بعد دنقلة .

نظر بعضهم إلى بعض فى استغراب ، قال :

ــ دنقلة بلدة فى الجنوب ، ألا تعرفون انكم الآن على أرض السودان؟

تكفوا عن الطعام غير مصدقين ، حتى فهموا أنهم عندما فروا من جرجا بسبب مطاردة الفرنسيس لهم ، سلكوا الطرق المهجورة مبتعدين عن البلاد المعمورة ، وساروا جنوباً عبر الصخور والصحارى ، حتى تاهوا عدة شهور ، وانقذهم قطيع الغزلان بإرشادهم إلى المكان الذين هم فيه الآن ، والذى يقع بعد الجندل الثالث !

ثم إن العجوز حكى لهم ان مراد بك عندما فر أمام الفرنسيس ولجأ إلى بلاد النوبة ، صار يرسل المماليك لنهب القرى وسلب الغلال والطيور والبهائم ، تاركاً لناسها الجوع والفاقة ، إلى أن رحل شمالاً عبر صحارى الصعيد ، غير أن بعض امرائه كانوا قد يئسوا من فوزه ، وتعبوا من طول الترحال والهروب دون طائل ، فتخلوا عنه ومكثوا فى وادى النوبة يفرضون الاتاوة على كل ساقية ، وإلا الدمار والحرق ، ويدخلون فى معارك مع عرب الشايقية ، فلما عجزت القرية عن الدفع حرقوها وتشتت الناس !

سأل إدريس :

ــ سمعتك يا جدى تقول إنك ذاهب لإحضار الطعام من عند الأجـداد !

ــ قلت :

ــ ولكن لا أحد غيرك هنا !

ــ أنا والأجداد ، ومن أجلهم بقيت هنا . اتبعونى إليهم .

تحامل ناهضاً ، سار وبيده المصباح الصغير وهم من ورائه ، حتى اقتربوا من المدافن ، فأخذهم إلى أحد الشواهد ، رفع بصعوبة صخرة عريضة ، وإذا تحتها حفرة عميقة ، نظروا فيها فوجدوا بها خبزاً وثلاثة قدور بها جبن

ويعض البصل والتمر المجفف واللحم المقدد. من جديد أحسوا بالجوع ، لكنه أعاد الحجر إلى مكانه ثم أشار إلى القبور :

ـ هؤلاء هم الأجداد فى رقادهم الطويل ، من أجلهم رفضت الرحيل مع عشيرتى ، هنا أمى وأبى وأعمامى وأخوالى وأتراب الصبا ، عز على أن أتركهم فى وحشة القبور من غير أنيس . فى آخر الليل أذود عنهم الضوارى نباشة القبور ، وفى أوله أدفع الغزلان عن زرعة الغلال ، هاجرت العشيرة والزرع نبت صغير وبقيت أدافع عنه حتى صار الآن جاهزاً للحصاد .

رأى عيونهم لا تفارق مخبأ الطعام ، ابتسم وقال :

ـ اللحم الطازج المشوى ألـذ ألف مرة من المقدد .

من فورهم تذكروا الغزال ، فجروا نحوه مخرجين خناجرهم ، انهمكوا فى سلخه وتنظيفه بمياه النيل ، عندما لحق بهم العجوز وجدهم وقد كادوا ينتهون ، فأحضر لهم سيخاً أدخلوه فى قطع اللحم ثم أداروه فوق النيران حتى ملأت رائحة الشواء جميع الارجاء ، فكانت فى أنوفهم أذكى من رائحة المسك والعنبر .

ساعتان زمنيتان وكانوا قد شبعوا وشربوا واستلقوا على ظهورهم سعداء ، فى أقل من لمح البصر كان الاجهاد قد أغمض عيونهم وأغرقهم فى نوم عميق . بقى العجوز يتأملهم طويلاً ، وتذكر حفيده الصبى نور ، فسالت دموعه ، وبقى متيقظاً شطراً طويلاً من الليل لأن الكهول لا ينامون كثيراً .

عند الفجر استيقظ وتوضأ وصلى ، وبقى جالساً حتى علت الشمس وتوسطت السماء فأيقظهم ، ونهضوا مرتاحين بوجوه محمرة من بعد شحوب وهزال . ثم اقتطعوا مزيداً من لحم الغزال وشووه ، وجلسوا تحت مظلة

البوص يأكلون ، بينما الشيخ يحدثهم عن حفيده نور ، وكيف ان المماليك اختطفوه منذ شهور ، قاطعه ادريس :

ـ السماح يا جدى ، سمعتك بالأمس تقول : انك الوحيد الذى بقى هنـا !

ـ بالأمس كنتم غرباء فلماذا أفتح لكم قلبى ؟ أما وقد أكلنا معاً ونمتم آمنين فى حمايتى ، فقد أصبح بإمكانى ، أنا جدكم عبد الصبور ، ان أنام آمناً فى حمايتكم .

ـ أبقاك الله يا جدنا عبد الصبور .

ـ نور حفيدى يتيم ، قتل المماليك أباه وأمه فى احدى هجماتهم ، فكفلته وربيته ، ولهذا رفض الرحيل مع العشيرة ، وبقى معى يخدمنى ويساعدنى فى حماية الزرع ورعاية منامات الاسلاف .. ولو كان معى الآن لعاوننى فى حصد هذه الغلال التى افلتت من فم الغزال .

ـ نحن نساعدك يا جدى .

رمقهم بامتنان وقال :

ـ حفظكم الله وأدام عليكم نعمة المحبة .

ثم إنهم توجهوا إلى الحقل الصغير ، وأراهم كيف يحصدون ، شاهدوا بعض الفزاعات على صورة ضباع بأرجل خشبية وحشو من القش . قال العجوز :

ـ فى البداية خافت الغزلان من هذه الفزاعات ، ثم لما رأتها لا تحرك ساكناً تقدمت لأكل الذرة ، وصارت تحك أبدانها فيها وأوقعت معظمها .

حتى أنا لم تحفل بى عندما كان الوهن يغلبنى وأنا بالحقل، وربما ظنت أننى فزاعة من القش، وفى الحقيقة ما أنا إلا فزاعة من حشو السنين!

قبل الغروب انجزوا الحصاد، وبقيت العيدان منتصبة خضراء، فسأله حنحوت ان كانوا سيتركونها قائمة، فقال:

ـ سنتركها طعاماً للغزلان، وفخاً لصيد المزيد.

عند أول الليل اختبأ كل واحد بغدارته فى ركن، وما إن حط الظلام حتى جاء القطيع بعد قليل، تركوه يعبر إلى الحقل، ثم خرج العجوز بضجيج، فاستدارت جافلة لتسقط منها ثلاثة صرعى حملوها إلى الشيخ عبد الصبور، فتهلل وجهه وقال:

ـ رزقنا الله طعاماً طيباً، نأكل منه حتى نشبع ثم نقدد الباقى.

فى اليوم التالى علمهم كيف يقددون اللحم، بأن يقطعوها إلى شرائح رقيقة ويملحوها وينشروها تحت أشعة الشمس الحامية لعدة أيام حتى تجف فتصبح قديداً، يمكن حفظه لعدة شهور دون أن يفسد، وكلما احتاجوا إليه يقطعون منه قدر حاجتهم ويمضغونه، أو ينقعونه فى الماء حتى يلين ثم يطبخونه مثل اللحم الطازج. فشكروه على هذا الدرس.

وقال الشاطر:

ـ لو كنا نعرف هذا لما تعرضنا للموت جوعاً فى الصحراء، الليلة بإذن الله نصطاد المزيد ونقدده، ونترك لك القدر الذى تشاء، ونأخذ الباقى زاداً لرحلة عودتنا إلى أرض الوطن.

فأطرق الشيخ وقتاً فى أسى حتى اشفقوا عليه، ثم قال:

ـ أسعدنى وجودكم معى، بذهابكم سأعود وحيداً مع الاسلاف، وهم كما تعرفون موتى!

سالت دموعه على تجاعيد وجهه وقال:

ـ يؤلمنى أن حفيدى، وهو فى مثل عمركم، أخذه المماليك أسيرا ليستعبدوه، مع أن النوبى يولد حراً أميناً نظيفاً حتى يتحرر من قيد الحياة وهو حر. لقد رأيتهم يسخرونه طوال اليوم سخرة العبيد فى ترطيب خيامهم بالماء!

سأله ادريس ان كان يعرف مكانه، فأجابه:

ـ على مسيرة نصف يوم جنوباً.

وإذا بإدريس يقول فى حماسة:

ـ لا تبتئس يا جدى، سنعيده إليك.

لكنه عندما التفت إلى صاحبيه أحس أنه اندفع دون روية، إذ أشاح الشاطر بوجهه، بينما أطرق حنحوت ثم قال محرجاً:

ـ إذا كان بإمكاننا ذلك!

فاحتضنهم الشيخ عبد الصبور بنظرة حب صافية، وقال متأثراً:

ـ أشكركم من قلبى يا أعزائى، لكن ماذا يفعل ثلاثة فتيان أطهار مع مقاتلى المماليك الاشرار؟

قال إدريس:

ـ الذكاء يغلب القوة، لا تقلل من شأننا، لدينا ذخيرة وغدارات،

والشاطر يعرف القراءة ، وهو وحنحوت قتلا أربعة من عسكر الفرنسيس .

نظر إليها فى شك ، قال الشاطر :

ـ اثنان فقط ، واحد قرب ميناء مصر القديمة ، والآخر خارج سور القاهرة ، وهذه غدارته .

تأملها العجوز فى ضوء النيران ثم قال :

ـ لم أر مثيلاً لها إلا فى أيدى المماليك .

ـ بل هى أدق صنعاً وأحدث وأقوى .

ثم سألوه ان كان يعرف اخبار مصر المحروسة ، فوجدوه لا يعرف ، وباتوا مهمومين شاعرين بأنهم قد تهوروا فى وعدهم له ، ودفعهم كبرياؤهم إلى عدم التراجع . ورغم ان الشيخ حاول إثناءهم عن عزمهم ، فقد يمموا صوب الجنوب باحثين عن حفيده نور ، الذى لا يعرفون عنه سوى أنه يعلق تميمة من العاج حول عنقه ، وجميع ذلك كى يتم المكتوب وتتم النبوءة على حنحوت طبقاً لما قاله الودع لقارئة الرمل الغجرية وهو بعد جنين فى بطن أمه أم الخير الجميلة الشريفة !

(٢)

مباغتة الفرسان للغلمان

مع توغلهم جنوباً فى أرض النوبة السودانية ارتفعت الشمس وأرسلت لهيبها فوق أدمغتهم ، فبللوا أنفسهم بمياه النيل عدة مرات ، وظلوا سائرين حتى رأوا عن بعد مخيماً من ثمانية خيام ومظلة كبيرة عائمة فوق النهر ، فلزموا جانب الحذر وتقدموا يعاندون القدر . ومن عجائب الاتفاق أنهم لم يكونوا وحدهم الذين يراقبون المماليك ، كان هناك فى عمق الصحراء فرسان من عرب الشايقية يرصدون من بكرة الصباح ولثالث يوم حركة المماليك من فوق صهوات خيولهم ، متحينين فرصة الانقضاض عليهم ، فلما رأوا الفتيان الثلاثة راحوا يراقبونهم هم أيضاً حتى يتبينوا أمرهم ، فوجدوهم يتسللون خلسة .

تقدم الثلاثة حتى اقتربوا من المعسكر ، فميزوا خيمة كبيرة زاهية الألوان تتوسط باقى الخيام ، وخمنوا أنها خيمة الأمير ، بينما المظلة تعلو طوفاً كبيرا من الأخشاب المربوطة بعضها إلى بعض والسابحة فوق النيل المبارك .. وكان الأمير فى ذلك الوقت مسترخياً فوق وسادة قماشها من الأحمر اللامع ، ومعه فوق الطوف بعض الحريم وعبدتان تحركان له الهواء بمروحتين من ريش النعام ، وكل شىء يوحى ببعض الرفاهية فى هذه المنطقة الجرداء ! . خمنوا

عدد أعوانه من عدد الخيول الواقفة تحت سقيفة البوص ، يقرب من الأربعين ، عدا الخدم والعبيد والحراس الذين يرصدون جميع الاتجاهات ! . وعلى الفور اعتراهم اليأس ، وفكروا فى الانسحاب ، غير أنهم استنكفوا ان ينكثوا بوعدهم الذى قطعوه للشيخ عبد الصبور . ثم رأوا فتى فى مثل عمرهم يخرج من جانب. جسر النهر المنحدر حاملاً دلوا مملوءاً بالماء ويتجه إلى الخيمة الأولى ويرش قماشها بالماء كى يرطبها، وعندما استدار عائداً إلى الجسر لإحضار المزيد ، لمحوا التميمة حول عنقه ، فأدركوا أنه نور . ثم جلسوا يفكرون وفى ذهنهم ما زعموه للشيخ من أن الذكاء يغلب الكثرة !

بعد ساعة من الحيرة قال الشاطر لحنحوت :

ـ عددهم كبير ولن نقدر عليهم !

ـ حتى لو عددهم مساو لنا ، هم حرفتهم القتال منذ الصغر ، ولن يفيدنا بشىء أنك تعرف القراءة والكتابة .

فما كان من الشاطر الداهية الماكر الا أن أشار بأن يتبعاه ، وتوجهوا هابطين جسر النهر وساروا فى محاذاة المياه ، أخفاهم ذلك عن عيون من هم فوق البر وداخل الخيام ، أما الذين فوق الطوف فكانوا فى استرخاء آمن . . وهمس الشاطر لحنحوت :

ـ الطوف مربوط بحبلين مشبين إلى وتدين على الشاطىء ، علينا أن نقطع الحبلين فى نفس اللحظة فيجرفه التيار . .

ـ وما الغرض ؟

ـ احداث ربكة بينهم ، فسوف يسارعون إلى النهر لانقاذ الطوف ، وفى

وسط هذا الهرج نفر نحن ومعنا نور .

تسلل زاحفاً على بطنه إلى الوتد الأول وأخرج خنجره ، وانتظر يراقب حنحوت النوبى وهو يخوض المياه غاطساً بكل جسده حتى وصل فى بطء وحذر إلى حيث الوتد الآخر ، وبإشارة بينهما قطعا الحبلين ، وما هى الا برهة حتى أخذ الطوف يتحرك شمالاً مع التيار .

أما ما كان بعد ذلك فهو من الغرائب السريعة الوقوع ، صرخت جارية ، فالتفت الامير وصاح يستنجد بأتباعه بين صراخ امرأته وحريمه ، وخرج رجاله من ظلال الخيام ، اندفعوا بنصف ثيابهم إلى البر شاهرين السلاح ، فلما رأوا الطوف يتحرك ألقوا بالسلاح وخاضوا المياه للامساك به ، بينما وقف نور يتفرج متمنياً غرقهم جميعاً ، ثم إذا هو يسمع من يناديه باسمه ، التفت فرأى ادريس يقول له مسرعاً :

ـ ان كنت نور حفيد الشيخ عبد الصبور اهرب الآن إلى جدك . اهرب يا فتى .

فجرى صوب الشمال فى خفة الغزال ، وتبعه ادريس والشاطر وحنحوت بملابسه المبتلة ، تنبه ثلاثة من الحراس إليهم فأسرعوا إلى الخيول ، يركضون بها فى سرعة ، وما هى إلا ثوان حتى أحاطوا بالفتيان الاربعة الذين وقفوا مقهورين وقد أحسوا النهاية . لولا أن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ انشقت الصحراء عن فرسان الشايقية السمر يندفعون بخيولهم القوية مستغلين هذا الظرف ، متدرعين بزرد من حلق الحديد ، يحمل كل منهم من الحراب أربعا أو خمسا فى اليد اليسرى ، إندفعوا صائحين :

ـ السلام عليكم ، السلام عليكم !

حتى اقتربوا فرموا حرابهم بسرعة ودقة ، فى أقل زمن كان معظم المماليك عدا الحريم مجندلين بالحراب فى ظهورهم أو رقابهم ، ولوثت دماؤهم مياه النيل المبارك .. ما إن رأى الثلاثة الذين يحاصرون الفتيان ذلك حتى ارتبكوا ، واتجهوا أولاً لإنقاذ أصحابهم وأميرهم ، ثم استداروا محاولين النجاة بأرواحهم ، فاذا هم محاصرون فاستسلموا ، واستسلم معهم ثلاثة عند الشاطىء وامرأة الأمير وأربع جوار والخدم ، وجرف النيل الطوف بعيداً ليتكسر بعد ذلك على صخور الجندل التالى !

بعد وقت قليل كان كبير الشايقية جالساً فى الظل داخل خيمة الأمير المفروشة بالوسائد الطرية المطرزة بالقصب وخيوط الذهب ، والمحتوية على الكثير من الثياب الفاخرة والأوانى الفضية وأدوات التدخين من شبك وخلافه ، بينما الأسرى أمامه أذلاء . تأملهم بسرعة وأصدر أمره ، فأخذهم أعوانه وذبحوهم ، أما الحريم فقد أبقى عليهم ، وأمر باطلاق سراح الغلمان النوبيين ، أخيراً التفت فى فضول إلى الفتيان الأربعة ، فأسرع الشاطر يستدر عطفه :

ـ نحن نعرف أين يخبىء المماليك أموالهم .

ـ تكلم :

ـ ولكن بشرط أن تطلق سراحنا .

ـ تكلم والا قطعت رقابكم واحداً تلو الآخر .

أسرع حنحوت صائحاً :

ـ فى لفات عماماتهم :

وسرعان ما تكومت ريالات الذهب أمام الزعيم فضحك ، وشرحوا له

حكايتهم من أولها إلى آخرها ، فتعجب وهو معجب بهم ، وأطلق سراح نور الذى جرى غير مصدق ليلحق بجده عبد الصبور . وهنا سأل حنحوت :

ـ أخبرنا ، دام عزك ، عن مصيرنا ؟

ـ سآخذكم إلى الملك وهو الذى يقرر .

ـ من هو الملك ؟

فحملق فيه اندهاشاً ولم يجبه .سرعان ما فكوا الخيام وحملوا كل الأشياء فوق جياد المماليك الأربعين ، أخلوا مكاناً لامرأة الأمير وباقى الجوارى ، وساروا فى قافلة طويلة فى حذاء النيل وصوب الجنوب ، وهكذا وجد الثلاثة أنفسهم يزدادون ابتعاداً عن مصر المحروسة ، وعن مدينة المنيا مسقط رأس حنحوت ، الذى التفت إلى إدريس لائماً :

ـ انظر نتيجة اندفاعك ، ها هو ذا نور قد عاد إلى جده بينما نحن أسرى مجردين من المال والزاد والسلاح وقرب المياه !

فأطرق إدريس فوق الجواد الذى اركبوه عليه ، انسالت دموعه فوق وجنتيه السوداوين وقال :

ـ لماذا طاوعتمانى ؟

ثم صمتوا وراحوا يرقبون جميع من حولهم على أمل اقتناص لحظة سانحة للفرار ، وان بدا هذا من ضرب المحال ! . بينما مياه النهر عن يسارهم تتخلل بقايا صخور جندله الثالث ، والصحراء على الجانبين فى سكون وجدب ، وقد تناثرت فيها بعض الصخور المدببة ، ورأوا ملامح رجال الشايقية منسقة ، وعيونهم متألقة ، وسوادهم صافيا عميقا لامعا يختلف عن سواد

ادريس الكالح ، وكل فارس لا يضع فى ركاب جواده إلا الاصبع الكبيرة من كل قدم . زادت الحرارة بحيث جفت ثياب حتحوت ، ثم سمعوا خرير الماء عميقاً أجش ، وعادت الصخور تعترض مجرى النيل ، ورأوا بعض أفراس النهر والتماسيح وأسراب النمل الأبيض .

بعد ذلك اختلفت الطبيعة وظهرت أشجار السنط والزعتر البرى فى جزائر صغيرة كثيرة خضراء وسط النهر ، بينما طيور الماء تحط بلا انقطاع وبالمئات لتتغذى منها ثم تمضى محلقة فوق رؤوسهم . كلما ساروا مسافات رأوا قرى صغيرة لها زوارق مشدودة إلى الضفة ، والبيوت من اللبن أو الحجارة وأسقفها من عيدان الذرة أو جريد النخيل ، وفوق الصخور أطلال قلاع حجرية ذات شرفات ، وعشرات السواقى تضخ الماء إلى الحقول الخضراء وإلى مسافات بعيدة ، والأهالى يتأملونهم ، والحرارة شديدة الوطأة عليهم .

سألوا عن القلاع الحجرية المتهدمة أجابهم أحد الرجال بأنها بقايا قلاع الفتح ، ثم تركهم مبتعداً بفرسه .

ظلوا على هذه الحال ساعات طويلة حتى حط الظلام فناموا ، وفى الصباح التالى واصلوا السير ، فصادفوا جندلاً تختنق صخوره النهر والمياه تقفز فوقها مرغية مزبدة ، ومضت الساعات حتى شاهدوا جبلاً عالياً ثم صار طريقهم يلتزم ضفة النهر تارة ، ويخترق الصخور تارة أخرى ، مروا على برج حراسة صغير من الحجر قائم على تل ، ولجوا طريقاً جبلياً ، عادوا إلى النهر ، فشاهدوا التماسيح تصطلى لهيب الشمس ، ارتقوا جبلاً ثم هبطوا منه حيث تعرج الطريق إلى أرض الشايقية ، ومن حولهم أشجار السنط

والذرة ونبات الدخن ، حتى دخلوا بلدة فى حجم قرية كبيرة لها حصن من الآجر ، وكانت نهاية المطاف ، فحمدوا ربهم لأنهم كانوا قد سئموا جلسة الخيول المسرعة ، بحيث انهم عندما نزلوا وجدوا صعوبة فى المشى بسبب تصلب سيقانهم !

ثم ان الفرسان وضعوهم فى سجن جدرانه من سيقان الغاب المتينة المضفورة ، وتركوهم فى هذا المكان خمسة أيام بلياليها ، يجهلون مصيرهم ولا يرون أحداً إلا السجان الذى يقدم لهم الوجبات الثلاث والماء ، وفى صمت الليل يسمعون صيحات المقاتلين يعربدون سكارى . فأنهكت تلك الأيام أعصابهم وأطاحت بصبرهم ، صاروا متوترين وضاقوا بعشرة أحدهم الآخر ، حتى ظنوا أن الموت أهون عليهم من هذا الحبس ، وكان يخفف وطأته أصوات الغلمان تردد مقاطع التلاوة من خلف صوت عجوز ، بنغم وطـلاوة ، فظلوا يراقبون الخارج من خلال شقوق الجدار .

وفى اليوم السابع ما ان انتهى درس الكتاب وشاهدوا الغلمان ينصرفون حتى انتهزوا فرصة مرور الشيخ المعلم ، وناداه الشاطر :

ــ يا مولانا المعلم .

تلفت الشيخ حوله متعجباً حتى تنبه إلى أصابعهم الظاهرة من بين بوص الجدار :

ــ ماذا تريدون ؟

ــ لماذا تضعوننا فى السجن ؟

ــ أنا لا أضع أحداً فى السجن ، أنا رجل علم ، أعلم القراءة والكتابة ، لابد أنكم عصاة !

ـ نحن غرباء ، وكنا نتفقد نور من أسر المماليك ، نور حفيد الشيخ عبد الصبور .

ـ لا أعرفه .

ـ أنتم تكرهون المماليك ، أليس كذلك ؟

ـ المماليك والأتراك كلاب .

ـ نحن فارون منهم ، ونريد منك الانصاف .

ـ الانصاف بيد الخالق .

ـ أطلب منك المعاونة ، أنت يا مولانا رجل علم وأنا أقرأ وأكتب .

صمت الرجل وقتا كأنه الدهر ، ثم سأل :

ـ أحق تقول يا غلام ؟

ـ حق ورب الكون .

فانصرف دون كلمة ، وعادوا إلى ضيقهم إلى أن جاء السجان بالطعام ، ومعه الشيخ المعلم الذى سأل :

ـ أحقاً تعرفون القراءة والكتابة ؟

قال الشاطر :

ـ أنا أعرف .

فدفع إليه بصفحة ورق وقال اقرأ ، فقرأ بلسان طلق . فابتسم الرجل وجلس ، وأمر السجان بالانصراف وترك الباب مفتوحاً ، تردد السجان فقال له :

ـ أخبر سيدنا الملك أنني المسئول عنهم منذ الآن .

حدثوه عما جرى لهم منذ خروج حتحوت والشاطر من مدينة المنيا بحثاً عن الريس مرسى ، إلى أن التقيا بإدريس فى سوهاج ،ثم ما كان من فرارهم من الفرنسيس حتى ساقتهم الأقدار إلى بلاد الشايقية أسرى . فقال :

ـ حسناً فعلتم مع النوبى الصغير ، بعض الناس هنا نوبيون ، ومنهم الزراع والفعلة ، وبعضهم من عشيرة الكبابيش . أما الملك أى الملك أو شيخ العشيرة والحراس والجنود وباقى الرعايا فهم من عرب الشايقية ، لكننا نحترم أهل العلم .

وقف منصرفاً ، وعند الباب قال :

ـ ستصبحون أحراراً فى الخروج إلى القرية من طلعة الشمس حتى غروبها ، ولكن حذار أن تحاولوا الهرب إلى أى مكان ، لأنه ليس بالامكان ، أتعدوننى ؟

وعدوه شاكرين ، ولم يجدوا عنده أية أخبار عن مصر المحروسة . عندما انصرف ظلوا فى أماكنهم غير مصدقين والباب مفتوح ، ثم تنبهوا إلى وجوه أطفال سود .. أولاد وبنات يتطلعون إليهم فى فضول ، فابتسموا لهم ، وتقدموا فى حذر إلى الخارج ، لأول مرة تعجبهم الشمس رغم سخونتها ! . تجولوا فى أنحاء البلدة والأطفال فى أعقابهم ، وجدوها ممعنة فى الفقر لكنها نظيفة ، رغم أسراب النمل الأبيض التى تظهر فى أعداد كبيرة . عندما توجهوا نحو الشرق شموا رائحة النهر ، ثم رأوا النيل المبارك وعلى حافته الحصن، كان من الآجر الحجرى وأعلى ما بالمكان ، فأدركوا أنه مقر الملك . بعد أن تعبوا من المشى عادوا إلى سجنهم ، وهمس حتحوت للشاطر :

ــ فلنخطط للهرب .

ــ ألم تلاحظ أننا مراقبون ؟

ــ لاحظت .

ــ لندعهم يطمئنون إلينا أولاً ، أسبوع أو عشرة أيام ثم نخطط للهرب .

صارت أيامهم التالية أقل هواناً ، وفى جميع جولاتهم كانوا يدرسون المكان والاتجاهات ، ومرابط الخيل ، ويلاعبون الأطفال المتجمعين فى فضول . بينما المعلم يزورهم كل يوم عقب دروس الكتاب ، ويحدثهم عن الشايقية والكبابيش . سألوه عن الفنج أصحاب القلاع الحجرية المهدمة ، فقال :

ــ كان للفنج امبراطورية مهابة ، حكموا معظم أراضى السودان حقبة طويلة من الزمان وما زالوا ، وقد ظهروا من حيث لا يعلم أحد .. لم يكونوا فى أول ظهورهم عرباً أو مسلمين ، ولعلهم انحدروا من سلالة القبائل الزنجية التى تعيش على ضفاف النيل الأبيض ، ثم تزاوجوا مع العرب واعتنقوا الاسلام ، وكانت عاصمتهم اسمها دلق على الضفة الغربية من النيل الأزرق أو آباى الكبير[1] .

قال حتحوت :

ــ نحن لا نعرف النيل الأزرق ولا الأبيض !

---

(١) جنوب مدينة سنار الحالية ، وكانت عاصمة مملكة الفنج منذ عام ١٥٠٤ وهى على بعد حوالى ١٥٠ ميلاً من حلفاية أو الخرطوم التى [illegible] أنشئت بعد .

ــ نهران عظيمان يتحدان عند بلدة حلفاية ليكونا النيل المبارك الذى ارتوى منه هنا وعندكم فى مصر .

فقال إدريس الكردفانى :

ــ سمعت من جدى ان النيل الأبيض ينبع من جبال القمر .

ــ سمعت عن هذه الجبال ويقال أن بها تبر الذهب .

فنظر الثلاثة بعضهم إلى بعض بعيون لامعة .. وأكمل المعلم :

ــ الفنج الآن ضعفاء ، لكنهم فى الماضى كانوا قوم دهاء وحيلة ، بيوتهم من طبقة واحدة مثلنا هنا وذات سقف مستو ، ولملكهم قصر متين له بوابات من الخشب المنقوش ، وأبراج من خمس طبقات ، وكانت لهم تجارة واسعة مع بلاد الهند ، ولذا كانت نساء الملك وبنات الأثرياء يرتدين ثياباً من الحرير ويزين عيونهن بالكحل ، ويقوم على خدمتهن خدم عراة الصدر حتى الخاصرة من النساء والرجال الطواشى . وعندهم مناجم الذهب والجمال والخيول والعاج والتمر والعطور والطباق ، وأنواع العبيد كافة .

صاح إدريس : أنا أكره ذلك ، فسأله :

ــ ماذا تكره ؟

ــ خطف الناس من أهاليهم وبيعهم مثل البهائم .

ــ أنا أقول دائماً أن النخاسة من النجاسة ، لكن من يسمع ويتعظ !

ثم حدثهم عن ملك الفنج فى زمن المجد الغابر ، لم يكن يظهر لرعيته الا وقد أخفى وجهه خلف نسيج شفاف ملون يغطى ملامحه ، ولا يكون سافر

الوجه الا فى قصره أو عندما يخرج مع حاشيته كل أسبوع للاسترواح فى بيوته الخلوية ، يحف به ثلاثمائة من عسكره الراكبين والراجلين وهم يدقون على النقارات منشدين أغانى المديح له ، ومن ورائهم مئات النسوة حاملات سلال الفاكهة . والملك عندهم هو القاضى ، وحين يحكم بالموت على مجرم يطرحونه أرضاً ويضربونه بالهراوات حتى الموت ، والملك يشاهد كل ذلك من وراء نقابه الشفاف ، ويقال ان الساحة التى تتوسط عاصمته فسيحة جداً .

كان مكوكنا ومكوك بلدان بربر وشندى ودامر ودنقلة يفدون إليها لتقديم فروض الولاء له ، فيقبلون قدميه ويدفعون له الجزية من عبيد وخيول وجمال وأموال ، وحوالى ثلاثمائة جارية مرتديات الحرير والدمالج والأساور والخلاخيل والخرز ، وفوق رؤوسهن سلال البخور .

ثم قال معتبراً :

ـ لكنهم ضعفوا كما تضعف سائر الممالك ، ومنذ أمد طويل حكمهم ملك ضعيف ممسوس ، سيطر عليه وزير فاسد ، وكان هذا من حسن الحظ ، فتمردت قبائلنا من الشايقية ، وصرنا مستقلين تماماً بجميع الأراضى على وادى النيل من جنوب دنقلة حتى بلاد النوبة شمالاً ، وإن كان مكوك شندى ودامر وبربر مازالوا حتى الآن يدفعون الجزية لسلطان الفنج .

وعندما هم بالانصراف سأله الشاطر :

ـ ماذا تظن الملك فاعلا بنا ؟

ـ أنت لا خوف عليك لأنك متعلم .

ـ وصاحباى ؟

فتردد المعلم فى الاجابة ثم قال وهو يمضى :

ـ دعونا نعش اليوم ولنترك الغد للغد .

بعد خروجه ظلوا ساعة زمنية فى صمت واكتئاب ، حتى قال الشاطر :

ـ حان وقت الهرب .

ثم خرجوا وعاينوا القرية من جديد ومرابط الخيل ، والأطفال يتبعونهم فى فضول ، وتصرفوا بشكل عادى إلى أن حل الليل فتظاهروا بالنوم ، حتى سمعوا سكارى المقاتلين يعودون إلى بيوتهم من مشرب العرقى ، وبقوا فترة حتى أطبق السكون على جميع القرية الا من نقيق الضفادع وصرير الصراصير وحفيف سعف النخيل ، ثم خرجوا متوترين وجميع أطرافهم باردة ، وتسللوا حذرين ، عبروا الطرقات الخالية إلى مربط الخيل ، من غير أن يشعروا بأنهم مراقبون !

اختار كل واحد فرساً ، وركضوا وقد جعلوا النيل عن يمينهم لأنه كان على يسارهم عندما جاءوا ، وقطعوا مسافة طويلة فى زمن حسبوه دهراً ، وهم لا يسمعون سوى وقع الحوافر وأصوات اللهاث وخرير المياه ، والظلام من حولهم حالك . فى اللحظة التى ظنوا فيها انهم أفلحوا ، وجدوا أمامهم أربعة فرسان يعترضون طريقهم وكأنهم نبتوا فجأة من باطن الأرض ، ما ان دنوا منهم حتى أتوا بصيحات غريبة جعلت الخيول الثلاثة تقفز فى الهواء ، وقد ضربت أقدامها الخلفية إلى الوراء ، فوقع ثلاثتهم فوق الرمال ، والمقاتلون

الأربعة ينظرون إليهم ضاحكين شاهرين حرابهم ، وكانوا قد راقبوهم وهم يهربون من البلدة ، وتركوهم يفعلون ، ثم تبعوهم عبر مسالك جانبية مختصرة يعرفونها ، فسبقوهم واعترضوهم بالصيحات التي تعرفها الخيل !

أوثقوهم بالحبال الليفية وجروهم إلى سجنهم أغلقوا الباب عليهم ، فبقوا شطراً طويلاً من الليل مغتاظين لا يتكلمون ، إلى أن جاء الصباح متباطئاً ولم يأتهم الفطور ، ولعدة أيام نقصت وجباتهم الثلاث إلى اثنتين وأحياناً واحدة ، ومن أردأ ما يكون ، حتى تدهورت صحتهم وتلفت أعصابهم ، لكنهم لم يندموا على ما فعلوا ، وقرروا تكرار المحاولة في أقرب سانحة .

(٣)

قصة هادي مع أخيه زبادي

بعد ذلك جاء من أخذهم وقادهم عبر القرية إلى حصن الملك ، وأدخلهم من بوابتها المحروسة ، إلى غرفة صغيرة ، بعد ساعة دخل عليهم بعض الخدم بصينية كبيرة عليها طعام دافئ من اللحوم والأسماك والمرق ، فالتهموا معظمه ، وكانت ألذ وجبة أكلوها منذ وجبة أم الخير قبل رحيلهم بالحريم .. وبعد ساعة أخرى جاء من يقودهم إلى الملك شيخ العشيرة ، فاتفق الشاطر مع صاحبيه أن يتركا له الكلام .

بعد تحيتهم وصمت ثقيل سأل الملك عن المتعلم فيهم ، فتقدم منه الشاطر ، وسمح له بالجلوس عن قربه ، وعندما حاول حنحوت وإدريس التقدم أوقفهما آمراً :

ـــ لم أعطكما الإذن .

ثم سأل الشاطر عن حكايتهم فحكاها ، فزالت تقطيبة الملك ورق صوته قائلاً :

ـــ عرضتم حياتكم للهلاك لإنقاذ فلاح نوبي اسمه نور ، لأجل خاطر جده عبد الصبور ؟

ـــ كنا قد وعدنا العجوز .

ـــ لكنكم وعدتم المعلم بعدم الهرب !

ـ لأن أحداً لم يبلغنا عن سبب أسرنا ونحن لسنا من عداك !

وبعد تردد عاد الشاطر يقول :

ـ لو حدث لا قدر الله ووقع أحد رجالك فى الأسر ، أليس من واجبه ان يحاول الهرب ؟ ثم انك فعلت معنا مثلما يفعل القط مع الفأر ، عندما يجشمه بالهرب ثم يمسكه من جديد!

ـ فهل تأكدتم من استحالة الفكاك من قبضتى ؟

ـ تأكدنا .

فبقى صامتاً فترة ثم قال :

ـ منذ البداية لم أكن أنوى أذيتكم ، فليس من عادتى الاحتفاظ بسجناء والتكفل بإطعامهم ، هذا تبذير والذبح أوفر ، لكنى سمعت عن حيلتكم مع المماليك وقطع طوف أميرهم ، ولولاها لما تمكن رجالى من اقتنائهم ، لهذا قررت أن تبقوا هنا للاستفادة من مواهبكم . عرفت يا أيها الشاطر انك تقرأ وتكتب بشكل معقول ، لذلك سأجعل شيخ الفقهاء يودعك لدى أحد الأسر ، تأكل وتشرب وتنام عندها ، وتواصل تعليمك إلى حد الاجادة ثم تعمل معى هنا . أما صاحباك فقد أمرت بضمهما إلى صفوف المقاتلين !

ـ كل ما تأمر به نرضاه . فهل لى أن اسأل عما تعرفه من أخبار مصر المحروسة وإن كان مراد بك مازال يقاتل الفرنسيس ؟!

ـ الفرنسيس غادروا مصر منذ زمن وعاد محلهم الاتراك الكلاب !

فانحنوا ومضوا وهم فى شغف إلى معرفة المزيد . حتى أوقفهم محذراً :

ـ ان حاولتم الهرب ثانية فالذبح هو الجزاء .

فانحنوا فى طاعة ، ثم قال الشاطر :

ـ أرجو أن تسمح لى بالانضمام مع صاحبى إلى زمرة المقاتلين .

ـ لكنك تكتب وتقرأ ؟! على كل حال لك هذا .

وفى أثناء الانصراف صادفوا طفلته الجميلة فداعبوها ، وأنستهم بسمتها آلامهم . وفى اليوم التالى انتقلوا إلى دار واسعة ، وأعطوهم ثياباً نظيفة ، ولكل منهم عمامة وشال أبيض طويل ، وعدد من الحراب وجواد . صاروا يأكلون جيداً ويأخذون مرتباً عينياً بحيث أن بعض الأهالى حسدوهم !

ورغم التحذير بالذبح فإن فكرة الهرب لم تفارق افكارهم . وقبل أن يأمر الملك بإعادة جميع ما كان بحوزتهم قبل الأسر إليهم ، استدعاهم وسألهم عن الغدارات ، وفوجىء حنحوت وادريس بالشاطر يكذب قائلاً :

ـ الغدارة سلاح قاتل لكنها ليست فى قوة الحراب .

فخرج معهم إلى الساحة وجعله يحشو غدارته وأمره بأن يطلقها على جذع نخلة ، فطاشت الرمية بمسافة بعيدة ، اقترب حنحوت مستنكرا ، وقبل ان ينطق همس له الشاطر أن يفعل مثله ، فلما جاء دوره طاشت رميته . فما كان من الملك إلا أن أمر أحد أتباعه الذى رمى حربته فأصابت قلب الهدف ، فسر من ذلك ، وترك لهم الغدارات ، ولو رآها أقوى من الحراب لأخذها لنفسه .

وفى الشهور الثلاثة التالية وجدوا أنفسهم يقضون ساعات طويلة فى المران ، عشرون يوما فى ركوب الخيل العفية والركض السريع بها والدوران البهلوانى فى أضيق مساحة ، والقفز بها فى الهواء دون الوقوع من فوقها ، والكر

والفر من غير إمساك اللجام . ثم عشرون يوما فى رمى الحراب وسداد تصويبها وهم وقوف فوق الأرض ، وعشرون مثلها وهم فوق الخيول المتحركـة . اما فى الشهر الأخير . فكان المران على العراك والاشتباك والانقضاض على الخصم وصرعه ، وبعض حيل المراوغة والفكاك من الحصار .

بعد أن استوعبوا جميع ذلك جاء الملك وشاهدهم ، فلما أطمأن الى حسن مرانهم أخبرهم أنه قرر تزويجهم ، وإفراد سكن خاص لكل منهم. شكروه ممتنين فى الظاهر ، مغتمين فى الباطن ، لانهم فهموا ان غرضه ضمان استقرارهم الدائم بالزوجة والاطفال ـ ولم تكن لياليهم قد خلت من زيارات نسائية خلسة ، وجعلهم هذا يفكرون فى الفرار اكثر من أى وقت مضى !

ولم يغير حتحوت رأيه عندما شاهد العذراء التى اختارها له ، كذلك الشاطر ، وإن كانا قد تظاهرا بالرضاء ، بينما بهر ادريس بفتاته وأعلن رضاه صادقاً ، وصارح صاحبيه بميله إلى الاستقرار فى هذا المكان بعد أن صار ذا مكانة ، فاستنكرا منه ذلك وجاهدا عدة أيام لإثنائه عن عزمه ، فلما وجداه مصمماً تغير خاطرهما نحوه ، لا يحادثانه إلا بأقل الكلام ، وإن كان ثلاثتهم قد اتفقوا فى العزوف عن احتساء عرقى التمر ، وفى استخفاف نكات المقاتلين البذيئة وعربدتهم المفرطة .. غير أن ادريس قطع القطيعة ذات يوم شارحاً:

ـ قبل لقائى بكما فى القاهرة كنت بائساً ، لا أهل لى ولا صديق ولا وطن ، فصرتما لى جميع ذلك ، بلدى بعيد عند كردفان ، ولا أعرف إن كان

أهلى أحياء أو أموات ! . فى مصر المحروسة كنت تابعاً لأحد الغز البغاة ، ثم صرت خادماً عند ديترن رسام الفرنسيس ، أما هنا فلأول مرة أجد نفسى لست ملكاً لأحد ، مثلكما تماماً ، وهنا أقرب إلى كردفان من مصر .. أنت يا حتحوت سوف تعود إلى أبيك رضوان وأمك أم الخير وأخوتك وأصحابك ، والدك يزرع الأرض ، وأخوك مرسى صاحب مركب بشراع كبير . وأنت يا شاطر ستصبح ثلة بلدة حتحوت بلدتك وأهله أهلك ، وكثيراً ما حدثتنى وقت مبيتنا فى الصحراء عن محبتك الزائدة لبنى حتحوت ، ومن الطبيعى أن تقع محبتهم فى قلبك لأننى أنا شخصياً أحببتهم من غير أن أراهم ، فما بالك وأنت ستتزوج من زهرة ابنة الريس مرسى !

فأطرق الشاطر فى حياء العاشق ، وقال إدريس فى خفر زاده جمالاً :

ـ بصراحة ، لقد اعجبتنى العذراء التى اختارها الملك لى ، مليحة ولطيفة ، وسوف أعيش معها دون خوف ، فى مصر عشنا فى خوف من أصناف العسكر من مماليك وأتراك وأكراد وفرنساوية ، لكننى هنا لن أخاف ، لأننى صرت مثل العسكر!

فقال حتحوت بقلب صاف :

ـ تذكر أن جميع المشاكل التى وقعت فيها أنا والشاطر بما فى ذلك أسرنا هنا كانت بسبب وفائنا لك ، لم نتخل عنك فلماذا تفعل أنت ؟

ـ محبتى لكما ستظل مدى العمر ، لكنك قلتها : دائماً أورطكما فى المشاكل ، منذ الآن لن أفعل لأنى سأبقى هنا .

وفى تلك الليلة استلقى كل واحد منهم فى مخدعه دون كلام ، لكنهم جميعاً ظلوا يعانون السهاد بسبب بلبلة البال ، ادريس يحلم بزفافه إلى

العذراء التى رآته ، والشاطر يحلم بعودته إلى المنيا والزواج من زهرة التى هى عنده أجمل من كل زهرة ، ولم يعرف قلبه العاشق أن شاباً آخر من أسرة كريمة ينافسه فى حبها ، هو بكر أحد أنجال شيخ الاشمونين الطيب، الذى أوى عائلة بنى حنحوت الكبير وقت تغربهم من ديارهم هرباً من الفرنسيس ، وكان معهم شهماً طيباً لأنه من أسرة كريمة . أما حنحوت فقد أغمض عينيه يحلم ، وقطع المسافة بينه وبين قريته فى لمح البصر ، وارتمى فى حضن والدته أم الخير وشم رائحتهاوذاق طعامها الشهى ، وعاد إلى العمل مع الريس مرسى ، وقد عرف أن رائحة النيل المبارك هى نفسها على طول مجراه ، لأنه يروى جميع البلاد والناس والبهائم والطيور ، حتى الحشرات والزواحف ، فمن أين يأتى ؟ أمن جبال القمر أم من نبع مسحور مبروك !

مرت الأيام ثقيلة بسبب اقتراب موعد الزفاف ، وصار على الشاطر وحنحوت التخطيط للهرب بأسرع وقت ، بينما هما يفكران فى حيلة ذكية إذ بإدريس يقترب منهما ويقول :

ـ اختارا أية ليلة للفرار وسأعاونكما بالتمويه والتغطية .

ـ كيف ؟

ـ سأبقى هنا بالدار ، وسأشترى عرقاً يكفى لثلاثتنا .

ـ أتعاوننا بأن نسكر !

ـ سوف أبقى هنا بالدار ، أضحك وأتكلم بصوت عال وأقلد أصواتكما ، فيظن من بالخارج أننا نحن الثلاثة نسكر معاً ، والباقى مفهوم .

ـ سيعاقبونك لأنك ساعدتنا .

ـ سيجدوننى فى الصباح ثملاً فى غير وعيى ومقيداً ، فيظنون أنكما فعلتما بى ذلك كى تفرا .

قال الشاطر فى حسم :

ـ فكرة جيدة ، ولكن الفرار بعد ثلاثة أيام .

ابتسم إدريس :

ـ وبعد ذلك بأيام أكون أنا نائماً فى حضن عروستى !

غير أن القدر كان له تدبير آخر ، فبعد يومين حدث هرج ومرج ، ورأوا الناس يجرون فى اهتمام ، وقد زال الركود اليومى ، فساروا معهم ، وبعد قليل وجدوا قافلة من عشرة جمال تقترب ، يقود كل جملين رجل لوحت الشمس بشرته بسمار داكن ، وكل جمل يحمل صندوقين كبيرين ، ويتقدم القافلة فارس متوسط القامة فوق صهوة جواد جميل يمشى فى اختيال ، وقد ازدان سرجه بالخيوط المزركشة وكور الحرير ، وبلجامه زراير فضية لامعة . بدا أن جميع الناس يعرفونه . قال الشاطر :

ـ مثل تاجر واسع الثراء ، وكأنه أحد المكوك لولا أن بشرته فى لون أهل الصعيد !

وتبعوا القافلة حتى وجدوها تتوقف أمام حصن الملك ، وكان قد خرج بنفسه يلاقى الفارس الأنيق ويرحب به . ولم يعرفوا عنه سوى أنه صديق الملك جاء فى زيارته من مصر المحروسة ! . فخفق قلب حنحوت وكذلك الشاطر . وذهبوا فى المساء إلى مشرب الجعة ، يستقصون أخباره من ثرثرة القائلين السكارى ، فعرفوا أن اسمه هادى ، وأنه من تجار إسنا بالصعيد ،

وهو أحد أربعة تجار بإمكانهم التجول فى جميع أراضى الشايقية دون التعرض لأذى . همس حنحوت لصاحبه بعد أن خرجوا إلى الطرقات :

ـ قد يكون السبب فى عودتنا .

قال إدريس :

ـ لكننا الآن من عسكر الملك !

ـ وهل مَنْ كنا معهم عسكر ؟! إنهم مجرد قتلة سكيرون ، أسوأ من أراذل العسكر فى مصر ، وان كان المماليك قد صمدوا أمام بونابرته ساعة أو ساعتين ، فهؤلاء لم يكون ليصمدوا أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، نحن الآن فى زمن البارود والألغام وتدابير الأمخاخ !

ـ لكنهم شجعان !

ـ وماذا أفادت شجاعة المماليك أمام حسن تدبير الفرنسيس ؟

أما هادى ضيف الملك ، فله قصة ذات شجونٍ تدفع بالدمع إلى العيون ، فقد كان صبياً عندما خرج أخوه الأكبر زبادى فى قافلة إلى بلاد السودان ، وكان يصطاد فى بلاد الفور التى هى دارفور ، وله علاقات تجارية مع عرب الشايقية ، وكان يصطاد أفضل من أي صياد من أهل البلاد ، لأنه يستعمل البندقية بينما هم يستخدمون الرماح والفخاخ المحلية ، وكان يجمع سن الفيل وريش النعام وكل ما هو زهيد الثمن فى دارفور ويبيعه فى مصر بأغلى الأثمان .

كان يغيب ثلاثة أعوام أو أربعة ، فلما طالت غيبته ثمانية أعوام ، وجاء العام التاسع خرج أخوه الأوسط شادى للبحث عنه ، لم يجد فلاحاً واحداً

يقبل التوجه إلى دارفور ، لذلك لجأ إلى ملك الشايقية ، أهداه هدايا نفيسة ، وطلب منه استئجار خبير قوافل وعدداً من الرجال الاشداء ، ساعده الملك إكراماً لأخيه الغائب زبادى ، وأعطاه سبعة مقاتلين وخبيراً محنكاً اسمه سر الختم .

ظل الأخ الأصغر هادى وأسرته فى اسنا ينتظرون عودة شادى بأخيه زبادى ، فلما طالت غيبته هو أيضاً سبعة أعوام ، توكل هادى على الله وجهز القافلة فى العام الثامن مقتفياً خط سير شادى ، حتى وصل بالجمال المحملة بالهدايا ، بعد أن رحب به الملك وجلس إليه ، لاحظ هادى أنه يغير مجرى الحديث كلما سأله عن شادى ، فلعب الفأر فى عبه ، طالت المراوغة إلى ما بعد الغداء والعشاء ، وبينما هما فى الشرفة النيلية قال هادى :

ـ شيخى العزيز أدام الله عزك ، ما عندك من أخبار ؟

فأطرق الملك حزيناً ثم راح يحكي :

ـ عندما جاءنى شادى منذ أعوام ، بقى عندى أربعة أيام ، ثم جهزت له مقاتلين من أشجع الرجال ركبوا جمالاً من خير الابل ، يرشدهم أحسن خبير قوافل ، يحفظ المسالك والدروب وأماكن الآبار والظلال ومعالم الطريق ومعانى النجوم ، ويفهم فى الاعشاب وطرق العلاج ، فجر اليوم الخامس خرجوا سالكين طريقاً لا يعرفه الا الخبير « سر الختم » ، ومر أكثر من أربعين يوماً ، وإذا بالخبير يعود من غير أخيك ومعه ثلاثة رجال فقط .

أرسل الملك فى استدعاء الخبير سر الختم ، الذى جاء ورأى هادى فسالت دموعه على وجنتيه المجعدتين ، وحكى :

ـ عند خروجنا فى أول الرحلة خيل لى انى سمعت صوت طائر الشؤم

قطاع الطرق، ورجوت أخاك شادى أن نؤجل الترحال ، لكنه أبى ، فتقدمنا فى طرق جانبية فوق الرمال وبين الصخور وعبر دروب لا تتسع إلا لدابة واحـدة ، وسارت الأمور على ما يرام لمدة أسبوع ، ومع أول يوم من الأسبوع الثانى مات أول الرجال بضربة شمس ، ثانى يوم أصيب ثانى الرجال بالجنون فجأة ، بدأ برؤية سراب الغزلان ثم راح ينادى على زوجته وأولاده ، وتركنا بغتة وجرى موغلاً فى الصحراء ، وفشلنا فى اللحاق به ، ولابد أنه مات عطشاً .

فى الأسبوع الثالث فقدنا ثالث الرجال وقد حان أجله الربانى فدفناه وواصلنا الرحيل ، ورجوت أخاك أن نعود فرفض ، وبعد ذلك قتل الرابع بحربة جاءته من بين الصخور ، وفى ليلتها سيطر علينا الخوف وزاغت عينا شادى ونمنا ، وعند الفجر ذهبنا لايقاظه فكان نائماً النومة التى لا قيام منها إلا يوم الدين ، وقد ازرق بدنه ، وبالبحث وجدنا أثر لدغة من عقرب أو ثعبان أو حشرة سامة لا نعرفها ، فدفناه بالاحترام الواجب وقفلنا عائدين ، وحتى نسرع بالمسير تخففنا من كل أحمالنا يا فى ذلك صناديق الهدايا والبضاعة . هذا ما كان والله على ما أقول شهيد .

عندئذ بكى هادى لمدة ساعة زمنية ، وكاد أن يقع مغشياً عليه ، بعد أن تمالك قال بصوت متهدج :

ــ يا عم الشيخ سر الختم ، لى رجاء عندك ، الآن عرفت أن غياب أخى شادى سوف يطول إلى يوم الدين ، بقى أن أعرف مصير الأكبر زبادى المختفى منذ سبعة عشر عاما ، فإكراماً لخاطر أمى ياسنا وخاطرى وخاطر شيخنا الملك تكرم بإرشاد قافلة جديدة إلى دارفور حيث ذهب زبادى .

تردد سر الختم طويلاً ثم قال :

ــ خاطركم على رأسى من فوق ، أما عن دارفور فأنا لا أدخلها ، أنا لا اطمئن إليهم وهم لا يحبون الشايقية ، ولا اغامر بسلك الطريق من دنقلة إلى الفاشر عاصمة الفور ، لأنه غير آمن ، سأقودك بمشيئة الرحمن من هنا وحتى أقرب محطة على طريق الأربعين ، الذى يصل بين أسيوط عندكم بمدينة الفاشر ، وهناك تنتظر أول قافلة قادمة من مصر وتلحق بها . أتوافق على هذا ؟

ــ أوافق مع شكرى وامتنانى .

ــ بقيت مشكلة الرجال الذين سيرافقوننا ، أخبار الرحلة السابقة ما زالت بالأذهان ، وسيكون من العسير العثور على من يقبل .

ــ أعرض عليهم أجوراً عالية .

ــ يا ولدى ، حياة الانسان أغلى عنده من كنوز الدنيا ، وعلى كل حال سوف أسأل وأرد عليك .

فى المساء التالى عاد سر الختم يخبره أن رجلاً واحداً قبل ، وهو كليل النظر وبه مس وسوف يكون عبئاً والمفروض ان يكون عوناً !

ابتأس هادى . وسأله الخبير :

ــ فماذا عن الرجال الذين رافقوك ؟

ــ اتفاقهم معى ان يرجعوا إلى إسنا من هنا ، حاولت إغراءهم دون جدوى ، فلاحو مصر لا يحبون الترحال خاصة إلى دارفور .

ومع ذكر اسم مصر طرأت على بال الملك فكرة ، فسأل سر الختم :

ــ أيكفيك ثلاثة شبان كى تقوم بالرحلة ؟

ـ بشرط أن يكونوا أصحاب البدن أقوياء النظر ، وسأحضر « قدريوه » بن أخي .

فابتسم الملك وربت على كتف هادى ، ثم ارسل يستدعى حنحوت والشاطر وإدريس ، فلما وصلوا تفحصهم هادى مندهشاً وقال للملك :

ـ كما لو كانوا مصريين !

ـ هم كذلك ، ربما باستثناء هذا الاسم إدريس .

ثم سمح لهم بالجلوس ، فجلسوا فوق ثلاث وسائد طرية ، وتربعوا ونظراتهم حائرة بين الملك وهادى الذى سألهم عن أصلهم ، فقال إدريس :

ـ أنا من كردفان ، أظن ذلك ، خطفنى نخاس حقير إلى القاهرة وباعنى لمملوك هرب مع مجىء الفرنسيس فصرت خادماً لرسام فرنسى اسمه دينون .

قال الشاطر :

ـ وأنا من القاهرة ، تيتمت صغيراً وتعرفت على حنحوت ، وتآخيت معه بالدم ، وقررت أن أعيش معه ولا أفارقه .

وقال حنحوت :

ـ أما أنا فمن قرية تلة بمدينة المنيا وأعمل نوتياً على مركب أخى الريس مرسى ، سافرت معه على طول النيل من أسوان إلى القاهرة .

قطب هادى مهتماً :

ـ ما شكل أخيك ، أهو ضئيل الجسد !

ـ إلى حد ما ، لكنه كبير القلب شجاع واسع الحيلة .

ـ أهو ذلك الذى إشترى مركب الريس جابر ؟

هب حنحوت منفعلاً :

ـ الريس جابر عمه وعمى :

فتقدم منه هادى فرحاً واحتضنه قائلاً :

ـ أهلاً بابن الأصول ، كان أخوك عندنا فى اسنا منذ ثلاثة شهور ، أحضر بضاعة وأخذ عدساً .

فدمعت عينا حنحوت وفرح لسلامة أخيه الريس مرسى ، ابتسم الملك هادئاً بسعادة ضيفه من بعد القنوط ، وأمر بتجهيز حوائج القافلة .

فى الصباح لاقاهم هادى خارج الحصن ، فلما عرفوا منه أن مقصده دارفور استاءوا ، لأن هدفهم العودة إلى المنيا ، فوعدهم بتحقيق غرضهم ولكن بعد دارفور ، قال :

ـ سنكون نحن الأربعة شركاء ، لكم نصيب النصف من ربح التجارة التى سوف نعود بها من هناك .

انتعش حنحوت :

ـ إن كتبت لنا النجاة !

هز الشاطر كتفيه وقال لهادى :

ـ الذهاب معك رغم الأخطار أهون من البقاء هنا والزواج . كيف حال مصر وماذا فعل ديزيه الفرنساوى مع مراد بك ؟

ـ ديزيه ومراد ؟ مراد مات منذ عامين تقريباً ، والفرنسيس تركوا مصر بعد موته بستة شهور أو سبعة .

فصاح إدريس :

ـ كنا نهرب اذن من مطارد غير موجود ! الآن لا خوف علينا من العودة إلى مصر . كيف حال البلاد الآن ؟

ـ هذا موضوع طويل ، وأسباب الرحلة كثيرة . علينا الآن أن نعد حوائجنا .

وفى الطريق حدثهم عن صداقته بعرب الشايقية ، فقال : إن أخاه زبادى المفقود هو منشؤها، وهو المصرى الوحيد الذى جاب السودان طولاً وعرضاً، وله صداقات فى كل مكان ، وأعظم من يصيد الأفيال والنعام بالبنادق ، فهو تاجر عاج وريش نعام ، ولم يتاجر فى الرقيق قط .

قال الشاطر :

ـ بصراحة ومن غير أى زعل ، نحن لم نحب أصحابك عرب الشايقية ، أنهم يذلون النوبيين مثلما ينهب المماليك الفلاحين عندنا .

ـ مع أنهم مضيافون كرماء ، رفيق السفر عندهم مقدس ، وإذا كان للمسافر صديق من بينهم ووقع عليهم سطو ونهب فى الطريق فلابد من ردّ ممتلكاته إليه ، ولو كان الذى إستولى عليها هو الملك نفسه .

ـ لقد ردوا لنا حوائجنا .

ـ وان جاءهم شبان من المناطق المتاخمة بقصد التعلم قام شيخ الفقهاء بتوزيعهم بين معارفه حيث يحظون بالمأوى والطعام عدداً من السنين .

ـ لكن جنودهم قطاع طرق ، جهلة أسلحتهم الوحيدة هى الحراب والسيوف ونحن فى زمن البارود والمدافع ، استوعبنا مهاراتهم بسهولة .

ـ ومع ذلك فهم فرسان مهرة ، وخيولهم من أعظم خيول دنقلة الشهيرة ، يتجهون إلى المعارك فى شغف كبير ، اشارة الهجوم عندهم زغرودة طويلة ، تبرز فتاة عذراء ترتدى ثياباً فاخرة وقد اقتعدت سنام هجين يجمع الكل على حرمته حتى الأعداء ، بمجرد ان تطلق زغرودة طويلة يهجمون هاتفين : السلام عليكم !

ـ ما حكاية السلام عليكم هذه ؟ . سمعناها منهم وهم يهجمون على المماليك ؟!

ـ يقصدون سلام الموت على الأعداء . وهم منقسمون إلى ثلاث قبائل ، منها هذه التى نحن فيها الآن ، وتعمل كل قبيلة على حدة فى فرض الاتاوات على فلاحى النوبة وفى سلب المسافرين ، لكن هذه القبائل تتحد عندما يواجهون غزاة أغرابا ، وبإمكانهم جمع عشرة آلاف مقاتل فى أقل زمن ، أصلهم غامض شأنهم شأن الفنج ، وكل تركى عندهم كلب ، وهم أكثر منا كرهاً للمماليك .

لعدة أيام طاف معهم سر الختم يشترون معدات الرحلة ، من سيور جلدية وإبر غليظة لرتق النعال ، وأدوات اصلاح المكسور من أعمدة الخيام ، وكميات كبيرة من البلح قليل السكر، لأن السكر يسبب العطش ولابد من الاقتصاد فى الماء ، إذ إن الآبار على مسافة أيام من بعضها البعض ، والبلح لهم وللجمال أيضاً ، وملح وفلفل لعمل العصيدة والأرز والخبز ، وخمس وعشرين قربة من جلد الغنم ، وحلة نحاسية للطهى ، وكميات من الاعشاب الطبية . وملابس قطنية جديدة ، وحزام من الصوف لبرد الليل وكوفية ، ونعال دون كعوب لأنها انسب للسير فى الصحراء ،

وهدايا لتوزيعها فى الطريق ، إلى جانب ما كان قد حمله هادى من مصر المحروسة من عطور وخرز وأجراس نحاسية وسلع مصرية .

اختاروا أفضل الابل وأقواها ، وتركوها ترعى علفاً ناضراً وتشرب من الماء ما شاء لها ، خزيناً للطريق المجدب . واختار سر الختم ثلاثة جمال مسنة لحمل قرب الماء ، وقال يرد على دهشتهم :

ـ لأنها رزينة بفعل العمر ، لا أخشى من نزقها على ما تحمل من قرب ، وهى تعلم أنها تحمل أعز حوائج المسافر ، فتجدها عند نهاية سير اليوم ومجيء ساعة رفع الاحمال تنتحى بعيداً عن بقية الجمال خوفاً على القرب التى تحملها من الاصطدام بجمل آخر أو صخرة فتنفجر قربة أو قربتان ، تفعل هذا بالغريزة والخبرة ! . الجمل حيوان ذكى ، وبإمكانه السفر أسبوعين فى الشتاء من غير أن يذوق الماء ، وقد يصبر فى الصيف اثنى عشر يوماً ..

أخيراً تحدد اليوم المنتظر ، فأقام لهم الملك حفل الموادعة ، وفى المساء باركهم كبير الفقهاء بتحريك مبخرة فوق رؤوسهم ورؤوس الجمال وكل حزمة أو صندوق من حوائجهم ، وأهدى هادى فرسه البديعة إلى الملك عرفاناً بجميله .

وفى الصباح الباكر راحوا يحملون الاشياء فوق الجمال بترتيب ، بحيث يكون انزالها عنها فى المساء سهلاً ، فالقافلة لن تتوقف للغداء لأن الجمل يأكل وجبتين فقط ، فيأكل الرجال غداءهم أثناء السير .

تأخر التحميل بسبب عدم دراية حتحوت وصاحبيه . وشدد عليهم سر الختم بضرورة حسن معاملة الجمال ، وحذرهم قائلاً : إنه إن آذى رجل جملاً حمل الأذى فى نفسه ، ولم ينتقم على الأثر ويصبر له ، فإن تكرر الأذى ، فكر

فى الانتقام ، ولا يوقع به والقوم من حوله ، بل ينتهز فرصة انفراده به ويغير عليه ويلقيه على الثرى أو يرفسه ثم يطؤه بخفيه ، وقد يظل باركاً عليه حتى يموت .

فهموا معنى النصيحة ووعدوه بحسن معاملتها وبدأوا التحرك يصحبهم « قدر بوه » بن أخى سر الختم حتى لا يرجع العجوز وحيداً . وخرجوا من البلدة ، وبعد وقت لاح لهم فى الطريق ما جعلهم يستبشرون خيراً ، اذ رأوا نوبية رشيقة القوام وقد انفردت وهى مسدلة نقابها على وجهها ، صاح « قدر بوه » يرجوها :

ـ وجهك وجهك .

فاستجابت وأزاحت نقابها فى خفر ، فكشف عن وجه بديع القسمات ، فصاحوا بكلمات الاعجاب ، وحياها سر الختم فى وقار الشيوخ وقد عرفها وهز رأسه متنهداً :

ـ كانت أمها فى مثل ملاحتها ، ليت الزمان يعود !

(٤)

ركوب الجمال فى بحر الرمال

بعد ساعتين كانوا فى جوف الصحراء ، وقد اختفت جميع مظاهر الحياة ، وتبدل الهواء وصار جافا ، والخبير يعتمد على ظله لمعرفة الاتجاهات ، ويقودهم فى ثقة ، إلى أن توسطت الشمس السماء ، وتقلص ظله تحت قدميه ، فتردد مرتبكاً ، وعندما توقف توقفت جميع الجمال من نفسها ، لأنها تشعر بقيمة الخبير ، فإن وقف وقفت حوله حتى يستقر على خط السير فتمشى من ورائه غير عابئة بباقى الرجال ، ولا يتقدم الجمل الخبير فى العادة ، فإن سبقه غير حافل به فهو قد عرف المكان المقصود ، لأن بإمكانه أن ينشق الماء على مسيرة ثلاثة أيام ، وأن يتذكر المكان الذى رعى فيه مرة واحدة ولو بعد زمن طويل !

خاف قدربوه أن تكون الأرض مادت برأس عمه وطاحت بسبب عدم خروجه إلى الصحراء منذ أعوام ، وبسبب أن الخبير مهما بلغ من دراية قد يضل إذا فقد الظل ! . وظن حتحوت وصاحباه أن التوقف بسبب الغذاء ، فتأهبوا للأكل لولا أن ظهر غزال شارد عن بعد ، ما إن رآه هادى حتى ترجل ببندقيته وتسلل خلفه ، لكن الخبير ناداه آمراً :

ـ لا تفعل ، ارجع .

ثم أدار وجهه بعيداً ، وكان هادى قد أطلق بندقيته فأصابت الغزال فى

مقتل ، وعاد حاملاً إياه ، وما إن استدار سر الختم ورآه حتى تهلل وجهه وقال :

ـ بشرى خير مؤكدة ، رحلة ميمونة بإذن الله ، رام ماهر مثل أخيك .

ضحك قُدْرَبُوه سعيداً وقال للشاطر :

ـ خاف عمى عدم اصابة الهدف ، لأن أول طلقة فاصلة فى حظ الرحلة ، إن أخطأ الرامى أصاب القافلة مصيبة فى الطريق ، وجميع الخبراء بما فيهم عمى يؤمنون بالفأل والتطير ، سوف يقودنا الآن بثقة أكبر . واجب الخبير الحرص والاقدام معاً ، فإن تشاءم زاد حرصه وقل إقدامه وهذا ضار ! . من علامات التفاؤل أيضاً ان تعثر القافلة أثناء سيرها على بلح متساقط فى الطريق ، ولو رآه عمى لزادت همته ولما أخطأ الاتجاه بشبر واحد ، وسأعمل على أن يصادفه .

واصلت القافلة سيرها على مهل حتى مالت الشمس ، وبدأ ظل الخبير يمتد فأصبح على يقين من اتجاهه ، وأسرعت الابل فوق الرمال ، وراح قدربوه يغنى لها ، كان صوت حدائه بديعاً فطربت الابل ونشطت فى سيرهـا ، وكان غداء الجميع مضغ التمر وهم سائرون ، وطوال اليوم يرون نهراً من المياه ، يبرق عند الافق ويغريهم بعذوبة مائة وبرودته ، وظل انعكاس الضوء يؤثر تأثيراً عجيباً فى جميع ما يرونه ، وبدأ خداع النظر ، فرأوا الحجر الصغير وكأنه صخرة كبير قائمة على بعد دقائق !

مع اشتداد الحرارة أبطأت الابل سيرها ، وفشا هدوء وفتور بين الجميع حتى مالت الشمس نحو الغرب ولطف الجو فجدت الابل فى السير واندفعت مسرعة ، وقدربوه يساعدها بالحداء ، وحط الليل وصارت

النسمات لطيفة ، واسترشد سر الختم بالنجم القطبى الذى لمع فى السماء . وبعد ساعتين أو ثلاث نادى فيهم :

ـ الدار يا عيال .

ومعناها انتهاء مرحلة اليوم ، فإذا الجمال ينضم بعضها إلى بعض وتبرك راضية بوقت الراحة ورفع الاحمال عن كاهلها ، بينما كانت الابل المسنة قد بركت جانباً ، فأنزلوا عنها القرب ، ثم نصبوا ثلاث خيام بعد أن أوقدوا النار ، وانهمك قدربوه فى اعداد القهوة ، فاستعادوا بعض انتعاشهم ، ثم أخذ بعد الطعام من لحم الغزال الشهى ، بينما قدم عمه العلف للابل من التمر الجاف فراحت تأكله بنواه ، مع ايغالهم فى الليل شعروا بالبرودة ، ثم اجتمعوا حول الطعام ، وكانوا جميعاً جائعين وكل واحد يظن انه سيلتهم الكثير فإذا به يشبع من القليل ، وبقوا وقتاً يتسامرون ، ثم سألوا هادى ان يحدثهم عما جرى فى مصر المحروسة فى أثناء تغربهم عنها ، لكنه ما إن بدأ يحكى حتى رأى جفونهم تثقل وقد غلبهم النعاس بسبب الاجهاد ولفحات الشمس طوال اليوم واهتزازات الجمال الرتيبة التى تتعب عضلات البطن لغير المعتاد ، خاصة فى اليوم الأول .

دخل الثلاثة إلى خيمتهم ، بينما الجمال تحوم بين الخيام دون اكتراث بالحوائج الملقاة على الأرض ، لكنها ما ان اقتربت من القرب حتى احاطت الاتقاءها .

فى تلك الليلة ظل قدر بوه متيقظاً فترة طويلة يراقبها ويحادثها، لأنه يعرف أن الجمل بعد اخراجه من القرية أو الواحة والقذف به إلى الصحراء قد يحاول أن يتسرب أول الليل ليعود إلى حيث الماء والعلف الناضر ، وأنه قد

يفعل ذلك خلال الأيام الثلاثة الأولى . . فلما اطمأن قام وأخذ فى عبه بعض التمر ثم سار مسافة طويلة ونثره فى الطريق ، وعاد وهو يزيل آثار أقدامه ، والسماء من فوقه صافية مرصعة بالنجوم ، حتى دخل خيمة عمه ونام .

عند الفجر استيقظوا وما زال بالسماء قليل من النجوم ، شاعرين بإرهاق الأبدان ، فكل عضو متألم وكل حلق جاف ، والدنيا ما زالت بها نسمة باردة آتية من الشمال . وأعاد قدربوه إشعال النار الخامدة لإعداد القهوة والفطور ، وثمة نور ضئيل انتشر فى السماء مجهول المصدر يرمى اسفلهم وأسفل الابل ظلالاً رواغة باهتة ، ثم أخذ الفضاء يتخضب بحمرة بعث الدفء وكشفت ألوان الصحراء ، وعندما أعادوا الأحمال فوق الجمال ، كانت الشمس قد علت فلم يعد فى الصحراء من ألوان غير صفرة الرمال الممتدة وزرقة السماء ولقائها عند الأفق . وعثروا على البلح المتناثر فى الطريق ، فكان الخبير سر الختم أسعد الناس ، وابتسم الشاطر لقدربوه ، وظلوا سائرين حتى منتصف النهار حيث كادت الألوان أن تنمحى من السماء !

ثم انهم ساروا بين تلال ورمال مدة ساعتين ، دخلوا بعدهما أرضاً متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء ، ثم ساروا ثانية بين تلال رملية ، وتكررت المناظر فى رتابة ، حتى دخلوا فى مفازة لا علامة فيها فشعروا بالعطش والملل ، وازدادت عظامهم تكسيراً ، إلى أن عبروا من جوار علم من علامات الطريق ، وكانت تلالا عالية من الحجارة السوداء ، بعد حين مروا على علم اسمه : سعده وابنتها وكان تلا كبيراً وآخر صغيراً ، ثم أرض سوداء منبسطة صلبة الرمل كثيرة الركام . إلى أن حل الليل ونادى سر الختم بأعذب كلمتين عندهم وعند الأبل : الدار ياعيان ، فبركت الجمال من توها ، وأوقدوا النيران ونصبوا الخيام ، وناموا عقب العشاء مباشرة فلم يمتد بهم السهر ولا الكلام !

بينما هم نائمون إذا عاصفة تجتاح الخيام فجأة ، وإذا الشاطر وصاحباه ينهضون فزعين على خيمتهم وقد قوضتها العاصفة فوقهم ، وثقلها يتزايد بسبب ما ينهال عليها من الرمال التى لا ينقطع تراكمها ، وجاهدوا حتى خرجوا ثم تعاونوا مع هادى وسر الختم وقدربوه فى وضع أكياس الدقيق وقطع الامتعة فوق الخيام حتى لا تجتاحها العاصفة . وعندما سكتت قال الخبير العجوز :

ـ وقفنا الله اليوم ، من يعلم بالغد !

تعاقبت الأيام متشابهات ، والصحراء خالية من العلامات ، ليست فيها الا بعض هياكل الجمال أو الحصى الصغيرة ، فيافٍ مترامية وقفار موحشة ، وعين الخبير على الظلال نهاراً والنجوم أول الليل ، وكل وقت يعاين جمال القافلة ، فإن رأى سرجا مائلا يؤذى أحدها أمر بعدله وإن وجدها تلكأ هتف :

ـ ناجوا الجمال يا رجال ، غنوا لها .

فينطلق قدربوه يغنى ، ومع الأيام حفظوا حداه فصاروا يشاركونه ، وفى الليل كان يأمر الخبير بإيقاد السراج لأن الجمال تحب النور ، وعندما لاحظ تعب الجمل الأبيض خفف أحماله صباح اليوم التالي ووضعها فوق الاسود الصغير . وتعودوا جو الصحراء ، وزالت عنهم آلام العظام وعضلات البطن .

وذات يوم أصبحوا والسماء صافية والجو خال مما ينذر بعاصفة أو يُشعر بريح ، وتبسمت الصحراء لهم وهم يهمون بالرحيل ، وما هو الا قليل زمن حتى هب نسيم بليل لم يعرفوا مأتاه ، مضى همساً فوق الرمال ثم اشتد دون

ان يضايقهم ، ثم إذا بسطح الصحراء قد تغير ، وإذا بذرات الرمال ترتفع قليلاً وتنجس وتدور كأنها بخار يتصاعد من ثقوب فى باطن الأرض لاعد لها .

وشيئاً فشيئاً تزايدت ثورات الرمال مع ازدياد قوة الريح، حتى خيل لهم ان سطح الصحراء قد ارتفع اطاعة لقوة رافعة عاتية من تحته ، ثم إذا الحصى يتطاير ويتناثر ويصيب قصب الأرجل والركب والأفخاذ ، ويتصاعد رشاش حبات الرمل على أجسامهم حتى لطم الوجوه ودوم فوق الرءوس ، وغيمت السماء فلم يعد البصر يرى إلا أشباح الجمال القريبة منه ، وانهال العذاب عليهم لطماً وقذفاً ولدغاً ، ولم يعد بإمكان أحدهم ان يبقى مفتوح العينين ، وفى الوقت نفسه لا يجسر أن يغمضهما والا تاه عن رفاقه ، حموا أنوفهم بالكوفيات ، أداروا وجوههم يتقون الرمال وقد كادوا أن يمسكوا عن التنفس. ثم فجأة سكنت العاصفة فصاح الخبير:

ــ أنزلوا الكوفيات وتنفسوا ، سوف تهب من جديد .

ففعلوا على الفور ، وألقى هو بنظرة سريعة تبين فيها الطريق ، وقال :

ــ تجلدوا .. لأن العاصفة تهب فى ثلاثة هبات أو أربع .

وجاءت الهبة الثانية وكأن شيطاناً عاتياً ينفخ العصفات فى الرمال فيسفيها فوق رؤوسهم مدوياً فى الفضاء دوياً يصم الآذان . اندفعوا فى سيرهم دون توان ، لأنهم إذ وقفوا وثبتوا فى أماكنهم تكدست الرمال من حولهم وردمتهم ، وعذاب السير وأهواله أهون من الوقوف والموت . حتى الابل واصلت التقدم ، إلى أن سكنت الريح فجأة كما بدأت ، كأنها أمرت فامتثلت.

فترت حبات الرمل الناعمة كأنها ضباب ينقشع ، فوقفت الجمال بغتة ، ورقدت للراحة دون أمر ، وكان معنى ذلك انتهاء العاصفة ، فحلوا الأحمال من فوقها واستراحوا ثم نصبوا الخيام ، ومن حولهم قطع كبيرة من الأحجار ، قال عنها سر الختم أنها كانت فيما مضى أشجاراً ثم مسختها الطبيعة ونقلتها من مملكة النبات إلى عالم الجماد ، وسبحان رب العباد !

أشرق القمر بضوئه الباهت فأعطى الصحراء شكلاً جميلاً ، وكان الخطر لم يكن محدقاً منذ قليل ، فبدأت الأعصاب تهدأ ، وصار للسكون وشيش فى الآذان ، وتحركت الأصابع تحك الابدان ، فنهاهم الخبير عن ذلك حتى لا تسلخ ، وقال منذراً :

ــ تحملوا الرمال على أبدانكم ، وتذكروا جيداً ان الماء للشرب فقط ، وغداً إذا شاء الخالق نصل إلى أول بئر على الطريق ، نملأ قربنا الفارغة ، ونغسل ثيابنا المتسخة .. نغتسل إن كانت المياه وفيرة . وإن وجدنا الكلأ لرعى الابل بقينا يومين أو ثلاثة .

احتج إدريس قائلاً :

ــ اننا لا نتوقف للغداء لأن الجمل لا يأكل وسط النهار ، وسنتوقف عند البئر يومين إذا وجدنا الكلأ له ، كل شيء من أجل راحة الجمل وليست راحتنا نحن .

ــ الجمل أساس القافلة وأملنا فى الحياة ، صدق من أسماه سفينة الصحراء ، انه حيوان رائع ذكى صبور ، أفضل من الانسان ، الناقة زوجة وفية لا تعرف الخيانة مثل بعض الحريم ، وتتبع سيدها الجمل أينما ذهب ، الويل للجمل الذى تحدثه نفسه بالاعتداء على ناقة جمل آخر ، كما أنه يعرف

عمله ، الجمل الذى يركبه صاحبه مدة طويلة يأتى فى الصباح وقت التحميل ويبرك أمام خيمته من تلقاء نفسه ، ألم تر جملك يفعل هذا معك ؟ بينما كثير من الآدميين يتراخون ويتكاسلون .

فى تلك الليلة كان النوم متقطعاً ، وقد سدت ذرات الرمال مسام الأجسام ، وتخللت الشعر والحاجبين ، وتسللت من تحت الثياب ، لكنهم حين ناموا ، جاءت الإبل تريد حك رقابها على حبال الخيام لأنها تحب ذلك. أدخل احدها رأسه من ثنايا خيمة حنحوت وصاحبيه يتحقق من نومهم ، لم ينهره أحدهم فعلم أنهم غارقون فى النوم ، أخرج رأسه ثم بدأ فى حك رقبته على الحبال ، وبعد قليل انضم إليه الآخرون ، وكانت قد تعودت على حك رقابها فى حبال هذه الخيمة بالذات بسبب ثقل نوم أصحابها ، لكن فى هذه الليلة القلقة تنبه الشاطر على أصوات غريبة ترتج لها الخيمة دون توقف ، فنهض فزعاً وقد ظن العاصفة الهوجاء عادت ، واستيقظ صاحباه ، ثم خرجوا يتفرجون على حك الجمال إلى أن حققت مبتغاها وتركت الخيمة من غير أن ينهروها .

بقوا فى أماكنهم جالسين يغفون حيناً ويصحون لحظات ، وعندما استيقظ سر الختم دهش لمرآهم ، فالعادة ان يكون هو أول اليقظى ، جمع روث البعير الجاف لايقاد النار واعداد القهوة !

ثم مضت القافلة تخب ، والخبير يشدد التنبيه بالحرص على المياه ، ومن أرض مكسوة بالحصى الصغير ، إلى منخفض قامت على جانبه الأيمن صخرة رمادية ، قامت بعدها على اليسار صخرة بيضاء ، فتوقف عندها الخبير حزيناً وقال لهادى :

ـ هنا دفنا المرحوم شادى أخاك بعد أن مات ملدوغاً .

فبكى هادى ، وتلوا الآيات ترحماً ، وهم ينظرون أسفلهم خوفاً من الحشرات السامة .

بعد مسير عدة ساعات وجدوا فوق الرمال هياكل عظمية بيضاء ، أشار حنحوت نحوها منزعجاً ، لكن الخبير ابتسم لمرآها وطمأنه قائلاً :

ـ هذا غزال ، وهى دليل على أننا فى الطريق المطروق ولم نضل .

عاين إدريس ضخامة الهيكل العظمى ، اعترض بأنه لا يمكن ان يكون لغزال ، فاقترب منه هادى مؤنباً :

ـ يا أخى اسكت ، انها لجمل ، لكن عابرى الصحراء يسمونها غزالاً ، لأن موت الجمل فيه خطر على القافلة !

قال ذلك ثم انزوى حزيناً دامع العينين على شادى الذى مات وهو فى سبيله للبحث عن أخيه زيادى .

قبل الغروب تهلل وجه الخبير وصاح متلفتاً حوله :

ـ الحمد لله بئر عذبة ، وكلأ صالح .

ترجلوا وتلفتوا فلم يروا بئراً ، ضحك سر الختم وقال جذلان :

ـ لأنكم تتوقعون بئراً بجدار ودلوا وحبلاً كما فى القرى !

تبعوه حتى أخذ الرمل يزداد نعومة إلى أن صار ندياً ، غاصت أقدامهم فيه وشعروا بالماء ، وتوقفوا وركعوا يهيلون الرمال بأيديهم حتى أحدثوا حفرة خرجوا منها وبقى قدربوه وحده يكنش الرمال المبتلة ويلقيها جانباً ، حتى

وصل إلى عمق يساوى طوله ، ورشحت المياه إلى نصف قامته ، فتركوها وت
إلى أن راقت وصفت ، فشربوا وملأوا جميع القرب الخالية ، وتركوا الجمال
تشرب كفايتها ، بعد ذلك اغتسلوا وأزالوا الرمال والأوساخ عن أبدانهم ثم
غسلوا ثيابهم ، واستلقوا داخل الخيام سعداء ، غفوا ثم استيقظوا بعد ساعة
نشطين ، وتجمعوا متعشين حول النار يحتسون القهوة ويتسامرون ، بينما
الجمال ترعى الكلأ الوفير ، الذى كان معنى وجوده أن أحداً قبلهم لم يمر
بهذا المكان منذ أمطار الشتاء الأخير ..

قال حنحوت لهادى :

ــ الآن لن ننام منك فى أثناء الحديث ، أخبرنا عن مصر وكيفية خروج
الفرنسيس منها ، ومن يحكمها الآن ، أننا فى شوق عظيم .

اعتدل هادى وبدأ يحكى وصوته ينتشر فى امتداد الصحراء السحيق :

ــ كان بونابرته قد وعد جنوده بإرسال الامدادات لهم ، ولم يصل شئ ،
ثم قتل كليبر ، وخلفه مينو الغبى ، فكره الجنود البقاء ، وحنوا إلى الجلاء ،
وقد ضاقوا بالأوبئة وثورات أهل مصر المتكررة . وفى تلك الأثناء وصلت
جيوش الأتراك بمساعدة الانجليز ، فوافق مينو على الجلاء ، وفى اليوم
المحدد سارت طوابيرهم خارجة من القاهرة ، إلى المراكب التى تقلتهم من
بولاق إلى رشيد ، جنوداً وخدماً ونساء ، والمرضى فوق النقالات ، والحمير
تحمل الحقائب والأسلاب ، وأيضا جثة كليبر المجففة ، وبهذا انتهت سيرتهم
من فوق أرض مصر المحروسة !

سكت هادى ، فاحتج سر الختم قائلاً :

ــ باريس هادى ، أنت تاجر ، والتاجر دائم التجوال ويقابل الكثيرين

ويرى ويسمع مالا يعرفه أمثالنا ، الليلة جميلة وطويلة فلا تبخل علينا وزدنا
من عندياتك .

فقال هادى سمعاً وطاعة ، ثم تنهد يكمل :

ــ وقعت مصر من جديد بين أيدى الأتراك والمماليك ، وكبيرا المماليك
هما محمد بك الألفى والبرديسى ، كما ظهر ألبانى اسمه محمد على وهو
أكثرهم حرصاً ودهاء ، والمفروض أنه يتبع الأتراك .

سأل الشاطر :

ــ وماذا عن المشايخ والأعيان ؟

ــ هاهو السيد عمر مكرم نقيباً للأشراف وملاذاً للضعاف ، وهو العف
اللسان والمشار إليه بالبنان .

ــ لم أسمع عن محمد على هذا من قبل ؟!

ــ بلغنى أنه جاء من صلب رجل عاش فى ميناء قوله من ثغور مقدونيا ،
على الجانب البعيد من البحر المتوسط ، وأن هذا الرجل لما تزوج أنجب من
امرأته ستة عشرة ولداً وبنتاً !

صاح فدريوه :

ــ ستة عشر ؟ ألم يكن لديه ما يشغله !

ــ وماتوا جميعاً عدا محمد على هذا . شب ونما وسرعان ما مات والده ،
فكفله عمه ومات أيضاً ، فكفله عمدة المدينة ..

ــ فمات أيضاً !

ــ لا .. هذا رباه حتى صار فى مقتبل الشباب واحترف الجندية ، ثم قدم

إلى مصر وقد ارتقى بسرعة عجيبة وترأس عشرة آلاف جندى الباني المعروفين بالأرناءود !

هز رأسه عجباً :

ـ هو شخص عجيب . قصير القامة أسمر بلحية حمراء . سمعت أنه يتباهى بكونه من بلدة الأسكندر المقدونى ، وبكونه ولد فى نفس عام مولد بونابرته ، ويمشى واضعاً يده خلف ظهره مقلداً إياه . شغوف بجمع المال والذهب والجواهر وعلب النشوق الفاخرة والرغبة فى التسلط . يظهر غير مايبطن . مازال يراقب الأحداث فى مصر ويتقرب من الجميع . يرى المماليك يتنافسون الترك على نهبنا ولا يتدخل ، ولا يبدو عليه أنه عائد إلى بلاده . والمماليك مفككون ، وكبيرهم ابراهيم بك المحنك الرزين أوهنته السنون وحدت من نشاطه ، والبرديسى غبى غشوم ، تقرب منه محمد على وطواه بالثناء والهدايا . أما محمد بك الألفى فهو ذكى عنيد حصيف ، أظنه غريمه الخطير خصوصاً أنه على عكسه قديم العهد بمصر ويعرفها شبراً شبراً .

ـ فماذا عنه ؟

ـ حياته مليئة بالعجب العجاب .. ويلزمنى أولاً بعض القهوة[1] .

---

(1) ولد محمد على سنة ١٧٦٩ وترقى إلى رتبة سر جشمه أى لواء ـ وكان جلاء الحملة الفرنسية فى ١٥ يوليو ١٨٠١ بحجة كليبر المحنكة .

(٥)

ما فعله ثعلب الألبان فى ذلك الزمان

بعد احتساء القهوة قال هادي لأهل القافلة :

ـ كان بعض تجار الرقيق قد جلبوا محمد الألفى إلى مصر صبياً وباعوه لأحد الأمراء ، ثم اشتراه مراد بك بجماله نظير ألف أردب من الغلال فصار لقبه الألفى . ولما كبر أعتقه مراد وجعله كاشفاً على الشرقية ، ثم ولاه على عدة أقاليم فأخذ أرزاقاً وأموالاً ، واشتهر بالفجور واشترى لنفسه المماليك بكثرة وجعل منهم أمراء وكشافاً على الشرقية ترفعاً لنفسه عن ذلك ، يقيم عندهم ثلاثة شهور أو أربعة ثم يعود إلى القاهرة . وتفرغ للإغارة على ناحية بلبيس فأرهب جميع العربان والقبائل .. وهو يقرأ الرمل ويعرف مواضع النجوم وحركة توابعها بالنظر والمشاهدة من غير مطالعة فى الكتب .

قال قدريوه :

ـ عمى يعرفها أيضاً من غير مطالعة فى الكتب .

ـ هو مثل عمك تعلم ذلك من كثرة الترحال ، ثم لم يزل على سطوته حتى أرسل السلطان التركى ضابطه حسن باشا القبطان لتأديب المماليك ، فخاف وهرب إلى الصعيد مع مراد بك ـ سيده ـ مدة أربع سنوات ، رزن فيها عقله وأحب مطالعة الكتب والنظر فى الفلكيات ، فبدأ يصغر فى عيون

أعوانه وعسكره . فلما رحل القبطان عاد إلى القاهرة وصار صاحب الألف مملوك والأربعين كاشفاً . وبنى لنفسه قصراً من الخشب مفصلاً قطعاً تركب بمفصلات متينة يحمل على عدة جمال . فإذا أراد الراحة أثناء السفر قام الخدام بإعادة تركيبه فيصير مجلساً لطيفاً يصعد إليه بثلاث درجات ومفروشاً بالطنافس والوسائد ويسع ثمانية أشخاص وله شبابيك من الجهات الأربع .

تعجب سر الختم :

ـ هذا مالم أسمع بمثله ، ولا حتى عند أعظم المكوك !

ـ يا عم الشيخ ، أعظم المكوك لا يصل إلى ثراء كاشف عند الألفى ، وكل هذا من نهب أهلنا فى مصر . لقد شيد بالأزبكية قصراً ليس له نظير ، بلّطه بالرخام وجعل نوافذه من الزجاج الملون ، وعلق النجف والتحف من هدايا الفرنجة ، وأنشأ به حمامين علوياً وسفلياً . بقاعة الجلوس السفلى فسقية من المرمر قطعة واحدة . وبالفناء أماكن لسكنى حراسه . وجعل خلفه بستاناً عظيماً وتكعيبة مستطيلة ، وفسقية أخرى فيها أشكال أسماك مجسمة يخرج الماء من أفواهها . ثم سكن بالقصر هو وعياله وحريمه . وكان بالشرقية عندما جاء الفرنسيس ، فاتخذ بونابرته قصره مسكناً له .

ـ كأن الألفى كان يبنيه له !!

ـ له ولخليفته كليبر من بعده ثم مينو . وطول مدة إقامتهم فى مصر ظل يتنقل بين أقاليم الصعيد والشرقية والغربية يكيد لهم المكايد ، يهرب إلى الشام ويعود إلى الصعيد ، ويكبسهم فى غفلاتهم . فلما تصالح سيده مراد بك معهم لم يوافقه وظل يناوشهم ، إلى أن استعان الأتراك بالانجليز واستردوا مصر من الفرنسيس . فعاد إلى القاهرة مع بقية الأمراء المماليك ،

الذين فرحوا وراحوا يتزوجون ويلهون ، إلا هو فقد توقع غدر الأتراك .

كان صوته ينتشر عبر الصحراء فلما سكت ساد الصمت إلا من صوت تنفسهم وحركة الجمال وهى ترتوى . تنهد وقال :

ـ مسكينة أنت يا مصر . كان الانجليز مازالوا بالجيزة والاسكندرية ، فأراد التحالف معهم لكن الأمراء قالوا له : كيف ذلك وهم أعداء الدين فيحكم العلماء بردتنا . أجابهم بأن الترك لم يخجلوا من الاستعانة بهم لطرد الفرنسيس . لم يوافقوه ، فتصالح مع الوالى التركى منفرداً وتقلد إمارة الصعيد من أسيوط إلى الشلال . ثم صدقت فراسته وبدأ الأتراك يقتلون المماليك فى كل مكان ، والذين نجوا منهم لجأوا عندنا فى الصعيد كعادتهم ، وقد صاروا لا يستنكفون من الالتجاء إلى الفرنجة ، وأرسل زعيمهم ابراهيم بك وشريكه البرديسى رسولاً إلى شاطىء فرنسا لطلب النجدة من بونابرته ، لكنه لم يسمح للرسول بالتوجه إليه فى باريس عاصمته . وهكذا شاطت طبخة البرديسى !

نكش فى الرمال بأنامله ثم قهقه قهقهة عالية تبددت فى ليل الصحراء السحيق :

ـ أذكر أن الوالى التركى اجتهد فى عمل تجريدة للقضاء على المماليك سماها الناس تجريدة الحمير !

ارتفعت ضحكاتهم فى سكون الصحراء المطبق . وسأل قدريوه :

ـ هل جعل الحمير تحارب له ؟!

ـ أراد أخذ حمير الأهالى لنقل متاع الحملة فخبأها الناس داخل البيوت . وصار العسكرى يضع فمه عند باب كل دار ويقول : زر ، فإذا نهق الحمار

بالداخل كسروا الباب وأخذوه . فلما تم لهم ذلك سافرت تجريدة الحمير إلى دمنهور فى جيشين يقود أحدهما محمد على ، وعدد الجنود عشرة أضعاف مماليك البرديسى والألفى ، وكان الألفى قد دعا جماعة من أصحابه الانجليز للفرجة ، وكان اسطولهم مازال بالاسكندرية . قالوا له : هـم كثيرون وأنتم قلة . قال : النصر بيد الله . فى دقائق تم سحق الجيش الأول من تجريدة الحمير ومحمد على يتفرج ولا يقدم العون !

ـ لعله كان على اتفاق سرى مع البرديسى

ـ جايز جدا . منذ ذلك الوقت ظهر اسمه ، ولا يزال ينمو ذكره حتى الآن

قال الشاطر :

ـ قلت إن الانجليز يساندون الألفى وهم الأقوى ؟

ـ لولا ضغط بونابرته على الانجليز ما انسحبوا . عند رحيلهم فاجأ الألفى الجميع ورحل معهم . سافر الى بلاد الانجليز . بعد سفره استولى رئيس الشرطة على قصره الفاخر بالأزبكية ، ولجأ بقية المماليك كعادتهم الى الصعيد !

سأل حنحوت إن كانوا قد حلوا بالمنيا . أجاب هادى :

ـ وصل اليها البرديسى واستعادها من الأتراك ، فارتاع خسرو باشا واستغاث بالألبان وطالبوه بأجورهم وتوجهوا الى رئيس الشرطة وأحرقوا قصره الذى هو قصر الألفى . عند ذلك هرب خسرو باشا وغادر مصر الى تركيا !

كانت الجمال ما زالت ترتوى من حفرة البئر . صاح حنحوت وفى مخيلته أسرته ، أم الخير ورضوان ومرسى وزهرة والجميع :

ـ ماذا عن المنيا ؟

ـ تركها المماليك وعادوا الى القاهرة . وكان السلطان التركى أرسل واليا جديدا ، بعد ستة وعشرين يوما فقط طيّروا رأسه بالسيف ورموها من النافذة . فوضى وويلات . ثم جاء من تولى يوما وليلة وخاف وهرب ، ليطوف المنادى فى الطرقات والأسواق ينادى بالأمان للرعية بحسب ما رسم ابراهيم بك والبرديسى بك و .. ومحمد على . وأى أمان ! . هذا آخر علمى لأننى بعد ذلك ارتحلت من إسنا للبحث عن شادى وزيادى ، حتى انتهى بى الحال الى هذا الجلسة الطيبة

تثاءب حتى أدمعت عيناه فقاموا للنوم .

(٦)
التونسى النبيه يبحث عن أبيه

فى الصباح عاين سر الختم الجمال فوجدها فى حاجة الى مزيد من الراحة. تركها تشرب وترعى ما شاء لها ، لأن الجزء المتبقى من الرحلة هو أصعب المراحل وأخطرها ، تصبح بعض الجمال فيه عرضة للموت أو الجنون . وكان حتحوت تأمل حفرة البئر وقد علا فيها الماء من جديد . دهش من أين جاءت ! ومن أين تأتى مياه النيل . كانوا قد تجمعوا للأفطار ، فقـال الشاطر :انه توجد قبة عظيمة فى جبال القمر ليس فيها انسان ، يجرى منها الماء برائحة المسك ، أحلى من العسل وفى لون الحليب ، يخرج من أربعة جوانب ، منها نهران غائران تحت الأرض ، يسيران بإذن الله إلى بلاد الترك والعجم ، ونهران ظاهران هما الفرات والنيل

تعجب سر الختم :

– من أين لك بهذا الكلام !

– من الراوى بمقهى الرميلة أسفل القلعة ، كان يروى سيرة الأمير سيف بن ذى يزن . روى لنا كذلك أن أهل السودان كانوا جميعا من البيض . ذلك أنه لما توفى نوح عليه السلام وصارت الخلافة من نصيب سام الأبيض ، اغتاظ حام الأسود وخرج هائجا ، حتى قادته قدماه إلى أرض السودان ، وكان فيها ملك جبار اسمه كركار ، له بنت ذات حسن وجمال واعتدال وكمال ، تعيش فى قصر عالى البنيان متين الأركان . كانت جالسة ذات يوم

فإذا حام قد أقبل . ولم يكونوا حتى ذلك الزمان قد رأوا انسانا أسود . ما إن رآته حتى أحبته ، وزوّجها أبوها منه . فولدت له ولدا أسود ، ثم وضعت بنتا سوداء ، ثم ذكرا فى لون الليل . لما كبروا وتزوجوا من أهل المدينة البيض كانت ذريتهم سوداء . كبرت هذه الذرية وجاء نسلهم أيضا من السود . فصارت البلاد تسمى بلاد السود أو السودان !

ضحكوا جميعا . ثم انهمكوا يصلحون ما تلف من سروج ونعال . ظلوا فى ذلك حتى غربت الشمس . وفى المساء جلسوا حول النار ، والسماء من فوقهم قبة ضخمة مرصعة النجوم ، والقمر فى نصف استدارته . انتابتهم حالة من التأمل فى أحوال الدنيا والآخرة حتى أوغل الليل ، فنهضوا طالبين النوم . وظل الشاطر وحيدا يفكر فى القاهرة وطفولته ، ثم تذكر زهرة ابنة الريس مرسى ، فاستلقى داخل الخيمة يحلم بها .

صباح اليوم التالى كانت الإبل جاهزة لمواصلة السير . حملوها بالنظام المعهود . ثم توكلوا وساروا . لتمر الأيام متشابهة . ليل بارد ونهار حار يلتهب عند الظهيرة . لا حياة من أى نوع . حتى شعر الشاطر وحنحوت وادريس بالندم لاقتحام هذه المفازة الموحشة ، كان زواجهم من عذارى الشايقية أرحم !

ثم تتابعت الأهوال عندما اكتشفوا تبخر المياه فى احدى القرب . بعد يومين هاج جمل صغير وجرى ، احتك بحبال القرب فانفجرت سبعة منها ، سالت مياهها وابتلعتها الرمال فى غمضة عين ، بعد أن فعل ذلك برك ورفض النهوض ، غضب سر الختم وأمر بذبحه ، فابتعدوا بالقافلة وبقى هو مع قدريوه ، وقيدا الجمل بالحبال وهو مستسلم ينظر اليهما فى هدوء وصفاء ، ثم خار بصوت مؤلم نقلته رمال الصحراء إلى أبعاد كبيرة وهو يرى السكين

الحاد يقترب من عنقه الطويل . بعد ساعتين طلبا المساعدة فى حمل لحمه . وفى المساء طهى قدريوه بعضه ، لكن الأصحاب الثلاثة رفضوا تذوقه ، بينما أكل هادى نزراً يسيراً مجاملة . بعد ذلك قطع قدريوه اللحم إلى شرائح رقيقة عرضها للشمس طوال النهار التالى حتى جفت ، ثم راح يتسلى وينسلها إلى خيوط رقيقة ، فاغتاظ حنحوت ونهره غاضباً :

ــ لم يكن الجمل مريضاً ، وذبحه حرام ، وسيعاقبنا الله !

فأسكته بسرعة لأن عمه سريع التطير ، وسوف يتشاءم . لكن الخبير العجوز كان قد سمع فداخلته الوساوس من غضب السماء ، ومع ذلك لم يرفض طوال الأيام التالية أن يخلط نصيبه من الأرز أو العصيدة بفتائل لحم الجمل .

انقلبت الأيام إلى دهور واختلطت فى أذهانهم حتى أنهم اختلفوا فى أسمائها ، زاد بؤسهم عند مرورهم على آثار قافلة منقرضة ، ورأوا يداً نافذة بين الرمال مصفرة الجلد ، فتقدم سر الختم وهو خاشع وهال عليها التراب حتى غطاها ، وقال متأثراً :

ــ هلكوا وهم على مسيرة يومين من المياه ، أمر الله نافذ .

ثم تفحص القرب الباقية ، وبدا عليه عدم الارتياح ، الماء يكاد يكفى اليومين الباقيين ، إن صدق حدسه وكانا يومين فقط .. فعاد يشدد الأوامر :

ــ الشرب على قدر الحاجة وفى أضيق الحدود ، قل الماء وما من بئر قريبة ، منذ الآن ممنوع الأرز أو أى طعام يطهى بالماء .

ثم غطى القرب بمزيد من الأغطية كى لا تتبخر ، فشعروا بالخطر والعطش ، والقافلة تخب ، وعيونهم ملتفتة إلى كل إتجاه بحثاً عن إشارة أو

علامة من علامات الطريق ، خيل إليهم أن دائرة الأفق البعيد الشاسع قد أخذت تضيق رويداً ، وتتحول إلى طوق صارم يطبق حول أعناقهم ويخنقهم . صاح قدربوه من حلقوم جاف طالباً من الله الرحمة واللطف ، وشعر الشاطر برجفة ودوار لكنه تماسك .

مر اليوم وانقضى الليل فى صمت إلا من أنين الشاطر وقد جف حلقه وزادت حرارته ، لم يكن اليوم التالى بأفضل إلا لتوقع نهاية الرحلة ، لكن الشمس غربت ومر قسط من الليل ولم تلح لهم أية علامة ، حتى تعبوا وغفلوا وهم فوق الأبل ، ولم تعد عينا سر الختم بقادرة على الرؤية من طول ما حدق فى الأفق ، فتوقفوا ، وانهار الشاطر ينازع وطأة الحمى ، نصبوا خيمة واحدة انكمشوا فيها يرعون المريض ، وقد صار جميع جسده يرتجف ، وراح يهذى ، ثم أفزعهم وهب جارياً صوب الرمال صارخاً :

ـ زهرة قادمة هناك ، أنا أراها ! زهرة !

ركضوا وراءه حتى أمسكوه ، وهو يهذى بكلام مبهم ، عن زهرة التى أحبها .

أعد سر الختم بعض الأعشاب مع قليل من الماء ، جعلوه يشربها بعد أن كتفوه ، وإذا به ينام ويهدأ ، فدثروه بأغطية ثقيلة ، حتى نفصد عرقاً غزيراً ، وخرج سر الختم وهو يقول :

ـ ضربة الصحراء ألعن من ضربة الشمس !

وكان نصيب كل فرد منهم رشفة ماء واحدة ليلاً ، ومثلها عند الصباح ، وبينما صحة الشاطر تتحسن خار فجأة أقوى الجمال ، وسرعان ما نفق لغير سبب ظاهر ، فقال سر الختم فى ارتياع :

ـ أخذ الشر وذهب ، سيخف الشاطر ويعيش بإذن الله .

ووزعوا حمولته على باقى الجمال ، التى سارت مقربة فى خطواتها ، وقد نكست رؤوسها من العطش والاعياء ، وحرارة الجو تشتد ، ثم تلبدت السماء بالغيوم بشكل مباغت ، وإذا بالعاصفة تهب ، وكأن هذا ما كان ينقصهم ، بعد أن فعلت فعلها تركتهم فى أسوأ حال ، وقد جفت قرب المياه ولم يصلوا إلى واحة أمان ، حتى توقعوا الموت ، وراح كل واحد يتذكر أحباءه وخلانه ، وبدأت أشتات السراب تطاردهم ، فرأى الشاطر القاهرة مزدانة يوم وفاء النيل المبارك بمياهه الغزيرة العذبة ، والباشا الوالى والمشايخ والأعيان فى أبهتهم ، وبعد كسر السد تدفقت المياه العذبة إلى الخليج لتسبح من فوقه القوارب المزينة بالأعلام والأنوار .

ورأى حنحوت السراب يعكس بلدته تلة فسالت دموعه حنيناً إلى أمه أم الخير وأبيه رضوان وأخيه مرسى وسنبلة وزهرة ، ثم رأى مركبهم الشراعى فى موردة الحنش بالمنيا ، ومويجات المياه من حولها تتلألأ فى ضوء القمر الفضى ! . وأكثرهم عجباً كان إدريس ، إذ عكس سرابه ماضيه عندما كان طفلاً يلعب بين الأشجار فى مكان غير واضح المعالم ، ولم تكن أمامه مشكلة ماء أو طعام ، ورأى أعواد الغاب أطول من قامته ، ورأى بركاً ومستنقعات بها أسماك تتقافز . بينما شاهد قدر بوه سراباً أكبداً لبلدته وشم رائحة داره ! .

أما العجوز سر الختم فقد كان يدقق النظر محاولاً التحقق مما تراءى له عند الأفق ، كان يرى عقداً من الأشباح تتحرك وكأنها أطياف ، فتهلل وجهه وصاح :

— قافلة ، قافلة !

فلما تأكدوا هللوا فرحين ، ثم ضاعت الفرحة عندما أمرهم بانتزاع البنادق والرماح من أماكنها على ظهور الجمال حتى يتأكدوا من سلام القافلة القادمة ..

كانت القافلة الغربية قطاراً طويلا من الأبل المحملة بالبضائع التى يحميها الحراس والعبيد ، آتية من مصر المحروسة فى طريق عودتها إلى دارفور ، يرأسها الشيخ أحمد بدوى أحد تجار الفور ، وكان قد حمل الرقيق والسمن والريش والصمغ والتمر هندى والنحاس والنطرون والجلود إلى مصر ، وعاد بالأنسجة القطنية والحرير والدبلان والجوخ والسروج وبعض الحلى الذهبية والفضة والمرجان وأنواع الخرز ، ولذا شهر حراسه حرابهم وسيوفهم ، فلما اقتربت قافلة هادى الصغيرة وعاين ما هم عليه من إنهاك ، رحب بهم وأعطاهم ما شاءوا من ماء وطعام . بعد أن شبع وارتوى سر الختم فهم أنهم صاروا على درب الأربعين .

رافقوا القافلة الكبيرة حتى وصلوا إلى بئر ، وأعلن أحمد بدوى أنهم سيتوقفون عندها لمدة يومين ، فارتاحوا جميعاً ، وكان أكثرهم سعادة هادى وقافلته ، وقد شعروا بالأمان بعد أن أصبحوا فى رعاية قافلة عظيمة وعلى درب الأربعين المأهول . ثم أعلن سر الختم هادى عن قراره بالعودة مع قدربوه إلى بلدته صباح اليوم التالى ، فشكره وأجزل له العطاء ومنحه خمسة جمال عطية ، وعدداً كافياً من قرب الماء والمأكول ، عند الفجر ارتحل العجوز مع ابن أخيه بعد وداع حافل .

لليوم الثانى كان هادى وأصحابه ضيوفاً على مائدة أحمد بدوى . بعد

الغروب جلسوا حول النار ، وكان معه فى القافلة شاب صغير جميل الطلعة ، عرفوا أن اسمه محمد بن عمر التونسى ، وأنه ذاهب إلى دارفور بحثاً عن أبيه الذى طالت غيبته ، فتعاطف مع هادى الذى كان ذاهباً للبحث عن أخيه زبادى .

من أدب أحمد بدوى وحسن أخلاقه أنه لم يسألهم عن أصلهم والسبب فى الزج بأنفسهم إلى تلك المفازة ، لأنهم كانوا أقرب إلى الهلاك ، فتركهم حتى ارتاحوا ثم سألهم ، فحكوا له حكاياتهم من الألف إلى الياء ، ومن غير مواراة ولا إبطاء ، فتعجب من أحوالهم ، واهتم أكثر ما اهتم بهادى ، نظر إليه مشفقاً وقال :

— ذكرت أنك تبحث عن أخيك زبادى ؟

— أتعرفه يا سيدى ؟

— جميع الناس يعرفون أنه فى الصيد لا مثيل له ، ويصطاد بالبندقية .

— فهل تعرف أين أجده ؟

أشاح الشيخ بنظراته ، وطال الصمت ، فلما عاد يسأله ، قال فى غموض :

— اسمع يا ولدى ، سلطاننا المفدى عبد الرحمن ، ويوصف باليتيم أو الرشيد ، هو الذى تسأله عن أخيك ، لأن أخاك زبادى كانت له يد فى انفراده بالملك دون منازع .

— أخى زبادى صياد وتاجر ولا علاقة له بالحكام !

— قلت لك ساعد الرشيد فى القضاء على الفتنة التى ثارت ضده عند توليه الحكم .

قال هادى فرحاً :

ـ وطبعاً كافأه السلطان !

ـ أعطاه مالا وعبيداً وعدداً من حسان الجوارى .

ابتهج مع هادى رفاقه حنحوت وادريس والشاطر . اطمأنوا إلى أن زبادى سيعوضهم عما لاقوه من مشاق وأهوال لأنه لابد يعيش فى عز ونعيم وسيجزل لهم العطاء مما رزقه الله وأنعم به عبد الرحمن الرشيد . سأل هادى :

ـ لكن يا سيدى لماذا لم يعد إلينا أخى ؟ هل استبقاه السلطان ؟

لم يرد أحمد بدوى وقام للنوم . انقضت الليلة من غير أن يعرفوا شيئاً عن محمد بن عمر التونسى.

فى الصباح ارتحلوا . عند العشية وردوا محلاً به عدة كثبان رملية تحوم عليها الرياح فتزيدها وحشة . ارتاحوا فيه يومين تعمد أحمد بدوى فى خلالهما أن يعتكف بعيداً عن جلسة التسامر الليلة ، بذلك لم يتمكن هادى من معرفة المزيد عن أخيه زبادى وعن أحواله وعن السر فى عدم عودته حتى الآن وعن مدى حظوته لدى السلطان عبد الرحمن الرشيد !

لهذا اتجهوا بآذانهم إلى الشاب اليافع الوسيم محمد بن عمر التونسى الذى راح يحكى لهم حكايته والسبب فى غياب والده ، بادئاً من سيرة جده.

كان جده فى تونس الخضراء عندما اشتاق لرؤية البيت الحرام ، وتأهب للسفر وأعطاه الأصدقاء أموالاً كثيرة يتجر لهم فيها . ثم أقلعت سفينته بريح طيبة ، لكن سرعان ما اختلفت الأنواء وأخذتها إلى طريق رودس فى عرض

البحر المتوسط ، لعبت بها الأمواج حتى انقلبت وغاصت فى البحر الهائج . لم يفلت من الغرق إلا القليل كان هو منهم .

مكث فى رودس مدة ، نفعه فيها بعض الذهب كان يخبئه حول وسطه ، اشترى منه زادا وركب فى سفينة أخرى إلى الاسكندرية التى وصلها فى موسم الحج ، ومنها إلى الحجاز . لما قضى ما وجب عليه من زيارة الحبيب تذكر ضياع ماله ومال الأصدقاء ، فخاف العودة إلى تونس ، لأن الإنسان ان افتقر خونه من كان يأمنه !

واصل محمد بن عمر التونسى حكايته العجيبة :

ـ خرج جدى من مكة المشرفة إلى بندر جدة . مكث بها ينسخ الكتب بالأجر وكان جميل الخط . ثم اتفق ان التقى بأناس من أهل مدينة سنار التى هى عاصمة الفنج . تودد إليه أحدهم وعرض عليه التوجه معهم إلى سنار لأن ملكهم يحب أهل العلم وسوف ينعم عليه ببعض المال والرقيق والجمال .توجه معهم وقابل الملك الذى رحب به وأهداه جارية بهية غالية القيمة اسمها حليمة . أنجبت له ابنة وغلاماً . واستمر بسنار ونسى أن له فى تونس ثلاثة أولاد أوسطهم والدى ، الذى ما إن شب وحفظ القرآن حتى تحرك شوقه إلى الحج فركب البحر مع خاله إلى الاسكندرية ثم القاهرة فالقصير، كان ذلك قبل موسم الحج . وبينما هما سائران مع القافلة شاءت عجائب الاتفاق أن صادفا قافلة قادمة من سنار بها جدي . حياه والدى وقبل يده ثم قال : ألم يحن وقت رجوعك إلى بلدك وأهلك ؟ فقال جدى : لك هذا إن شاء القدير ، أنا الآن متوجه إلى القاهرة أبيع ما معى من الرقيق وارجع إلى سنار آخذ متاعى وأسرتى وآتى إلى القاهرة ، وأنتما تتوجهان للحج وترجعان إليها فنجتمع هناك ، وكل من سبق صاحبه انتظره .

شرد برهة ثم أكمل:

ـ بعد انقضاء الحج عاد أبي إلى القاهرة فما وجد أباه. أعياه الانتظار فتوجه إلى سنار، حيث وجد والده أى جدى سعيداً فى داره مغتبطاً بابنه وابنته من الجارية حليمة. فالتحق أبي بأول قافلة تجهزت إلى مصر. بعد أهوال وضياع فى بحر الرمال وصل القاهرة ودخل الأزهر لطلب العلم. ثم تزوج من أمى المصرية. وبعد أن ولدت أنا وبلغت السابعة من عمرى وصلت رسالة من سنار إليه من أخيه غير الشقيق بن حليمة مضمونها بعد السلام: « إن والدنا توفى فصرنا فى أسوأ حال، فإذا وصلتك هذه الرسالة عجل بالقدوم لتأخذنى وأختى نعيش بما تعيش منه ». فبكى وأخذته الشفقة وسافر إليها. مكثنا ننتظره سنة باعت فيها أمى الحلى والنحاس. فى أثناء ذلك دخل الفرنسيس مصر وملكوها ثم غادروها. بعد ثلاث سنوات لم يعد أبي وبلغنى أنه انتقل إلى دارفور. سمعت أن قافلة وردت منها فتوجهت إلى وكالة الجلابين لأسأل عنه. لقيت مصادفة سيدى الجليل أحمد بدوى صاحب هذه القافلة التى نحن فيها الآن. قبلت يده وسألته عن أبي إن كان يعرفه. أسعدنى قائلاً: هو صاحبى ومن أعظم الناس شأناً عند السلطان، وإن أردت التوجه إليه فعلى مئونتك لأنه فعل معى معروفاً لا أنساه. فرحت وجعلت أتردد عليه حتى تأهب للرحيل. أقلعنا بالمراكب من الفسطاط، وفى المساء كنا فى مقابل المنيا. وهذه قصتى مع الزمان حتى الآن.

قال حنحوت ملهوفاً:

ـ حدثنا عن المنيا

ـ كان فيها جماعة من المماليك أخذونا بالقوة إلى البر، وأخذوا من الشيخ أحمد بدوى جملة مبالغ، ومنعونا من النزول إلى المدينة. لكن بالمساء جاءت الغوازى ورقصن للمماليك.

ـ ليسوا من بنات المنيا!

ـ المهم اننا رحلنا إلى ما بعد منفلوط، ثم سرنا غرباً بقافلتنا هذه حتى الواحة الخارجة. ارتحلنا عدة مرات حتى قابلناكم.

سألوه عمن يحكم مصر فقال: ان ابراهيم بك عاد شيخاً للبلد، عجوز أضعفته السنون، ومعه البرديسى ومحمد على، لأن مراد بك مات. وأن بالقاهرة أزمة غلال فظيعة، لا يحصل الانسان على حاجته منها الا بالوسايط والبرطلة أى دفع الرشاوى!

بعد راحة يومين تحركوا ثم استراحوا. وظل أحمد بدوى يتجنب الحديث إلى هادى وأصحابه، وإن كان فعل ذلك بأدب الكهول!

(٧)

سيرة سلطان الفور مع زبادى المأجور

بينما أحمد بدوى يجلس أمام خيمته وفى ظلها تقدم منه هادى ولثم يده واستأذن فى الجلوس . أذن له وللشاطر وادريس وحتحوت . ما إن بدأ هادى فى سؤاله عن أخيه زبادى حتى بدا البرم فى عينى الكهل ، صبر على الالحاح ثم استخار ربه وقال :

ـ حكاية زبادى مع السلطان عبد الرحمن الرشيد طويلة ، لا يفهمها إلا من كان على دراية بأحوال بلاد الفور

سمع صوت محمد بن عمر التونسى يقول آتيا من خيمته :

ـ عين الصواب كلامك يا سيدى . تكرم علينا ببعض أخبار دافور مادمنا متوجهين اليها

رحب به.

ـ أنت يا ولدى لا أرفض لك طلبا ، فلو أفنيت أموالى كلها فى مرضاة والدك لما كان جزاء له بما صنع معى من معروف !

ـ بالله عليك يا سيدى أخبرنى عن هذا المعروف

ـ اعلم يا ولدى أن اعدائى وشوا بى ظلما إلى حضرة السلطان بأننى أبيع الغلمان الأحرار . غضب وقال : تاجر فى غنائه يفعل هذا الفعل والله لأفقرنه

أحضرني من داري ووبخني بسخيف الكلام ولم يسمح لي بشرح موقفي وأمر بوضع الأغلال في عنقي وسجني . من لطف الله ان اباك كان حاضراً بالمجلس . ولم يتجاسر أحد على التشفع لي لدى السلطان لشدة غضبه . حين رأى والدك ذلك تقدم في شجاعة وتشفع لي حتى أمر السلطان بإطلاقي . بعد ذلك ثبتت براءتي . فأي جميل أكبر من ذلك ؟ . أنا أتاجر في الرقيق ولا عيب في ذلك . لولا أن الملوك والسلاطين والأثرياء من زبائننا لبارت تجارتنا . بونابرته نفسه كان يريد شراء العبيد !

قال الشاطر :

ـ حدثنا ادريس عن ذلك . سمع به عندما كان مع الفرنسيس ، لكنه لم يعرف التفاصيل بسبب جهله بلغتهم . أليس كذلك يا إدريس ؟

أومأ ادريس مؤيدا . فقال أحمد بدوي :

ـ نحن نكره المماليك أكثر منكم . كانوا قد ضيقوا على قوافلنا وعطلوا تجارتنا ، فلما دخل بونابرته مصر ونكل بهم كتب اليه سلطاننا يهنئه بالفوز ويقول دام فضله بعد البسملة « من سلطان دار فور السلطان عبد الرحمن الرشيد إلى المعظم سلطان الجيوش الفرنسية . ألف سلام . أما بعد فنعلمكم أن خبر انتصاراتكم على المماليك وصل إلينا فتلقيناه بغاية السرور ، وأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة ، وكلفناه أن يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها ، ولكم مني ألف تحية وسلام » .

رد عليه بونابرته بمكتوب قال فيه : « تناولت كتابكم وفهمت فحواه ، والآن طلبي إليك أن ترسلوا لي مع أول قافلة ألفي عبد من العبيد الأشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر ، إذ مرادي أن أبتاعهم لنفسي ،

والأمل أن توعزوا إلى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث ، وها أنذا أمرت بما يلزم حمايتها حيث تكون » .

سكت فتودد إليه هادى :

ـ آن الأوان يا سيدي أن تحدثنا عن أحوال أخي زيادي مع السلطان ، فأنا أحببت الرشيد من كلامك .

رد الشيخ في عصبية :

ـ قلت لك هذا موضوع طويل ومعقد !

قال التونسي :

ـ هل زدتنا علماً بأحوال دياركم ونحن نتوجه إليها لأول مرة ؟

ـ سمعاً وطاعة يا ابن الاشراف .

التفت إلى هادي :

ـ الآن انتبه أيها الشاب لأن ما سأذكره له صلة بأخيك زيادي .

التقط أنفاسه واسترد هدوءه وقال :

ـ مات سلطاننا الأسبق تاركاً من الأولاد سبعة ، بعد أن جعل ولاية العهد لهم جميعاً يتولاها الأكبر فالأصغر وهكذا . تولى الثلاثة الأول وقتلوا في الحروب ، إلى أن جاء الدور على الرابع محمد تيراب ، وسمى تيراب لأفعاله الجليلة ، وتيراب عندنا تعني الحبوب التي تزرع في التراب ، وهي في مصر التقاوي .

قال حتحوت يائساً :

ـ كان اسمه السلطان محمد تفاوي !

ضحك إدريس وحده . وواصل أحمد بدوي كلامه كأن أحداً لم يقاطعه :

ـ هجر تيراب الحروب وأقام في بلده آمراً ناهياً ، سلطاناً ثلاثة وثلاثين سنة ، عطوفاً على المساكين ، محباً للزينة واللهو والمجون ، رزق بأكثر من ثلاثين ولداً غير الإناث ، صاروا كلما سمعوا بشيء جميل أخذوه من صاحبه وكان ابنه « مساعد » من عتوه وتجبره لا يركب الخيل وإنما ظهور الآدميين . وأبوه السلطان لا يردعه ، وكان قد ولى المناصب الجليلة لأقارب زوجاته حتى صار جميع وزرائه منهم ، فكرهته الرعية . وكان إسحاق أكبر أولاده وأحبهم إلى قلبه ، فجعل له حاشية مثل حاشيته من الوزراء والأتباع ، أبناء وزرائه وزراء لإبنه ، وأطلق عليه لقب خليفة لأنه أراد أن يخلفه في الملك بعده ، مخالفاً بذلك وصية المرحوم والده !

تأمل ملامح إدريس ولونه مستريباً ، ثم قال :

ـ في تلك الأيام طمع هاشم المسبعاوي في أخذ دولتنا ، فخرج له تيراب في جيش جرار ، كنت أنا وكبار الدولة معه بعبيدنا وحريمنا وثرواتنا . هرب هاشم المسبعاوي وطارده تيراب حتى النيل ، ولولا فشله في عبور النيل لأحتل سنار عاصمة الفنج .. ثم شاع لدى المنجمين أن أخاه عبد الرحمن الرشيد وليس إبنه إسحاق يتولى بعده . فراح يدبر لقتل أخيه والله يمنعه ، يدعوه للطعام ويدس له السم والرشيد يقول إني صائم ولا يأكل .

التفت إلى هادي :

ـ هنا يأتي دور أخيك يا هادي في جعل الرشيد يتولى الحكم ، هو وشخص آخر اسمه محمد كرا ، وكرا بلغتنا الفورية تعني الطويل .

رفع أصبعه يحذر حتحوت :

ـ ولا تقل ان اسمه محمد الطويل !

ضحكوا إلا هو وعاد يكمل :

ـ كان محمد كرا وهو مراهق خادماً ثم جعله السلطان تيراب من أهل الحراب ، أي من حرسه الخاص ونسميهم كوركوا . وكل ملك أو قائد عندنا له مثل هذا الحرس حين يركب وحين يجلس للحكم ، وذلك هيبة له في قلوب الناس . تفانى محمد كرا في عمله بحيث أحبه السلطان وجعله أميناً على أسراره ، فحسده الآخرون واتهموه بالخيانة وبأنه على علاقة مع إحدى محظيات مولاه ، وهذه تهمة عقابها القتل . فأخذ كرا سكيناً واختلى في حجرة وخصى نفسه ، ثم ذهب إلى السلطان وقال له « هأنذا خصيت نفسي كي لا ترتاب في » ثم سقط مغشياً عليه !

تأمل الاستبشاع في عيونهم ، ابتسم وقال :

ـ بسبب هذه الحادثة وغيرها تحالف كرا مع الرشيد ضد إسحاق بن سيده . فلما مات السلطان أفلحت دسائسه وخدعه في أخذ البيعة للرشيد . وضربت طبول الحزن لموت تيراب ، ثم بطلت قليلاً وضربت طبول الهناء للرشيد ، الذي أمر بتوزيع ما في خزائن تيراب من ذهب وفضة وثياب على العلماء والأشراف والفقراء . وكان إسحاق الخليفة الذي لم يصبح خليفة قد استولى على دارفور ، فأمر الرشيد بالتوجه إليه وقتاله ، ومر على جبل التروج وأخذ الشبان وجمع عرب البادية ، ووعدهم بأن جميع ما يغنمون من مال وسلاح يكون لهم !

صمت ليشرب فتساءل هادي في نفاد صبر :

— وماذا عن أخى زيادى ؟

— إحتدم القتال أقل الوقت ، وتقهقر جيش اسحاق ، فاغتاظ وخرج يقاتل بنفسه . وكان كل من عرفه يعرض عنه ولا يمسه . واستمر النزال أياماً دون حسم .

دهش محمد التونسى:

— لماذا لم يقتلوه وهو فى متناول أيديهم ؟

— السبب نحن نعرفه . إذ لا يحق لأحد الناس أن يقتل أى فرد تجرى فى عروقه الدماء الملكية ، سواء أكان القتل سهواً أم دفاعاً عن النفس .

نظر إلى هادى مشفقاً :

— كان أخوك زيادى عندنا فى هذه الأثناء ، يصطاد بالبندق ويصيب . هذا السلاح غير شائع لدينا حتى الآن . فتجاسر وقال للرشيد : إن أنا أرحتك من عدوك اليوم ماذا يكون لى ؟ . رد عبد الرحمن : مائة رأس رقيق . فقال أرسلنى فى الحال إلى الأمين رئيس الجيش وسوف ترى اليوم ما يسرك . هكذا توجه زيادى إلى أرض المعمعة لأجل أن يتم المكتوب . ما إن رأى إسحاق وعرفه حتى أخذ عليه النيشان . أطلق بندقيته فأصابه فى مقتل وخلص الأمر لعبد الرحمن الرشيد وتوجه إلى تندلتى واستقر بها واتخذها عاصمته فصارت تعرف بالفاشر حتى اليوم . لأن الفاشر تطلق على المكان الذى يستقر فيه السلطان .. هكذا فاز بالسلطنة بفضل مكر محمد كرا وبندقية زيادى أخيك !

— فهل نفذ وعده وأعطى أخى مائة رقيق ؟

نكس الشيخ رأسه فى تخاذل :

— طبعاً لأن الرشيد يخشى الرحمن المجيد .. وأعلى من مقام محمد كرا وعينه فى منصب « أبو شيخ » أى الوزير الأعظم الأمين على النحاس ، والنحاسات هى طبول الحرب عندنا ومن يصبح « أبوشيخ » لابد أن يكون مخصياً لا نسل له حتى لا يطمع فى الملك . وطبعاً أرسل السلطان الرشيد أقاربه المتمردين إلى جبل مرة وسجنهم هناك فى مغارات لن يغادروها إلا إلى القبر .

تحامل أحمد بدوى مسرعاً بالانصراف إلى خيمته ، رافضاً إضافة المزيد عن أخبار زيادى .

قبل أن يناموا تحدثوا وقتاً فيما حيك من دسائس وغرائب وسجن جبل مرة الرهيب !

(٨)

صحبة البنات والصيد فى الغابات

بعد راحة الابل ارتحلت القافلة عبر الصحارى والفيافى . حتى وصلوا ألى بئر الزغاوى ، والجو خانق . بركت الجمال ونصبوا الخيام ، والتزموا ظلالها دون رغبة فى الكلام . بينما هم فى هذا التراخى ، إذا هجان أقبل من ناحية درافور وهو فى غير حبور . أخبرهم بأن السلطان عبد الرحمن الرشيد مات ، وأنه ذاهب إلى القاهرة لعمل خاتم جديد باسم السلطان الجديد ، إبنه محمد فضل .

نزل الخبر كالصاعقة على هادى ورفاقه الثلاثه . خشى ألا يحظى أخوه زيادى بمرضاة هذا السلطان .

وحزن أهل القافلة وخافوا من وقوع الفتن لأن محمد فضل فتى فى الرابعة عشرة من عمره رغم أنه أكبر أخوته . قال الهجان لهم : إن الفضل فى توليه يرجع الى حصافة محمد كرا ، الذى استدعى محمد فضل بمجرد موت أبيه ، وأجلسه على كرسى السلطنة وألبسه الخاتم وقلده السيف ، وقد أحاط المكان بالحراس المدججين بالسلاح ، ثم أرسل إلى الأمناء والوزراء والمكوك واحداً بعد الآخر ، وأخذ منهم البيعة . عرف ذلك أولاد السلاطين الأكبر سنا ، فخرجوا عن الطاعة وصاروا ينهبون القرى ، حتى ثقلت وطأتهم وعظم شرهم . فدعا محمد كرا فقيها من العاملين بالسحر ، عمل من سحره ما عمل ، فإذا المتمردون يركبون خيولهم عند المساء ، بدلا من الابتعاد اقتربوا

من الفاشر ، ليقبض عليهم محمد كرا ويرسلهم بالقيود إلى حبس جبل مرة ، ثم أمر السلطان الصغير بالقراءة وطلب العلم ، وجعل لقبه قمـر السلاطين .

عند الفجر رحل الهجان إلى القاهرة لصنع ختم السلطنة الجديد ، بينما سافرت القافلة عدة أيام أناخوا بعدها بمكان ليس ببعيد عن دارفور .

فى بداية اليوم الأول أرسلوا هجاناً إليها بأوراق إلى الدولة والأهل يعلموهم بالمجىء وبسلامتهم .

بعد ذلك استدعى أحمد بدوى هادى وأصحابه الثلاثة . وجدوه مهموماً والسبحة فى يده . بعد تردد قال لهادى :

ــ إعلم يا ولدى أن أخاك زيادى قد مات !

بهت هادى . وسأل الشاطر :

ــ هل أخبرك الهجان بذلك ؟

ــ بل مات عند وقوع الفتنة التى رويتها لكم ، فهو بعد أن قتل الخليفة اسحاق ، بر الرشيد بوعده وأعطاه مائة رأس من العبيد ثم أمر بقتله !

قال حنحوت محتداً :

ــ كيف وقد عاونه ؟!

صاح إدريس مستنكراً :

ــ أنا لا أفهم !!

ــ لأن سفك الدماء السلطانية مهما كانت الظروف جريمة لا تغتفر . هذا عرف السلاطين عندنا .

تهدج صوت هادى :

ــ هذا ظلم وغدر وخسة . لماذا تركه يقتل اسحاق إذن !!

ــ أخفض صوتك يا ولدى حتى لا يسمعك أفراد القافلة فيشون إلى محمد كرا ، وتكون نهايتكم ونهايتى !

أطرق هادى نائحاً :

ــ فقدت أخوىّ فى أرض السودان ، يا لوعة أمى !

ــ الحياة والموت يا ولدى بأمر الله . كن مؤمناً . أنا لم أخبرك منذ البداية على أمل أن يرد لك الرشيد حق أخيك ، ويعيدك إلى أمك مجبور الخاطر . أما وقد مات فالأمر يختلف ، لأن قمر السلاطين محمد فضل صبى صغير ، والأمر الآن بيد « أبو شيخ محمد كرا » المخصى قاسى القلب المتآمر ، وقد يغتالك وأصحابك !

ساد الوجوم ثم قال هادى فى حسم :

ــ نعود إلى مصر من هنا

ــ كيف وأنتم بلا خبير قوافل ؟

ــ فهل نذهب إلى حتفنا بأقدامنا ؟ ما ذنب هؤلاء الثلاثة ؟ ألا يوجد عندكم نظام أو شرع ؟

ــ القضاء عندنا شرعى وعرفى . لشارب الخمر ثمانون جلدة ، ومع ذلك فأهلنا لا ينقطعون عن تعاطيها . قصاص السارق غرامة ست بقرات أو

ثمنها أو الحبس . القاتل يقتل إن كان القتل عمدا ، أو يدفع فدية مائة بقرة إذا كان من البقارة أو مائة بعير إذا كان من الأبالة . الزانى بمحصنة غرامته ست بقرات ، والزانى بأرملة أو بكر بقرة واحدة . أما الضرب الذى ينتج عنه جرح فغرامته ثوب من الدمور ، ونصف ثوب إن كان بدون جرح . وللسلطان نصف هذه الغرامات ..

لاحظ نفاد صبرهم فأكمل محبطا :

ـ لكن كل هذا لا ينطبق عليكم . عندما يتعلق الأمر بالسلطان أو رجاله فالقصاص هو الموت ، ولو لمجرد الشك . الحكام لا يقطعون الشك باليقين ، بل بالقضاء على كل شخص مريب !

بردت أطرافهم رهبة . بعد صمت ثقيل قال أحمد بدوى :

ـ أرى معكم بضائع مصرية ، وأن معكم بعض المال . توجهوا إلى الفاشر عاصمتنا فى هيئة تجار . ولا تخبر يا هادى أى انسان إنك شقيق زبادى . هناك تبيع وتشترى ، ومع أول قافلة تعود مع أصحابك إلى مصر مجبورين الخاطر .

التفت إلى إدريس منبهاً :

ـ وأنت يا ولد لا تقل أنك من كردفان ، قل إنك من صعيد مصر . وإن كنت أشك فى أنك من كردفان ، ملامحك تشبه أهل الدنكا .. هأنذا قد أخلصت لكم النصح ، اللهم فاشهد .

خرجوا من عنده إلى خيمتهم وكأن على رؤوسهم سهم الموت ، وقد تأكد لهم أن سلاطين الفور مثل امراء المماليك الغز ، الاقتراب منهم نكبة .

وأدهشهم أن أوصاف الرشيد تكاد تطابق أوصاف مراد بك عدا اللون ، حتى صوته كان أجش مثل صوت مراد . قال حتحوت محبطا :

ـ ننجو من مكوك الشايقية لنقع فى براثن سلاطين الفور !

بعد ذلك ارتحلوا وظلوا مسافرين عدة أيام سفر المجد ، طوال النهار وجزءاً من الليل ، حتى وصلوا إلى أول بئر فى حدود دارفور ، فأقاموا يومهم عندها . وفى الصباح ساروا نحو أربع ساعات ، وأخبرهم أحمد بدوى بأن على جميع الأجانب والقوافل أن يبقوا مدة يومين حتى يخطر السلطان ومحمد كرا بمقدمهم ويدفعوا ما على بضائعهم من مكوس .

كان عليهم أن يتفرقوا بعد ذلك لأن أهل القافلة ليسوا من بلدة واحدة ، وكان على أحمد بدوى ان يتجه ومعه حاشيته والتونسى إلى بلدته ، بينما على هادى وأصحابه أن يتجهوا إلى تندلتى أو الفاشر . لهذا انفرد بهم ناصحاً منبهاً :

ـ عليكم بالتزام جانب الحذر فى التعامل والكلام . اعلموا أن بلادنا مقسمة بأحكام حسب الجهات الأربع ، يحكم كل قسم مقدوم ، له نواب وشراتى ، مع كل شراتى عدة دمالج ، والدملج مثل الضابط عندكم أو الصنجق . مع كل دملج عدة مشايخ بلد . وهؤلاء عليكم أن تخشوهم هم والمكوك .

احتار إدريس :

ـ كيف نعرفهم ؟

ـ من ثيابهم وركوبهم وفزع الرعية منهم . وبالجملة فالغنى سلطاناً كان أو وزيراً أومكاً يلبس مثلى .

تأملوا ثوبيه وسراويله وطربوشه . قال :

ـ باقى الناس لا يلبسون الا ثوباً واحداً وسروالاً وملفحة ، وعلى الرأس طاقية بيضاء أو سوداء ، أكثرهم يكون عرياناً . وهؤلاء فقراء لا خوف منهم. أرهبوا جانب حاشية السلطان ، من الوزير الذى يدير شئون البلاد إلى «أبو شيخ» ومك دادات السلطان ، أى مك العبيد الذين تربوا مع أبنائه ، ومك أخواله ، ومك الفاشر مدير أمور العاصمة ، ومك الجباة ومك الحدادين ، والمباريم أى الأميرات ، والحبوبات جدات السلطان ، ومكوك المجوس ، كذلك رهائن النواب المسلمين !

رأى دهشتهم فأوضح :

ـ كل مك يرسل ولى عهده ليكون رهينة عند السلطان ضماناً للولاء ، فيجعله فى خدمته ويعوده على طاعته ، ويعلمه القراءة والكتابة . حتى إذا مات والده الملك أعطاه السلطان كسوة فاخرة وعكازاً مفضفضاً وطاقية مقصبة ونعلين ونقارة نحاس ، وولاه بفرمان خاص مكان والده المتوفى . خذوا حذركم من جميع هؤلاء ، فلهم حق معاقبة من يغضبهم وقتله أو إرساله سجيناً إلى جبل مرة !

لم يسألوه عن هذا السجن . لكن الشاطر قال فى غيظ :

ـ كأننا فئران وقعت فى مصيدة اللئام .

ـ إحذر الغضب يا فتى بصوت عال !

ثم عاد أحمد بدوى إلى هدوئه متلفتاً فى حذر وقال :

ـ بالأمس دفعنا هدية لنائب السلطان هنا بمناسبة قدومنا اسمها التقادم. وإن مد الله فى أعماركم فسوف ترون السلطان محمد فضل يوم «عيد تجليد النحاس» .

ودع بعضهم بعضاً ومضت كل جماعة إلى جهتها . واتجه هادى وأصحابه مع المتجهين إلى الفاشر ، حاملين خطاب توصية من أحمد بدوى إلى صديق له إسمه « مدنى ود رماد » ليقيموا عنده ، وهم لا يدرون من مصيرهم شيئاً !

بعد سفر وتوجس وصلوا إلى العاصمة . بمجرد دخولهم شعر إدريس بأطرافه باردة ، تذكر عندما كان طفلاً يعيش سعيداً مع عشيرته وجاء عمال النخاس الأنجاس وخطفوه ، وجاءوا به إلى هذا المكان مع عشرات الأطفال والبنات وقد ربطوهم بعضاً إلى بعض بالسلاسل فى الأقدام ، وجروهم وراء قافلة سارت بهم فى درب الأربعين أربعين يوماً سيراً عدا أيام المبيت حتى وصلوا إلى القاهرة بعد أن مات بعضهم ، ثم باعوهم فتفرقوا على بيوت المماليك والأتراك إلى أن عمل لدى الرسام الفرنسى دينون . حتى اسمه اختاره له المملوك فصار يعرف بإدريس فقط من غير أب أوجد، وظل ينادى به حتى أنه نسى اسمه الحقيقى !

سألوا عن « مدنى ود رماد » فوجدوه طاعناً فى السن مثل أحمد بدوى . سلموه الخطاب فلما قرأه وفهم معانيه رحب بهم ، وأفرد لهم بيتاً أخذهم إليه ، ورفض أن يتقاضى أجراً اكراماً لصاحبه ، فأهداه هادى عدة أثواب من صنع مصر وقطعة حلى ذهبية لأحب زوجاته أو بناته أو حفيداته ، وبعض الخرز وسبحة مطعمة بالفضة . فرح بها مدنى ود رماد حتى أنه قال :

ـ هذه هدايا تعادل ثمن الدار . اعتبروه ملككم لأى وقت تشاءون .

ثم تركهم . وبعد ساعة جاءهم عبدان من طرفه يحملان طعاماً لم يروا مثله من قبل . قال أكبر العبدين بعربية ركيكة . أن هذه الوجبة اسمها دودري وهى ويكة تصنع من عظام الغنم والبقر وسائر الحيوانات .

ـ تقصد من لحومها ؟

ـ أقصد ما قلت ، وهو أننا نأخذ عظام الركبة والصدر ونجرد ما عليها من لحم ، ثم نضع العظام فى خابية ونتركها أياماً حتى تتعفن ، ثم نخرجها ونهرسها فى هاون مع اللحم ، ونجعلها كوراً بحجم البرتقال . فإذا أردنا الطبخ أخذنا كرة منها وذوبناها فى الماء ثم صببنا ذلك الماء فى القدر ، ووضعناه على النار حتى يصير له قوام ، ونضيف إليه بصلاً مقلياً وبعض الملح والفلفل .

عافت نفوسهم الطعام . فقال العبد هادى متعجباً :

ـ هذا طعام الأمراء وأخص الناس !

ـ نريد من أكل الفقراء . فماذا يكون ؟

ـ ويكة الملبيح . وهى من التمر الذى نهرسه باليد حتى يذوب فى الماء ، ثم نصفيه فى قدر ونضع عليه قليلاً من الشحم ونأكله بالهناء والشفاء . ولأن سيدى ترى فإننا نوقد النار تحت هذه الويكة حتى يصير لها قوام ثم نضيف إليها تقلية ولحماً مقدداً وماء ، ونتركها على النار حتى يحدث الامتزاج التام كما سوف ترون وتأكلون .

ـ لن نرى ولن نأكل . أبلغ سيدك عظيم امتناننا وأخبره أننا لسنا جوعى !

ـ أنا لا أكذب على سيدى وأنتم جوعى .

طلبوا منه شراء بعض الفاكهة ، فحمل الأكل وغاب ساعة ثم عاد مع رفيقه بحمام محمر وفطير بعسل النحل فابتهجوا . قال العبد أنه سوف يحضر لهم ما يكفيهم، كل يوم من هذه الأصناف . بمجرد انصرافه مع زميله اندفعوا يأكلون حتى شبعوا . وكانوا متعبين جداً فناموا .

فى الصباح خرجوا يتفقدون البلدة . جميع البيوت تشبه بيتهم ، مشيدة من عيدان نبات الدخن ، يحيط بكل منها سور من الشوك يسمونه زريبة . بيوت الفقراء جدار دائرى فوقه قبة تشبه القمع المقلوب ، مثبت فى قمته المسننة ثلاث بيضات نعام . بيوت الموسرين جدار دائرى سقفه على شكل نصف كرة محمولة على عمودين أو أربعة فتكون فسيحة . أرض البلدة رملية يشقها خور يمتلىء بالماء فى موسم الأمطار فيشربون منه ، وفى وقت نضوبه يحفرون فيه الآبار . على شاطئه دار السلطان يكسو أعلاها أقمشة مخططة بالأحمر والأبيض ، ذات باب كبير للرجال وآخر صغير للنساء ، يحيط بها زريبة عظيمة من الشوك ، ثلاثة صفوف ، بين كل صفين جذوع خشبية أعلى من قامة الإنسان الطويل . فلم يروا ما بالداخل وخافوا الاقتراب رهبة من الحراس . وخيل إليهم أنهم مراقبون !

بعد صلاة العشاء زارهم مدنى ود رماد وبه حزن وارتباك ، ومعه عبد أحلك من سواد الليل إذا اعتكر . رمقه فى مقت وقال :

ـ هذا العبد لا يعرف من العربية شيئاً ، لكنه لبيب يفهم بالاشارة !

شكروه متعجبين من ارتباكه ووجومه وانكسار صوته ، وكانوا عهدوه دائم البشاشة . قبل انصرافه امتدح بدون مناسبة السلطان ومحمد كرا !

في زيارته التالية انفرد بهم بعيداً عن هذا العبد ، وهمس ينصحهم بالبيع والشراء وبالسعي لمقابلة محمد كرا بهدية ثمينة لأنه المتصرف الفعلي في شئون البلاد بسبب حداثة سن السلطان محمد فضل قمر السلاطين!

سأله الشاطر عن سبب تحدثه همساً فنظر في ذعر إلى العبد وهرول منصرفاً ! . زادت دهشتهم لكنهم عملوا بنصيحته وخرجوا وطافوا بالأسواق. رأوا معظم معاملات الأهالي بالمقايضة ، والأشياء الثمينة تباع بالرقيق ، فيقال هذا الفرس سداسي أو ثماني ، والسداسي هو العبد الذي طوله ستة أشبار . لاحظوا أن الشبان لا يحلقون شعر رؤوسهم وأن النساء يضفرنه ضفائر كثيرة.

كان العبد الذي يخدمهم يجلس عادة إلى جوار الحائط يراقبهم في صمت. أحياناً يعقد ساعديه حول ركبتيه ويدفن رأسه في حجره مثل النائم . ولأن مدني ود رماد أخبرهم أنه يجهل اللغة العربية فقد تكلموا في وجوده دون تحفظ . كان يتركهم بالمساء ويعود في الصباح . لا يعرفون أين يبيت . وغاب طوال أول يوم سبت جاء عليهم.

في الصباح الباكر لهذا اليوم صحوا على أصوات طبول . لما ابتعدت واصلوا النوم . بعد أن نهضوا وخرجوا وجدوا المدينة خالية تماماً إلا من كبار السن وبعض البنات . دهشوا وظنوا أن الشباب استدعوا إلى حرب ، ثم علموا أن السبت هو يوم صيد الوحوش الأسبوعي . تجولوا والبنات يتطلعن إليهم ، ويرمقن الشاطر معجبات بجماله وبياضه . وكل انثى تضع خزاماً في أنفها من ذهب أو فضة أو نحاس حسب مستواها .. وتعلق قرطاً ثقيلاً، وحتى لا يضر أذنها تربطه بعلاقة في شعرها ، ومن لا تملك خزاما .. تسد

ثقب أنفها بمرجانة أو حبة خرز . إلى جانب الكحل والعطر . وأدركوا أن المرأة في كل مكان ميالة إلى التبرج.

لاحظوا أن أربع بنات يتجهن نحوهم ، منهم الجميلة والمتوسطة والعادية. خافوا وقفلوا راجعين إلى البيت ، وهن من خلفهم متضاحكات . ما إن دخلوا البيت حتى اقتحمنه ، واتجهت كل واحدة إلى واحد منهم . كانت مفاجأة ليست في الحسبان . وفي المساء كانوا أسعد الشبان.

في زيارته التالية حدثهم ودرماد وشرح لهم أن المرأة المتزوجة هي التي تلف جسدها بملاءة ، بينما تضع البكر فوطة على صدرها من الحرير أو البفتة إن كانت غنية ، ومن القطن إن كانت فقيرة . وأن المرأة الفورية إذا أحبت شاباً أعطته شيئاً من حليها يلبسه افتخاراً . ومتى شبت أفردوا لها مكاناً فيأتيها من تحبه ويبيت عندها ، لهذا يقع الحمل بأكثرهن ولا عار في ذلك ، وينسب الطفل إلى خاله . فإن كانت طفلة زوجها عندما تكبر وأخذ مهرها أبقاراً وعبيداً وجواري . لهذا فهم على عكس فلاحي مصر يفرحون بولادة الإناث ويقولون أن الانثى تملأ الزريبة خيراً !

مال ودرماد عليهم هامساً لهم أن الشائعات تقول أن أم بوسة والدة السلطان بها شبق عظيم ، لما ترملت وهي في الخامسة والثلاثين أكثرت من مجامعة الرجال حتى أصيبت بمرض معد !

ثم أكد لهم في حكمة الشيوخ أن النساء شقائق الرجال والنفس واحدة في الشهوة والطبع . وأهل دارفور لا يستقلون بأمر دون النساء ، لأن المرأة لها باع في كل شيء إلا الحروب !

انتظروا السبت التالي في شوق بالغ ، حتى أن إدريس مال إلى فتاته وتمناها زوجة . لكن ودرماد زارهم فجأة . أخذهم بعيداً عن العبد وقال موبخاً :

– كم يغيظنى أمركم . جئتم للتجارة وأراكم لا بعتم ولا اشتريتم . هذا يجعل محمد كرا يشك فيكم . إن زاد شكه أضركم . نصحتكم بالتماس مقابلته ولم تفعلوا ، وهو يستريب فى كل غريب !

اعتذر هادى :

– تروينا حتى نعرف أفضل أسعار البيع وأرخص أثمان الشراء .

– أنا أدلكم . اتجهوا السبت القادم إلى الصيد مع الشباب وستجدون ربحاً طيباً بمشيئة الرحمن . سأجعل أولادى يأخذونكم معهم .

فذهبوا متضررين بسبب ضياع موعد البنات . لكنهم لم يندموا بعد أن شاهدوا فنون الصيد . رأوا الأهالى يحفرون حفرة عميقة أطول من القامة ، ويدقون فى مركزها وتداً مدبب الرأس كالرمح ، ثم يغطون الحفرة بأعواد ضعيفة ويخفونها بالحشائش والتراب ، حتى إذا أتت الفيلة أو بقر الوحش ووطئت الحفرة تكسرت الأعواد وسقط فيها حيوان أو اثنان ، ودخل الوتد فى جسمه وشل حركته ، إلى أن يأتى صاحب الحفرة ويكمل قتله . إن كانت بقرة أخذ لحمها وقدده ، إن كانت فيلا قدد لحمه وباع نابه لتجار العاج ، وإن كان خرتيتاً أخذ قرنه ..

وشاهدوا أعراب البادية يسبقون الزراف والنعام ويصطادونها ، ليبيعوا ريشها ويصنعوا من شحمها سمناً . والعسل موجود فى الأشجار لأن النحل يعشش فيها .

كان الصيد وفيراً فظل هادى طوال الأسابيع التالية يقايض بما معه من بضائع مصرية مقابل سن الفيل وقرن الخرتيت وجلد الزراف وريش النعام ،

حتى صار عنده حمل أربعين جملاً ، سعرها فى مصر يساوى ثروة . وراح وأصحابه يرقبون موعد أول قافلة راحلة إلى مصر بعد حوالى ثلاثة أسابيع.

ثم جاءهم رفيق رحلتهم محمد بن عمر التونسى فرحبوا به ، وكان قد جاء إلى الفاشر من دار أبيه لتقديم هدايا السلام إلى محمد كرا والسلطان محمد فضل . قال أنه وجد أمام دار محمد كرا مالا يحصى من الخيل والدواب حيث كان مجلس أرباب الدولة منعقداً عنده ، فسلم عليه محمد كرا وتلطف معه وقبل هداياه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه وكساه كشميراً وقفطاناً من القطن الهندى وأمر له بجاريتين وعبد .

كل ذلك والعبد الأسود يستمع وعلى وجهه دلائل عدم الفهم ..

قال التونسى :

– سألنى أبو شيخ عنكم فقلت فيكم شهادة طيبة . بعد ذلك حظيت بلقاء السلطان محمد فضل ، وبيته يقع داخل الزريبة التى رأيتموها من الخارج، أبوابه عبارة عن أعواد مربوطة لندرة المسامير . بعد الباب الأول يوجد ديوان السلطان والاصطبلات وبيت طبول النحاس . الباب الثانى يؤدى إلى كاتم السر ومجلس السلطان مع خاصته . والثالث إلى حاملى الحراب ومجلس خواص خواصه . الرابع إلى الطواشى الخصى حراس الجوارى . وأظن أن باب الحريم يليه أبواب أخرى ومساكن المحظيات والجوارى . ويقال أن بالداخل بناءين من الطين يحفظ فيها الأشياء الثمينة لحمايتها من قوع أى حريق . طبعاً على جميع هذه الأبواب حراس وبوابون . والسلطان أصغر منى بعام أو أكثر !

كل هذا يدور والعبد يصغى وكأنه لا يفهم . أخرج التونسى فرماناً قال إن السلطان أعطاه إياه لزيارة جبل مرة . قرأه الشاطر بصوت عال :

ـ من حضرة السلطان الأعظم والخاقان المكرم سلطان العرب والعجم ، الواثق بعناية العدل الصبور ، السلطان محمد فضل المنصور ، إلى جميع مكوك جبل مرة ، أما بعد : فإن السيد الشريف محمد التونسي التمس منا أن يرى الجبل وما فيه ويختبر ظاهره وخافيه ، وقد أذنا له بذلك ، فلا يمنع من محل يريد النظر إليه . وأمر كل ملك نزل عليه أن يكرمه ويعظم ملقاه . وقد أمرت صحبته بحاجب ومترجم ليكونا واسطة بينه وبينكم ، والسلام ...

طلبوا الذهاب معه فتردد ، ثم وافق بعد إلحاح شديد على أساس أنهم من أتباعه ، لأن اسمهم ليس في الفرمان . قبل انصرافه قال له هادي مذكـراً:

ـ طبعاً لم تخبر أي إنسان أنني هادي أخو زيادي ؟

ـ طبعاً لا يا أخي . هذا سر لا يعرفه إلا نحن الخمسة وأحمد بدوي .

وإذا عينا العبد الذي كان يجلس ساكتاً تلمعان وتشعان فوزاً .

قال إدريس للتونسي :

ـ وطبعاً أنا لست من كردفان ؟

فزادت لمعة عيني العبد في فوز وأسرعت أنفاسه انفعالاً !

(٩)

تآمر الخصيان على فضل السلطان

بعد يومين توجهوا إلى جبل مرة حيث سجون أبناء السلاطين المغضوب عليهم ، فوصلوا أطرافه ونزلوا في بلدة لها رئيس يسمى الفقيه ، باتوا عنده وأعظم ضيافتهم ، وفي الصباح زاروا سوق البلدة فرأوا اناسا شديدي السواد ، حمر الأعين والأسنان ، حين رأوا محمد التونسي اجتمعوا عليه متعجبين من أحمرار لون بشرته ، وظلوا يتجمعون من حوله ، ثم تكلموا فيما بينهم بلغتهم ، وإذا الحراس الذين معهم يشهرون السلاح ، سأل عن السبب فقال المترجم :

ـ لقلة عقلهم يظنون أنك لم تنضج في بطن أمك ، لانك إذا نضجت تولد في مثل لونهم ، وهم لهذا يظنون أن دمك قليل ، وأراد احدهم أن يثبت ذلك بطعنك بحربة ، وقالوا إن تابعك هذا نضج بعض الشيء !

وكان يقصد الشاطر بسبب لونه الأبيض !

ثم خرجوا من البلدة إلى واد فيه نخيل وأشجار موز وليمون ، وزراعات ثوم وبصل وفلفل أحمر وكمون وكسبرة وقرع ، وقد طاب البلح أحمر وأصفر ، وباتوا ، ثم ساروا من واد إلى واد ، وفي كل واد زرع وماء ، وباتوا ، ثم صعدوا ثلاث ساعات حتى علوا الجبل ، فوجدوا أمما كثيرة وبلاداً متفرقة ، والسحاب لا يرتفع عن الجبل الا أياما قليلة ، وأدخلوهم على شيخ الجبل وهو في خلوته ، وعلموا أن لا أحد يلقاه إلا في يوم معلوم من السنة . فيذهب

الناس إليه ، ليخبرهم بما سوف يحدث لهم فى جميع العام التالى، من قحط ومطر وحرب وسلم ومرض وصحة ، ويقولون أنه يعرف ذلك عن طريق الكشف لأنه ولى ، وكل من تولى هذه المشيخة يصبح وليا ، والجان يخبرونه .

أبرزوا له فرمان السلطان ، فدعا لهم بطعام ثم ضرب طبلا فجاء أناس كثيرون أنتخب من شبابهم نحو مائه نفر ليصحبوهم حراسا خوفاً عليهم من جهال أهل الجبل .

ثم ركبوا إلى جبل صغير هو جبل مرة ،فرأوا مكانا فيه أشبه بمعبد ، وجميع أهل الجبل يرون أن حرمته كحرمة المسجد ، له خدم لتنظيفه واستقبال النذور ، ثم انتقلوا يتقدمهم الشبان ، فتجمع الناس وهم يتصايحون ان السلطان أرسل لهم رجلا لم ينضج فى بطن أمه وآخر نضج نصف نضج ضيافة لهم ، واختلفوا إن كانا آدميين أو حيوانين على هيئة آدمية ، ولم ينقذهم إلا مجىء الفقى الذى نصحهما بأن يسترا وجهيهما بلثام ، ففعلا .

ثم توجهوا إلى مجلس الحبس ، أى الكهوف التى فيها المحبوسون من أولاد المكوك والوزراء والسلاطين الذين يخشى السلطان منهم على عرشه ، فمنعهم الحراس ، ولما قرأ الفقيه الفرمان أذنوا للتونسى فقط بالفرجة على أن يقف الجميع بالخارج ، فخاف أن يدخل وحده ، وكروا عائدين وهم يدعون الخالق ألا يكون مصيرهم فى مثل هذا السجن الرهيب .

وعرفوا أن من عوائد أهل الجبل أن الشاب يترك أمرأته فى دار أبيها حتى تحبل منه مرة أو مرتين ، فيقال لها ولود ، عندئذ يأخذها إلى داره ويعاشرها ، كما أن الصبيان والبنات الصغار لا يستترون إلا بعد البلوغ ، فيلبس الصبى قميصا ، وتشد الأنثى قماشا على وسطها ويبقى ما علا السرة إلى الوجه سافرا .

وللشبان فى كل بلدة رئيس وللشابات رئيسة . فإذا كانوا فى الأفراح والأعياد ، خاطب الرئيس الرئيسة ، فتأمر جماعتها أن يتفرقن على الأولاد ، فيأخذ كل فتى فتاة ، ويذهبان إلى محل ينامان فيه حتى الصباح ، ولا عار فى ذلك على احداهن .

كما أن الناس لا يخشون على مواشيهم لأن الجان تحرسها وهى ترعى الكلأ ، فإذا رآها سارق بلا راع وأخذ منها شاة وأراد ذبحها ، التصقت يده بالسكين على نحرها حتى يأتى صاحبها . كذلك يحرس بيوتهم جنى أسمه دمزوقة .

لم يصدق التونسى وأصحابه ذلك ، لكن فيما بعد أكد لهم أحمد بدوى وجود الدمازيق ، وانها تباع وتشترى ونصحهم بشراء دمزوق يحرس لهم مالهم!

بمجرد عودتهم إلى الفاشر ورحيل التونسى إلى أبيه . جاءهم رسول من طرف محمد كرا يستدعيهم إلى حضرته . ركبهم القلق والخوف ، لكنهم اذعنوا للأمر وأخذوا معهم هدايا ثمينه . قابلهم فى أبهته وقبل الهدايا. اهتم أكثر ما أهتم بهادى. تأمله طويلا ثم قال :

ــ شكلك يذكرنى برجل كان هنا منذ سبعة عشر عاما تقريبا .

راقب ارتباكه . ثم سأله :

ــ هل لك شقيق أكبر جاء إلى هنا فى ذلك الوقت ؟

ــ لا !

ــ كاذب . أنت شقيق زبادى

فشل هادي في الإنكار. لمعت نظرة كرا وطمأنه أنه لن يخبر السلطان، لكنه أعلمه بأنه أصدر أوامر إلى جميع المقدومين على طريق درب الأربعين بعدم السماح له ولأصحابه الثلاثة بالسفر ضمن أية قافلة.

ثم التفت يسأل أدريس:

ـ من أين أنت يا غلام؟

سارع حنحوت مجيبا:

ـ من صعيد مصر، هو ابن خالتي.

ـ لكنه أسود وأنت قمحي؟

ـ ذلك أن خالتي عندما كانت حاملا به وجاءها الطعام ذات مرة توحمت وتمنت أن يكون الطعام بالفلفل الأسود، فولد هكذا!

رمقه بنظرة قاتلة ثم قال لإدريس:

ـ بل أنت من جنوب بحر الغزال، شكلك يقول إنك من الدنكا.

صاح حنحوت:

ـ قلت إنه ابن خالتي.

فرفع كرا أصبعه محذرا لهم جميعا:

ـ لا تخرجوا من الفاشر إلا بإذني وإلا لحقتم بزيادي!

فخرجوا بأعصاب مرجوفة حتى وصلوا إلى البيت فوجدوا العبد نائما، بعد أن أفاقوا من هول ما حدث جعلوا يضربون أخماسا في أسداس ويسألون عن الذي أخبر محمد كرا بالسر.

فقال حنحوت:

ـ لا يعرف سرنا سوى التونسي والعجوز أحمد بدوي، والواشي واحد منهما.

فاستبعد هادي صديقهم التونسي، وقال ادريس:

ـ هو أحمد بدوي، ألا يتاجر في الرقيق!

كان الشاطر أثناء ذلك صامتا يفكر وعيناه على العبد النائم، ثم قال لهادي:

ـ ولماذا لا يكون هذا العبد النائم؟

ـ صاحب الدار أخبرنا أنه لا يعرف العربية!

فإذا الشاطر يخرج خنجره، فسأله حنحوت:

ـ لماذا أخرجت خنجرك؟

ـ لأذبح هذا، سأذبح هذا العبد النائم بخنجري.

فإذا العبد الذي كان مغمضا يهب مرعوبا، ويجري هاربا. جلسوا في صمت وسخط، لماذا يدس عليهم رماد ود مدني هذا الجاسوس!

جاءهم في المساء منكسرا، وقد عرف من العبد ما حدث. شكا وبكى وذكر أنها أوامر محمد كرا، إن عصاها أرسله وعائلته إلى سجن جبل مرة الرهيب.

تحير الشاطر:

ـ ماذا يريد منا؟ لماذا منعنا من السفر؟

أطرق الشيخ . جلس يخبرهم كيف أن الأحقاد بين الأسياد بدأت عندما أقام السلطان الحدث وليمة لكبراء دولته . جاءوا وتفرقوا على الموائد بحسب مراكزهم . جلس كرا مع المكوك . قام السلطان يمر على الموائد يؤانس مدعوّيه . مر بمائدة المكوك يجاملهم . كان كرا قد أكثر فى الخمر ، نسى التقاليد ورفع الكلفة داعيا السلطان للمشاركة . اعتبرها محمد فضل إهانة . طرده بعد أن كسر عصاه على رأسه . خرج ابو شيخ دون كلمة كاتما غله وحقده

قال هادي مبتهجا :

ـ فقد الملعون مركزه . هذا من حظنا . من الفجر نسافر .

ـ عاد بعد توسط الوزراء . وما زال حاقدا . وقاكم الله شر حقد الخصى !

ـ فماذا نفعل ؟

ـ نفذوا أوامره ، إلى أن يدبر الله نجاتكم ، وقد يسخرنى سبحانه لذلك .

صارت أيامهم ثقيلة مشحونة خوفا من أى طارىء . شغلوا أنفسهم بالبيع والشراء . ذات ليلة تسلل أحد الحراس تحت جنح الظلام ، وأخبر هادي أن مراقب سلوك الأمراء يريده . توجه معه بخطو مهزوز . فى الطريق والبلدة نائمة ، عرف أن داعيه هو باسي عوض الله ، وأن باسي بالفورية تعني الطويل العظيم . عندما انفرد بهذا الباسي .. عرف أنه أخو محمد كرا . امتقع ودار رأسه ، قال له عوض الله:

ـ أنت يا هادى مدين لى بجميل . كان أخى كرا يريد قتلك فمنعته وأنقذت حياتك . عليك الآن رد الجميل . إن تعاونت معى عدت إلى أهلك

بقطار إبل من مائتى جمل محملة بكل ما هو نفيس فى مصر ، بما فى ذلك الذهب والعبيد . لأنى وقتها سأكون السلطان ، وأخى كرا قائد جيوشى وكبير ديوانى ، إذا كنا ثبتنا الغلام قمر السلاطين على العرش ، فبإمكاننا التخلص منه .

ـ ماذا تريد منى ، أعزك الله ؟

ـ اسمع يا ابن الأصول . سلاطيننا تجرى فى عروقهم دماء الغدر . أخوك زبادي ساهم فى تولي عبد الرحمن الرشيد العرش .. لكن الرشيد كان خسيسا وقتله . أما أبنه قمر السلاطين محمد فضل ، الذى وضعه أخى على العرش بنفسه كما وضع من قبل والده ، ها هو ذا المنحط يتجرأ ويضربه بالعصا على رأسه أمام الحاشية . بفعلته هذه صار عدوى ، مثلما هو عدوك منذ القدم.

ـ كيف وأنا لا أعرفه ؟

ـ أبوه غدر بأخيك . الشرف يدعوك للأخذ بثأره . أتريد أن يذهب دم أخيك هدرا !

ـ ما باليد حيلة

ـ عندك بندقية لا شبيه لها هنا . وأنت ماهر فى الرماية . تحين الفرصة واقتل ابن من قتل زبادي . إغسل عارك . أليس غسل العار عندكم فى الصعيد واجبا .

ـ كيف وهو لا يخرج !

ـ سيخرج يوم عيد تجليد النحاس ، طبولنا النحاسية

ـ سيكون بالساحة خلق كثيرة وجيوش غضب السلطان !

ـ ساكون سيطرت على الموقف ، ولن تطولك الحراب

ـ أفكر

ـ بل قل موافق . لا مجال أمامك للهرب

خضع موافقا . تسلل فى عتمة الليل ، خائفا من أن يراه أحد من أعوان السلطان . وجد أصحابه ينتظرونه أمام الدار . بعد الحاح قربهم منه وهمس بما كان . اغتموا ورفضوا الانغماس فى الدسائس !

انتظروا الصباح وقابلوا رماد ود مدنى . طلبوا منه أن يعاونهم على الفرار فى طريق غير درب الأربعين . صمت دهرا يقيس الأمور . ثم قال :

ـ إذهبوا إلى الغرب ، إلى سنار . ملك الفنج يكره سلاطيننا منذ أيام السلطان تيراب الذى كان حاربهم وهزمهم وغنم نحاسهم . من هناك تأخذون أول قافلة إلى بلدكم . دعونى أدبر والتوفيق من عند المدبر .

يوم الاحتفالات ، يوم تجليد النحاس ، تغيير جلود الطبول ، صدر الأمر السلطانى بنزع الجلود القديمة . فجاءوا بثور وخروف من جبال مرة ، قال الناس أنهما ما إن شاهدا السكين . حتى ناما من تلقاء نفسيهما للذبح ، لأن الجن أمرتهما بذلك . من الجلد المسلوخ . أعادوا تجليد النحاسات . وقد اكتظت العاصمة بالأمناء والمقاديم والشراتى والمكوك .

فى بيت النحاس أمسك أحد الوزراء بضلع من أضلاع الثور ، ظل يحكه حتى رق وصار هشا . عندئذ أتى السلطان مترجلا ، فى ثياب بيضاء ملساء ، على رأسه كشمير ، وطيات الشاس الأبيض تخفى وجهه وفمه وأنفه وشعره عدا عينيه . من حوله ملكة الحبوبات أى كبيرة الجدات ، والجوارى فى أبهى

حلل وحلى ، فى حماية الخصيان حاملى السياط . أخذ الضلع الهش وضرب به جلد الطبول فانكسر . عدوا انكساره بشير نصر وسلام . زغردت النسوة . ثم ضربت النحاسات بحيث سمعت فى أرجاء المدينة فاستبشر الناس . وتأهبوا لمشاهدة احتفالات اليوم الأول ، أمام القصر فى الساحة الفسيحة .

خرج ملك النحاس بطبولهم السبعة على سبعة جمال ، نحاساتهم الخمسة القديمة ، وتلك التى غنمها تيراب من الفنج ، وأخرى غنموها من أعداء آخرين . ثم ظهر السلطان راكبا بسيفه الذهبى على جواده ، فى حراسة الكوركوا حملة الحراب المكسوة بالجوخ . الملونة ، مستظلا بمظلة واسعة ، ورجلان يحجبان الشمس عن ظهره بمروحتين من ريش النعام . عن يمينه ويساره العلماء والفقهاء والوزراء . من ورائهم ملكة الحبوبات على الجواد ، تسبق الجوارى حاملات الأباريق . وأبو شيخ محمد كرا فى أبهته وتجهمه ، وعن قربه أخوه باسى عوض الله متوترا .

ثم توالى مجىء فرق الجيش ، كل فرقة يسبقها رئيسها على جواد . تقدم الأول وحيا السلطان يهز سيفه فوق رأسه . رد السلطان يهز سوطه . تراجع ليتقدم الرئيس الثانى والثالث ومن تلاهم . بعد إتمام جميع ذلك تقدم محمد فضل وطاف حول النحاس ، يهز سيفه فوقها . ثم أستعرض الجند ، وعاد إلى مكانه ، لتستقبله الحبوبة بالزغاريد . أخيرا أعطى الأمر بعودة النحاس . وعاد بموكبه إلى الدار . فتفرق الجند الى بيوتهم ، انتظارا لتكرار هذا الاحتفال ست مرات أخرى ، ليكون عدد الأحتفالات سبعة بعدد النحاسات .

فى شغف وفضول تفرج هادى وخنحوت والشاطر وإدريس على الاحتفال . كلما نظروا إلى باسى عوض الله ضاعت بهجتهم . بعد أيام حضروا الاحتفال الثانى ، وكان مثل الاول . وكل حين يتلفت عوض الله إلى

هادى يطمئن على وجوده. مطلوب من هادى أن يقتل السلطان فى الاحتفال الثالث.

فى الصباح زارهم مدنى ود رماد. أخبرهم أنه اتفق مع خبير قوافل عجوز أمين يعرف الطريق إلى سنار تمام المعرفة. طلب من هادى مالا كثيرا لشراء عشرة جمال لحمل تجارته عليها، إضافة إلى جماله الأصلية. خططا أن يكون رحيلهم يوم الاحتفال الموعود، وقت تجمع الناس فى الساحة، فيخرجون دون أن يلحظهم أحد، خصوصا والدار على أطراف البلدة، ليكسبوا مزيدا من الوقت، لأن كرا سوف يبحث عنهم فى درب الأربعين.

فى ليلة تنفيذ المؤامرة اجتمع باسى عوض الله بهادى وأفهمه المطلوب منه. بعد ساعات ومع شقشقة الفجر، وصل الخبير العجوز بالجمال، واستأذن منهم بعض الوقت لاستطلاع الطريق. انهمكوا فى تحميل الجمال بالماء والطعام وجميع المشتروات، من ريش نعام وسن الفيل وتراب التبر وغيرها. انتهوا من ذلك على أحسن ما يكون، ولم يعد الخبير، فخافوا أن يكون قد تراجع، أو أن يكون عمال محمد كرا قبضوا عليه.

كان الخبير قد ذهب يستطلع مخارج الدروب وحراساتها. وجد طريق الشرق المؤدى إلى سنار فى حراسة لا تقل عن حراسة درب الأربعين المتجه شمالا إلى مصر. لم يعد أمامه سوى التوجه بالقافلة جنوبا إلى حفرة النحاس ثم شرقا إلى سنار، ومن باب الحذر يسلك من درب جانبى. عاد وأخبرهم بوعورة الطريق الجديد فما تراجعوا، وأخذوا يوقفون الجمال الموسقة.

عندما نشطوا وهموا بالتحرك وصل الشيخ مدنى ود رماد يودعهم. ظل واقفا يتابع ابتعادهم، متمنيا لهم السلامة فى الدروب المهجورة. ثم سارع إلى ساحة الاحتفالات. وشق طريقه بين الحشود، إلى أقرب مكان من كرا حتى

يراه. وقف فى هدوء، يرقب ما حوله، أعوان كرا فى كل مكان، وباسى عوض الله فى ثبات، كل شىء سار على أكمل وجه، اغتال أكثر المكوك المعارضين ولم يفتضح أمره، إلا ملك النحاس ابراهيم ود رماد، والذى لا يمت بصلة قرابة إلى العجوز الطيب مدنى ودرماد، أفلت من القتل. لكن ثبات عوض الله تحول إلى قلق. بادل أخاه نظرات التوتر، كل شىء جاهز، لكن رامى البندقية غائب.

انتهى الحفل وانصرف الناس والجند، دخل السلطان داره، ولم يظهر هادى. جن جنون كرا. زاد جنونه عند اكتشافه هرب الأربعة الغرباء. أسرعت هجينه إلى درب الأربعين ثم إلى باقى المسالك، وما عثر لهم على أثـــر!

أما ملك النحاس فقد ذهب إلى السلطان وقال له:

ـ أعلم أن كرا يسعى إلى دمارك وتولية أخيه مكانك.

طالبه محمد فضل بالبرهان. فقال:

ـ نرسل بعض العساكر إلى الآبار التى يستقى منها ونمنع عبيده من ورودها، إذا جاء شاكيا كان لا يزال على الولاء

وهذا ما كان. توجه عسكر السلطان إلى البئر منعوا العبيد من الارتواء. علم كرا فجمع رجاله وقتل عساكر السلطان، ثم تقدم إلى منزل محمد فضل ودخله محاربا، وكان ملك النحاس ابراهيم ود رماد قد أعد الجيوش فى انتظاره، فاقتتل الفريقان إلى ما بعد الغروب، وعندئذ نادى ملك النحاس مخاطبا كرا:

ـ حقا أنك امرأة، لأنك لو كنت رجلا ما طلبت الحرب ليلا بلا ميعاد !

فأجابه :

ـ كنت نويت ألا أخرج من هذا المكان حتى أقتلك وأخلع سلطانك، أما الآن وقد قلت أني فاجأتك ليلا بلا ميعاد، فلاقني صباح الغد في ساحة القتال شرق المدينة !

قال ذلك وانصرف إلى داره، وكان خطأ كبيرا منه، فلو لم ينصرف لصار أخوه السلطان الجديد في هذه الليلة !

كان في جيش السلطان رجل كهل مشهور بالفروسية والاقدام أسمه «أحمد ود جراب الفيل»، أبلى بلاء الأبطال في الحروب السابقة، رأى القتال مع كرا ولم يبذل جهده أو يشارك، فلامه مك النحاس قائلا :

ـ أصحيح أن كرا أشتراك بمائة رأس رقيق فتركت القتال ؟

فقال ود جراب الفيل :

ـ أمثلي يقال هذا الكلام ؟ قل لي بماذا أحارب ؟ بسيفي وقد صادروه ووضعوه في خزانة سلاح السلطان ؟ أم بحصاني هذا النحيف الشبيه بالنعجة ؟

فأمر محمد فاضل بإعادة سيفه اليه، ثم أمر باحضار الخيول ليختار منها جوادا يعجبه، فكان ود جراب يقبض على ناصية الجواد ويجذبه بيده وهو جالس علي الأرض فيخر الجواد على ركبتيه من قوة الجذب، إلى أن قبض على جواد وجذبه فنفض الجواد رأسه، ورفع ود جراب الفيل حتى أوقفه على قدميه، فقال فرحا : هذا جوادي الذي أركبه. ثم استل سيفه وقبّله ونظر إلى أم بوسة والدة السلطان وقال لها :

ـ أعلمي أن دارفور تكون بيد ولدك لا ينازعه فيها منازع قبل ظهر نهار غد إن شاء الله.

ففرح مك النحاس بذلك، وكان له ثلاثون ولدا من صلبه راكبين الخيول كاملي العدة، أحضرهم إلى ود جراب الفيل وقال له :

ـ أنت رئيس أولادي هؤلاء، وأريد منك قتل محمد كرا غدا.

فلما كان صباح الغد برز ود جراب الفيل ومن معه من جماعة السلطان في ألوف كثيرة قاصدين كرا، إعترضهم أخوه باسى عوض الله، ونشبت الحرب بينهما فانكشفت جماعة السلطان، وخاف على نفسه وابتعد. في الليل توقف القتال وخرج محمد كرا يتفقد حال رجاله فوجد أخاه باسى عوض الله قد قتل في الحرب، فحزن وبكى وقال :

ـ لن أقاتل وقد مات أخي ؟!

ثم قال لمن حوله :

ـ لن تقاتلوا غدا. بل ادخلوني في الحرب وانجوا أنفسكم.

فحين شاع ذلك فرّ جميع عساكره، ولم يبق معه الا ذوو قرباه في نفر يسير يبلغ عددهم الألف أو أكثر بقليل، فلما أصبح ضربت طبول الحرب، وركبت جماعة السلطان، والتحم القتال، وخاض محمد كرا ضد جماعة السلطان، واخترق الصفوف حتي لم يبق بينه وبين محمد فضل أحد، ولو أراد قتله لفعل، إرتعب الغلام، لكن كرا تذكر معروف الرشيد فمنع يده عنه، ووقف أمامه برهة وقال :

ـ يا ابن الفاعلة، أيكون هذا جزائي معك وتسمع كلام الناس ؟

إرتعب محمد فضل وصاح :

ـ جاء يقتلنى ، جاء يقتلنى !

فسارعوا لنجدته ، وأحاطوا به ، ولم يجد محمد كرا معينا ولا مساعدا ، فقاتل حسب طاقته ، وقتل عدة أبطال ، وجرح جروحا بالغة فلم يكترث ، حتى تمكنوا من عقر جواده ، فوقع على الأرض ، ولم يستطع النهوض لثقله لأنه كان لابسا درعين من الحديد ، فتكاثروا عليه بالرماح والسيوف حتى مات ، بعد أن جردوا عنه درعيه أحصوا فى جسده ما ينوف على مائة جرح ! ثم استولى السلطان محمد فضل على عبيده وجواريه وماشيته ، وكان شيئا يفوق الحصر (١).

عند ذلك خاف العبد الجاسوس الذى كان مدسوسا على هادى وحتحوت والشاطر وادريس ، وذهب إلى ملك النحاس وأبلغه أن هادى هو شقيق زبادى ، وانه كان متواطئا مع محمد كرا وباسى عوض الله ، فأمر السلطان باحضاره وأصحابه الثلاثة حيثما يكونوا بكامل أبدانهم إن كانوا أحياء أو برؤوسهم مقطوعة .

---

(١) قتل محمد كرا فى أواخر عام ١٨٠٤ وألغى محمد فضل منصب الأبوشيخ بعد ذلك ـ وزبادى القناص المصرى شخصية غامضة . المعلومات عنه ناقصة ، لكن الثابت أنه قتل إسحاق لحساب الرشيد الذى قتله بعد ذلك .

(١٠)

بعض المباح فى أرض الرماح

أما هادى وادريس والشاطر وحتحوت فقد قادهم الخبير متجهاً جنوباً ، متفادياً نقاط حرس السلطان ، حتى وصل إلى قرية صغيرة اسمها دارا ، بها أكواخ من القش وعيدان الدخن ، ثم اجتازوا سهولاً ووديانا وواصلوا السير أياماً ، ولم يتوقفوا إلا لإراحة الابل والنوم ، والارتواء من آبار الطريق ، وآخرها اسمها بئر الأقدار ، وبعد بئر الأقدار ، صارت الأرض خصبة لكنها غير مستغلة .

بعد مشقة وعناء وإسراع وإبطاء وصلوا إلى حفرة النحاس ، ومن حولهم جبل وبحيرات صغيرة ومستنقعات ترتع على شواطئها التماسيح وأفراس النهر ، ولم تكن حفرة النحاس سوى صف من المناجم ، وعدد من الحفر الضخمة حفرها أهل المنطقة لاستخراج النحاس ، وما عدا ذلك تراب وتلال ، فاقترب الشاطر من إدريس وسأله مازحاً :

ـ ها هى ذى مدينة النحاس ، فأين الكنوز والجواهر والماس التى حدثتنا عنها أيها اللبيب ؟

أجاب مكابراً :

ـ هذه اسمها حفرة النحاس وأنا حدثتكم عن مدينة النحاس .

ثم ضحك كاشفاً عن أسنان بيضاء أضاءت فى وجهه الأسود البديع . ثم

ساروا حتى اقتربوا من منطقة المستنقعات التالية ، فأوقفهم الخبير وأخرج زلعة ممتلئة شحماً كانت على جمله ، وراح يدهن وجوههم وأيديهم وكل جزء ظاهر من أجسادهم بهذا الشحم ليقيهم من لدغات أسراب الذباب القاتل الذى يصيب الإنسان بمرض النوم الأبدى .

واصلوا التقدم مسافة قصيرة ، وإذا بالذباب يهاجم الجمال ويحط على أبدانها ، يلدغها بلا هوادة ، فمات منها ثلاثة وزعوا أحمالها على باقى الإبل ، ظلوا يفقدون الجمال ، حتى ناءت الباقية بالأحمال ، فأرهقت وتعثر بعضها ولم ينهض حتى نفق ، وفى النهاية فقدوها جميعاً . توقفوا يائسين لا يدرون ما العمل وكيف التحرك؟ ونظروا إلى الخبير العجوز ، فما كان منه إلا أن قال قائلاً مشيراً إلى الشرق :

ـ أمرنا إلى الله ، اتبعونى ، نمشى حتى نعثر على بعض الأهالى نستأجر منهم أبقاراً لحمل البضائع ، الحشرة اللعينة لا تصيب البقر . لا تخافوا على أحمالكم ، لا أحد هنا يسرقها .

فسبقوه شرقاً للابتعاد عن أسراب الذباب الطنان ، لكن الشاطر استدار عائداً إلى الأحمال قائلاً :

ـ على الأقل نحمل الضرورى ، نأخذ معنا السلاح والبارود والمساحيق والأعشاب الطبية .

فأعجبوا بفكرته ، وأخذوا البنادق والغدارات والبارود وساروا نحو الشرق ، وهم فى ضيق من الشحم الذى دهنوا به أنفسهم والذى أفلح فى إنقاذهم من اللدغ ، والمستنقعات من حولهم كثيرة وكأنها لا تنتهى . ثم تلبدت السماء وأبرقت وأرعدت وأنزلت وابلاً من الأمطار ، أزالت عنهم

معظم الشحم ، أحسوا بالانتعاش والنشاط رغم التعب ، وتقدموا حتى رأوا نهر يخرج من المستنقعات وكأنه كان مختبئاً فيها ، فساروا فى محاذاته ، وأقدامهم تغوص فى الطين ، وواصلوا المشى حتى مالت الشمس إلى المغيب، فجاهدوا فى السير حتى وجدوا رقعة جافة ارتمى عليها العجوز منهكاً وقال:

ـ نبيت هنا !

بذلوا جهدهم فى جمع بعض الأعواد الجافة ، أوقدوا النار ، وجلسوا من حولها ، سرعان ما غلبهم النعاس فناموا نوماً عميقاً ، بعد وقت قليل أو كثير استيقظ الخبير على يد تهزه ، فنهض وأيقظهم ، هبوا فزعين ليجدوا أنفسهم محاصرين بدائرة من رجال سود طوال ، لهم أعناق طويلة ووجوه فى سواد نحاسى أقرب إلى لون إدريس ، وجميعهم شاهرون الحراب الطويلة ذات الأسنة الحديدية . حاول الخبير أن يتفاهم معهم بلغتهم ، وقد أدرك أنهم من قبائل الدنكا ، فلم تسعفه الكلمات القليلة التى يعرفها من لغتهم .

أما إدريس فقد بقى شاخصاً إليهم ، شاعراً بأنه منهم وأنهم عشيرته ، لأنه تذكر عدة كلمات غائمة فى ذهنه منذ الطفولة ، كان مازال يذكر كلمة والد وأم وابن وماء وبقر وغيرها ، فراح يحاول التحدث معهم . حملقوا فيه مندهشين ، وجدوا ملامحه تقترب من ملامحهم ، اندهشوا وأشار زعيمهم إليهم أن يتقدموا ، فأطاعوا إشارته وساروا وهم فى حيرة من مصيرهم ، وأخذوهم بين الأعشاب الطويلة فى طريق متعرج تقل فيه الأوحال ، ومضوا بهم شوطاً من الليل حتى أنهم فقدوا الاتجاه ، ولم يعرفوا إلى أين يأخذونهم ، وهمس حنحوت للشاطر :

— معنا البنادق وبإمكاننا التخلص منهم .

— دع العنف عند البأس .

سمعهم إدريس فقال في ثقة عجيبة :

— لا تخافوا ، الدنكا طيبون ومسالمون وسيقدمون لنا العون متى تأكدوا من حسن نوايانا .

ثم تقدم من الزعيم محاولاً التحدث معه وإفهامه أنه منهم ، لكن الرجل لم يفهم قصده . بعد ساعة وصلوا إلى قرية صغيرة . صدرت أصوات خاصة من بعض أفراد الجماعة ، فإذا أهالي القرية ينهضون ويخرجون من بيوتهم ، وبأيدي الرجال حراب طويلة . فتقدموا والأطفال والنساء يتأملون ألوانهم الفاتحة ، حتى وصلوا إلى رجل عجوز وقور تفحصهم ملياً على أنوار النيران ، ثم تكلم بعبارة واحدة مقتضبة ، فأخذوهم إلى كوخ متين وادخلوهم وأغلقوا الباب عليهم . . قال الشاطر :

— لا بأس حتى الآن ، وإن كنا قد فقدنا ثروتنا .

رغم حيرتهم وقلقهم افترشوا الأرض وناموا ، حتى جاءهم في الصباح من أيقظهم وأخذهم إلى الشيخ المبجل عندهم ويسمى « بين بيتاً » أي زعيم الرمح المقدس ، وكان جالساً يدخن وإلى جواره رمح سنه المعدني عريض ويحاكي ورقة الشجر العريضة ، وهو القاضي والزعيم الروحي والمسيطر على الشئون الدنيوية ، والحافظ لطقوس جلب الأمطار ، مع أن المطر عندهم وفير ، وكان يجلس عن يمينه ملك البقر الذي قبض عليهم ، وهو الذي يحرس البقر ويدافع عنها وعن القبيلة ، وعن يساره ملك الذرة الذي يحمي

المحصول من عدوان الطير والجراد ، أما ملك السمك فلم يكن موجوداً لأنه كان قد خرج من الصباح الباكر مع الصيادين للصيد . . . وفوق رءوس الجميع كانت تعويذاتهم مرفوعة وهي السلحفاة ، وهي شعارهم المقدس !

اشترك الخبير مع إدريس في محاولة التفاهم معهم . اراحهم حامل الرمح المقدس وخاطبهم بالعربية ، فعرف حكايتهم وصدقها ، وأرسل معهم ملك البقر وعدداً من أتباعه ومعهم عدة أبقار حيث توجهوا إلى المكان الذي تركوا فيه أحمالهم ، وعادوا بها بعد أيام سليمة ، وخزنت في مكان خاص . ولم ينس هادي أن يوزع الهدايا الثمينة على الرؤساء من أقمشة وخرز وخلافه لأنه لاحظ أن الرجال إلى جانب شجاعتهم يحبون التزين أكثر من النساء . .

ولأن الأمطار لم تتوقف إلا لتسقط من جديد ، فقد توحلت الأرض وزادت المستنقعات ، وصار من المحال الانتقال إلى أي مكان ، فكان عليهم البقاء حيث هم . فمرت الأيام وإدريس تزداد معرفته باللغة حتى قارب أن يتقنها . وكأنها كانت منسية لديه وتذكرها ، وصار يحفظ أسماء قبائل الدنكا من «بور» أي المغمور بالمياه . و « علياب » قرب بحر الجبل ، و « أجار » غرب بحر النعام وغيرها ، و « المالوال » حيث يلجأون ، وكل قبيلة مستقلة في حياتها عن الأخرى رغم تجاورهم ، ويعتمدون على الرعي والصيد بالحراب، ومنهم من يجيد استخراج خام الحديد وهم عشائر الحدادين .

لكن الفخر الأكبر عند الدنكي هو اقتناء البقر ، فهي مقياس ثروتهم ومبعث فخارهم وعماد مركزهم في العشيرة ، وبها تدفع المهور للزوجات ، وتدفع الديّة ، وهي الشيء الوحيد الذي يحسد عليه صاحبه ، ويحصلون عليها بالمقايضة أو بالاغارة ، ويبنون من أجلها أكواخاً أضخم وأعظم مما

ينونه لأنفسهم وتسمى لويك ، وداخل اللواك تبيت الماشية وسط المزارع والحشائش ، أما فى موسم الجفاف فى نهاية العام فتنتقل العشيرة إلى جوار الجداول أو الأخوار المملوءة بالماء ، حيث تعيش مع قطعانها فى أكواخ مؤقتة فى العراء فيعيش الرجال بالقرب منها حول النيران الموقدة من روثها لكى يطرد دخانها البعوض .

بينما هم فى راحة ودعة وملل وسأم ، إذ تعالت أصوات مميزة ، تتوقلت من مكان إلى مكان عن طريق رجال متباعدين ، مختبئين بين السفانا وأعلى الأشجار ، حتى وصلت إلى القرية ، بعد أن قطعت مسافة طويلة تعادل سبعة أيام على الأقدام ، وكانت ترجمة هذه الأصوات ان جيش سلطان دارفور فى الطريق !

على الفور تشاور زعيمهم الرمح المقدس مع ملوك الذرة والبقر والسمك للنظر فى الخطر الطارىء ، وقد ظنوا ان الفور يريدون خطف أولادهم وبناتهم لبيعهم عبيداً ، رأوا التحالف مع العشائر المجاورة لصدهم ، أو الترحال بعيداً خاصة أن موسم الأمطار فى انتهاء . وفى الوقت نفسه تشاور هادى مع الشاطر وحتحوت وإدريس وقد فهموا أنهم المقصودون من رجال دارفور ، ومن الواجب عدم تعريض الدنكا للخطر بسببهم بعد أن آووهم ، وهنا قال الشاطر لهادى :

ـ يمكننا مقاتلة الفور حتى لو كانوا ألفاً .

ـ نحن الأربعة !

ـ العقل يغلب الكثرة.

ثم ان إدريس توجه إلى الرمح المقدس وطلب منه معرفة عدد القادمين ،

وعلى الفور أصدر رجل الاتصال أصواتاً معينة سمعها التالى له فنقلها إلى الثالث ، حتى وصلت إلى المختبىء فوق الشجرة التى يمر عندها الفور، فظل يحصى عددهم على وجه التقريب ، ثم قام بالتبليغ بأصوات طيور الأحراش وحيواناتها ، وكان العدد لا يقل عن المائتين . وعندئذ قال الشاطر :

ـ سنوقع بهم .

احتج الخبير مستنكراً أن يتصدى أربعة شبان وعجوز لمائتى مقاتل ، وكان إدريس يثق فى دهاء الشاطر ، فقام وأبلغ حامل الرمح المقدس برغبته هو وأصحابه فى الإيقاع برجال محمد فضل .. تردد وقتاً ثم وافق عندما رأى أسلحتهم النارية ، ودعا إلى الصلاة ، فجاء الكاهن وقدم القربان إلى الإله « نهيالك » اله جميع الدنكا قائلاً :

ـ أنت أيها الإله الأكبر نهيالك ، أيها العلى الأعلى الذى مسكنه فى السماء ، أنت يا من يرسل السحاب ، ويا من يهيمن على الأمور العظيمة ، أنت خلقتنا وأتيت بنا ووهبتنا الحياة ، أنت وحدك القادر على رد الفور ، إننا نقدم لك هذا الذبيح ، فاقبله منا مقابل ما وهبتنا من خير ونعيم ، وامنحنا النصر من عندك أيها الواحد الأحد .

ثم أرسل الرمح المقدس معهم عشرين من أقوى رجاله ، حاملين رماحهم الطويلة لأنهم لا يقاتلون الا بها ، ولا يعرفون السيوف أو السهام ، وساروا مدة يومين حتى وصلوا إلى منطقة أرض مرتفعة وجافه ، عندما تأكد الشاطر أن الفور لابد آتون منها ، أنشأ نصبة تعلو عن الأرض بنصف المتر ، وضع أسفلها أعوادا جافه وأوراقا ، ومن فوقها صرة كبيرة مملوءة بالبارود ، ثم

جلس مع أصحابه فى هدوء، والدنكا لا يفهمون قصده، وأصحابه يتمنون الفلاح لحيلته وإلا كان الفناء لهم وللعشرين دنكاوى المرافقين!

عند المغيب جاءتهم الأخبار بقرب وصول الفور، فجعلهم يقفون عن بعد بحيث يكونون ظاهرين، وبقى هو قرب نصبة البارود، وما أن اهتزت فروع الأشجار والسفانا وظهر أول الفور، حتى صاح فيهم بصوت عال مستفز:

ـ يا جبناء، سوف أرسلكم إلى الجحيم!

وقفوا ينظرون إليه فى استغراب، ولما رأوا عدد أصحابه قليلا تخلصوا من جمودهم وضحكوا ساخرين، فما كان منه إلا أن حك جزئى القداحة وأشعل النار أسفل النصبة، ثم انسحب منضما إلى جماعته.

تقدم الفور فى حيرة من أمر النار والصرة والنصبة كلها، ظنوا أنها أحد الحيل السحرية، وعندما اقتربوا منها تقدم أشجعهم يحملق فى النصبة، فلما لم يجد تعويذة أو كتابات سحرية، ولما لم يحدث له أى ضرر تقدم الباقون فى فضول، بينما كانت النيران تعلو، حتى سخن البارود وكانوا أقرب ما يكون، وعندئذ انفجر فى دوى رهيب أفزع الطيور والحيوانات القريبة، وتناثر رجال محمد فضل فى الهواء مثل الطيور المصابة، مات وجرح منهم الكثير، ومن نجا فر وكان ابليس يطارده. وهرب الخبير!

أما الدنكاويون فإنهم لما سمعوا الانفجار جروا مبتعدين، ولما وجدوا رفاقهم لا يخافون وقفوا مشدوهين يشاهدون تساقط رجال السلطان، فلما عادوا إلى القرية حكوا عما شاهدوه والجميع لا يصدقون، وظنوها من أعمال السحر، وقال الرمح المقدس:

ـ بل هى بركة ربنا «نيالك». ولكن قد يعاود الفور الكرة لأنهم عتاة!

قال الشاطر لهادى:

ـ بالتفكير والسلاح الحديث رأيت أنا وحنحوت الفرنسيس يهزمون جحافل المماليك الغلاظ.

وكان الرمح المقدس قد سمع عن الأسلحة النارية عندما كان يخرج منذ صغره مع قوافل التجارة، خاصة إلى شندى بوابة السودان، ولهذا تعلم العربية وكان سمع عن البارود من حكايات التجار ولم يره، وظنه من مبالغات السكارى فى مشارب البوظة!. لكنه أمر بتقديم ذبيحة إلى الاله نيالك، ثم أمر بإقامة احتفال عظيم، رقص فيه الجميع وشربوا جعتهم الخاصة، وناموا سعداء. والذى حير هادى وحنحوت وإدريس والشاطر أن الوليمة الكبرى لم يكن فيها لحم رغم وفرة البقر، أكلوا أسماكاً وطبيخاً من الذرة وأنواع نباتات أخرى لم يعرفوها، وافتقدوا اللحم. ثم عرفوا ان الدنكاوى يحب بقرته ويحادثها ويتحدث عنها ويعطيها اسماء مثل أسمائه، لأنه يحمل عـدة أسماء، اسما وهو طفل، وإذا كبر اختار لنفسه اسماً آخر، وما أن يبلغ سن الفتوة ويمتلك عجلاً حتى اسماً جديداً يطابق اسم العجل، ويعتنى به عناية فائقة، ويَشِمُ جبهته بخطين أو ثلاثة من الندوب، فيصبح مهيأ لفترة الشباب.

وكان إدريس لاحظ شدة قلقهم من الهجمات الخارجية، وأنهم لا يعرفون الدروع أو الدرق الواقية، فذهب إلى الزعيم وشرح له فوائدها فى حماية المقاتلين كما يحمى الغطاء الصلب السلحفاة شعارهم المقدس.

على الفور استدعى الرمح المقدس رعاياه من فئة الحدادين وجعلهم

يصنعون الدروع ، وكانت النتيجة طيبة . ففرح إدريس وأحبه الرمح المقدس وكأنه ابنه من لحمه ودمه ، وبعد أيام اختار له فتاة جميلة وخطبها له ، لأن من عادة الأب أن يفعل ذلك لأبنائه . .

هذه المرة لم يعارضه حنحوت ولا الشاطر مثلما عارضاه فى بلاد الشايقية . وكانت العروس بديعة الجمال متسقة الملامح ، فيها حياء يزيدها حسناً . ولإتمام الخطبة توجه إدريس إلى بيت العروس والتمس بعض التبغ ليدخنه ، مع أنه لا يدخن ، فأعطاه والدها تبغاً كثيراً ، وكان معنى ذلك أنه يرحب به زوجاً لابنته . ثم ان الرمح المقدس وقد جعل من نفسه والداً لإدريس اتفق مع والدها على المهر ، عشر بقرات حلوب ، وثلاثة قدور من دهن فرس النهر .

يوم الزفاف ذبحوا ثوراً ، وتجمعت القرية تأكل وتشرب وترقص ، ورقصت العروس رقصة زفافها ، بينما لم يسمح لادريس بالحضور وبقى فى الدار التى أعدت له ينتظر ، حتى انتهى الحفل ، فتجمعت الفتيات حول العروس وأخذنها ، وهى تتظاهر بالتمنع ، إلى حيث ينتظرها عريسها ، وكان أسعد الناس فى تلك الليلة .

فرح حنحوت ، وقال الشاطر :

ــ أخيراً نال بغيته وتزوج ، عاد إلى وطنه وانتهت تغريبته ، وجاء دورنا .

صار الرمح المقدس يعد إدريس لأن يحل محله ، وسأله عن اسمه الأصلى فلم يتذكره ، فقال له :

ــ من الآن أسميك « أبوت » .

ــ أبوت ؟ ليكن !

ثم راح الشيخ يشرح له عقيدة العشيرة الروحية ، قائلاً :

ــ اعلم يا ولدى أن الهنا الاكبر نيهالك ، هو إله السموات وخالق الكون ومنسقه ، ومرسل المطر من أجل ارتواء الانسان والحيوان والزرع ، وعليك التقرب إليه بالقرابين وبالسلوك الحسن . راقبتك منذ مقدمك فوجدتك طيباً محباً للخير كريماً شهماً نقى السريرة ، تكره النميمة والكذب والسرقة والزنا ، والهنا لا يريد من البشر أكثر من ذلك ، ولهذا أحببتك وجعلتك ابنى ، وأريدك كذلك ان تحترم « جوك » ذلك الذى تتجمع عنده أرواح أسلافنا الأطهار [١] .

وبعد أن أكمل له الشرح والتلقين نهض واصطحبه إلى الهيكل القريب من بيته ، فوجد أمامه فرع شجرة كبيراً مغروساً فى الأرض ، وسمح له بأن يقدم ذبيحة جدياً ، ضحوا به بوساطة رمح الهيكل المخصص لهذا ، ثم بقروا بطنه ودفنوا محتويات الاحشاء والدماء فى حفرة أسفل الفرع المغروس ، وطهوا لحمه وأكلوه ، ثم ألقوا العظام سليمة إلى أقرب نهر . وصار إدريس أو أبوت شديــد التدين يقدس الشعائر الروحية لعشيرته ، ووالــده بالتبنى يدربه ويعلمه ويهذبه ليصبح وريثه فى حمل الرمح المقدس والزعامة وخليفته فى أداء طقوس جلب الأمطار .

مع أوائل العام جــاء الجفاف بعد انقطاع الامطار ، حتى أن الحشائش النامية بدأت تيبس ، والأرض تجف وتتشقق شقوقاً عميقة من شدة الحر ،

---

(١) يؤمن الدنكا بإله سماوى واحد يسمونه نيهالك ، وتذكرنا صلواتهم بصلوات اخناتون أول الموحديــن . وشعب الدنكا معروف عنه التقى والورع .

فبدأت العشيرة هجرتها الموسمية إلى مجارى الأنهار مع صلاح الأرض للمسير باختفاء المستنقعات والأوحال . لهذا أخذ حتحوت والشاطر وهادى يعدون للعودة إلى أهاليهم ، لكن سلطان دارفور محمد فضل كان لا يزال ينشر جواسيسه على جميع طرق كردفان المؤدية إلى مجرى النهر ، فسد بذلك عليهم جميع السبل والدروب المؤدية إلى مصر المحروسة ، وهو مؤمن ان هادى ما جاء ألا ليقتله ببندقيته انتقاما لمقتل أخيه زيادى على يد عبد الرحمن الرشيـد ! . فصار لزاما عليهم البقاء ، لأن الرحيل فيه نهايتهم ، أما التخفى فمحال بسبب البضائع الكثيرة التى معهم ، والتى تشكل حمولة قافلة لا يمكن الأسراع بها أو إخفاءها عن عيون العسس .

لهذا أمضوا شهور الجفاف ثم عادوا مع العشيرة إلى القرية ، حيث بدأت الأمطار تهطل مدرارا والمستنقعات والطين تحدد إقامتهم . حتى العام التالى لم يكن محمد فضل قد فقد الأمل فى الإمساك بهم ، وكما أن له جواسيسه كان للدنكا عيونهم المبثة . وكان أدريس قد أنجب ولدا أسماه حتحوت فصار أسمه حتحوت بن أبوت ، ووعد الشاطر أن يكون أسم الولد الثانى على أسمه ، فأنجبت زوجته مع موسم الجفاف التالى بنتا ، فداعبه قائلا :

ـ لا تحزن ، سأسميها على أسم محبوبتك زهرة .

فاحمر وجهه وزاد شوقه إلى ابنة الأصول التى أحبها منذ سعد برؤيتها ، لكن الهواجس هاجته وقال :

ـ تغربنا طويلاً . من المؤكد أنها تزوجت . وأن الأهل يئسوا من عودتنا أحياء .

سارعوا بتغيير الموضوع . وأن كان شوقهم إلى الأوطان وانقطاع الطرق

إليها جعلا أيامهم شهوراً من الملل . كانوا أيضاً فى شغف إلى معرفة ما تم بين إبراهيم بك والبرديسى والألفى والألبانى محمد على وعمر مكرم . كان المكتوب أن المنتصر من بين هؤلاء سوف يعترض خط حياته خطى حياة الشاطر وحتحوت ، لكنهما لا يعرفان هذا لأنه مازال فى بطن الغيب .

طالت إقامتهم فى بلاد الدنكا ، فضاقوا بحياة الهدوء والركود ، وحنوا إلى رؤية بلاد الأسود . تجادلوا مع ادريس كثيراً ، حتى توجه إلى والده بالتبنى الرمح المقدس ، وسأله عن منابع النيل ، فأجاب :

ـ كلنا نعرفها . من بحيرة اكروى ، بحيرة واسعة جداً ، على مسيرة عشرين أو ثلاثين يوماً .

ـ ألا ينبع من جبال القمر ؟ وهل توجد أصلاً جبال القمر ؟

ـ تجدها عند بحيرة لوتا نزيجى ، وهى كبيرة لكنها ربع بحيرة اكروى تقريباً . اكروى لا مثيل لها ، منها تتجه مياه النيل إلى بحر الجبل الذى هو جزء من النيل المبارك . مثل بحر الغزال القريب منا[1] .

ـ فهل بإمكانى الذهاب إليها مع أصحابى ؟

فكر الرمح المقدس ملياً وقال :

ـ الطريق شاق وعر ، كله مخاطر ، به حيات تبتلع الانسان ، ووحوش وقبائل غير صديقة !

فلما لاحظ ملل ضيوفه جهز لهم لوازم الرحلة ، ودقت طبول القرية تبلغ

(١) بحيرة اكروى : الاسم الأصلى لبحيرة فكتوريا . والبرت أصلها : لوتا نزيجى .

القبائل التالية بأمرهم . كما أرفق معهم الساحر الطبيب ، الذى يفهم فى الأعشاب الشافية للأمراض واللدغات ، وعدداً من أشجع رجاله وأعلمهم بالطرق ، ساروا وصعدوا وهبطوا . انحرفوا يميناً ويساراً . مخترقين منطقة السافانا الشاسعة . كلما توغلوا جنوباً زاد ارتفاع الحشائش حتى علت هاماتهم بمقدار أطوالهم ، تتخللها أشجار السنط . كلما أوغلوا فى فصل الجفاف الرهيب تعالت سحابات الدخان من الأشجار والأعشاب . مع هبوب الريح امتلأ الفضاء بخليط الأتربة والدخان . شعروا بالاختناق ، واقتلعت الرياح أعواد البوص والبردى .

ومن حين لآخر يشعرون أنهم مراقبون من الأهالى المندسين بين الأفرع أو أعلى الأشجار . والعشائر دائمو الترحال يصيدون الأسماك بالحراب من الجداول الضحلة . والأنهار تختفى فى المستنقعات ، يختفى مجراها ليظهر من جديد . وقائدهم الدنكاوى يتجنب الاقتراب من القبائل المعادية ، يلتفت بعيداً عنها . ان سمع لغة الطبول وعرف وقوع حرب بين عشيرتين انحرف بمساره بعيداً عن أرض المعارك . أراهم أشجاراً تشبه الصبار ، وحذرهم منها لأن أوراقها سامة ، والأهالى يضعون عصارتها فوق السهام والرماح حتى تتشبع بالسم ، وبهذا تكون الإصابة قاتلة من الجرح والسم معاً ، ولا علاج لسمها .

ثم مروا بقبائل رجالها شجعان ، يمارسون عادة الوشم وتصفيف الشعر واستخراج الحديد من باطن الجبل ، يصنعون ثيابهم من أوراق الأشجار وأنسجتها ، يأكلون النمل الذى تجمعه النساء لعدم وجود مواش لديهم بعد أن قضت عليها أسراب الذباب القاتل . كما مروا بقبائل يستتر أفرادها بأوراق الأشجار العريضة ، والنساء يشاركن الرجال الرقص البديع ، مهر

المرأة عندهم عدة سكاكين . ثم مروا بقبيلة الأكا ورجالها الأشداء الذين يصطادون الأفيال والبقر الوحشى ، ولديهم من الموز الشىء الكثير وتعيش عليه القردة .

طالت المسافات وزادت الأسابيع ، إلى أن دخلوا هضبة البحيرات الاستوائية ، وعاد المطر معظم الأوقات . عندما اعتلوها بدت وكأنها أرض سهلية بسبب غلبة انبساط الأرض . جدوا فى السير إلى أن تراءت لهم عن بعد سلسلة جبال القمر الساحرة ، فإذا قممها تشق السحب وتتوارى فيها . ظلوا متجهين إليها وعند الغروب كانوا مازالوا بعيدين عنها . لاحت القمة مغطاة بالثلوج التى تلونت بحمرة المغيب ، فبدت كجمرة كبيرة متقدة ، دهشوا لوجود الجليد فى القمة الشاهقة والحرارة الشديدة عند السفح حيث يقفون . لكن المشهد سحرهم مثل حلم بديع . نسوا المشاق ، وأيقن حتحوت أن من رأى ليس كمن سمع ، فأين هذا المنظر الخلاب من حكايات إدريس عنه وهم بالقاهرة . حدثهم عن ذهب موفور وعن صندوق مسحور مخبأ فى مكان سرى ، من جلس بداخله ونظر إلى الشرق رأى بلاد المشرق جميعها بملوكها وناسها ودوابها . فان نظر إلى الغرب شاهد بلاد الغرب ، وهذا الصندوق مرصود بطلسم عبارة عن انسان نحاسى يقتل من يقترب منه !

بعد المبيت عاودوا السير فى خفة ونشاط . وقريب منهم النعام بين الأعشاب ، وقطيع من الظباء يلهو فى مرح . ثم عبروا غابة أرعبتهم بسكونها المطبق ، حتى إن الصمت وش فى آذانهم . انفرجت عن سهول فسيحة مترامية ، وبللت الأمطار شعرهم وأبدانهم فأنعشتهم . عبق الهواء بعطر الخضرة الفواحة وزادت الحشائش مع تقدمهم الحثيث ، إلى أن وقفوا

مذهولين وهم يرون اكروى، أعظم البحيرات، مساحة شاسعة من الماء العذب، لا يصل مدى البصر إلى آخرها، ترصعها جزر كثيرة خضراء، هادئة بديعة أخاذة. يحف بها سواحل رملية صفراء، وسفوح تكسوها غابات خضراء تنحدر إلى الشاطئ، وسطح الماء العجيب يتبدل لونه حسب حال السماء، فرأوا البحيرة أولا سمراء اللون، وأحيانا فضية ساحرة، فلما انقطع المطر وانقشعت الغيوم لفترة بدت فى وضح الشمس زرقاء. وصارت النسمات لطيفة، فظهرت الطيور ترفرف بأجنحتها على ارتفاع قليل من سطح الماء، بينما مجموعة من الخيول تخوض البحيرة عابثة لاهية قرب الشاطئ.

وقت الغروب تألقت السماء والبحيرة بفيض من أضواء بديعة، فى مشهد خلاب لم يروا له شبيهاً، إرتبط بفرقعات متواصلة من نمو البردى وارتطام المويجات بأعواد البوص وصرخات الطيور. ثم إذا بالشمس تختفى فى غروب مفاجئ، وكأن قرصها لم يكن هناك.

بعد قليل ومع نسمات المساء علت من القرى البعيدة دقات الطبول يرقص عليها الأهالى حتى ينهكوا، وقد شربوا جعة البوصه فيستلقون نياما من حول النيران التى ألقت بأنوارها إلى ما حولهم

وقال الخبير:

ـ من هنا يبدأ النيل المبارك، وكما ترون فكل شئ جميل هنا وبديع، عدا الحكام. ولذلك سوف نبيت فى العراء، ولن ندخل البلاد أو القرى لأنها خطر على أرواحنا.

فسأله أدريس عن مخرج النيل من البحيرة العظيمه العذبة، فقال:

ـ غدا نراه ثم نعود إلى ديارنا، أخاف الحكام هنا ولا أخاف وحوش الغاب أو تنين البر!

عند الفجر رأوا أول النيل، ليس متسعا جدا، يمضى بين ضفاف عالية معشوشبة، تزركشه جزر صغيرة وصخور والتماسيح على شاطئه، وأفراس النهر تغتسل، ومن بين الأعشاب يرد الماء قطعان البقر الوحشى لترتوى.

وبذلك يكون حنحوت والشاطر وهادى هم أول من رأوا منبع النيل من غير أهل المنطقة، لكن التاريخ لا يذكر ذلك!

حاد بهم الطريق بحيث حجب تل صغير رؤية البحيرة، ومضوا بين السافانا العالية، والطيور تراقبهم، بيضاء تحف بأجنحتها حواش رقيقة من ريش أسود، وطيور يتألق ريشها بزرقة زاهية تتراءى فيها ألوان قوس قزح، وأنواع وأشكال صنف الهدهد والغراب الزيتونى والنسر صياد السمك، وأصناف من أشجار التين والكافور والموز والنخيل وزهور اللوتس الجميلة. وفى الأسماع أصوات الطيور والحيوانات وحفيف الأشجار، بينما خرير الماء فى النهر المختفى عن الأعين يعلو كلما تقدموا، حتى بدأ يطغى على باقى الأصوات، لينقلب هديرا. ثم شعروا بسحابة ندية من رذاذ تفرش أديم الوادى، أصابتهم بشهقات الانتعاش، رغم أن الهدير كان أهول ما يكون!

فلما خرجوا من بين الأدغال إذا الرذاذ المتطاير يصبح مطرا ناعما مستمرا، يحمله الهواء إلى غابة الأعشاب الخضراء الطرية التى قدموا منها، والهول يتزايد، خلال هذا الرذاذ تندفع أسراب من طيور صغيرة سوداء ذات أجنحة مدببة مائلة إلى الحمرة، تندفع سابحة فى الرذاذ لتحط فوق الصخور الزلقه عند الحافة التى تنصب فيها المياه أعنف انصبابها ثم تطير غير آبهة،

ومجرى النهر يكاد لا يرى من الرذاذ الأبيض المتساقط حول المياه الهادرة مثل الرعد مكونة أعظم شلالات النيل المبارك ، وقد ارتسم فيها قوس قزح يكاد يكون كامل الاستدارة . ومئات الأسماك العابرة تقفز فى الشلال بكل قواها ، والصيادون من الاهالى يسعون فى الزوارق ويستقرون على الصخور التى تعترض الاندفاع ليصيدوا الاسماك بالشص وأعواد ذات حواف مدببة . بينما أفراس النهر والتماسيح تستلقى عند الحوافى فى خمول . وفوق جميع ذلك مهرجان واحتفال ألوان ، حيث جميع أشكال قوس قزح فى الرذاذ الدائم ، على هيئة قوس أو خطوط مستقيمة أو دوائر ، بألوان الدنيا السبعة فى تناغم وتمازج ، أحدثت مع الرذاذ والهدير المتساقط تأثيرا مخدرا فى الرجال ، وأصوات الانحدار تتغير من برهة إلى أخرى ، ولا تثبت نغماتها على حال . فكاد النعاس يغلب عليهم ، لولا أن الخبير أمر بالابتعاد .

فواصلوا العودة صامتين ، وقال حنحوت للشاطر وأدريس :

ــ بهذا تكتمل نبوءة ضاربة الودع الغجرية ، وتتم آخر العلامات المرتبطة بحياتي وأنا بعد جنين فى بطن أمى : خسوف القمر وكسوف الشمس ومولد بقرة برأسين تأكل بواحد وتجتر بالآخر ، ثم معامع الشمال وتسلط الفأر على القط بالقاهرة ، وهأنذا تغربت جنوبا ولم أكن أريد ، ورأيت أشكال قوس قزح والطيور فى رذاذ الماء ، أى جمال وسحر هذا !

تنهد مرتاحا :

ــ آن الأوان للعودة إلى مصر المحروسة ، ترى ما حالها الآن ومن انتصر ، البرديس أم الألفى أم محمد على ؟

فقال الشاطر :

ــ لا فرق بينهم ، سوف نعود إلى مصر ولا نغادرها أيا كان المنتصر ، ولا أفهم : لماذا لا يفوز السيد عمر مكرم الأسيوطى وهو منا ؟ !

انتعشت ملامحهما لقرب العودة إلى الأهل ، لكنهما يجهلان المخبوء فى بطن الغيب . كان جميع ما مروا به من أهوال ليس إلا نفحة من لهيب ، آهة من نحيب ، قطرة فى بحر الحكايات ، صخرة فى جبل الروايات . ومصائر الناس تتلاقى تتباعد ، تتشابك تتفارق ، تتماسك تتشتت . وخطى حياتهما ارتبطا بحياة المتصارعين فى القاهرة . قال حنحوت للشاطر :

ــ كم أحن إلى أسرتى .. إلى حضن أمى !

ــ لنرسل أشواقنا إليهم مع هذه المياه الذاهبة إلى ديار الأحباب .

تأمل حنحوت شلالات المنبع ، مياهها الناصعة وموجها الهادر البارق . حملها أشواقه هامسا :

ــ السلام أمانة يا مياه ، إلى أبى رضوان وأمى أم الخير ، أخى الريس مرسى وابنته زهرة ، السلام أمانة يا مياه إلى جميع الأحباب ، خذيه إليهم وأنت تروين عطشهم .

انحدرت المياه هادرة مسرعة إلى المجرى . جرت الأيام والليالى ، الأسابيع والشهور . اختلطت بمياه النيل الأزرق الهابط من جبال الأحباش .. اندفعت على مهل حتى اجتازت أراضى الشايقية . عبرت الجنادل وبلاد النوبة . دخلت مصر . إندفعت حتى مدينة ملوى . حيث كان الريس مرسى لاجئا بمركبه ، هاربا من حرب جديدة بين المماليك والأتراك فى مدينة

المنيا، شرب رشفة ماء، لسبب لا يدريه تذكر أخاه حنحوت. شعر بالأسى، ذهب المسكين يبحث عنه وما عاد. استبعد أن يكون حيا. تأسى عليه وعلى صاحبه الشاطر.

فى دارها الجديد بملوى شربت ابنه زهرة وارنوت. تذكرت أول ما تذكرت الشاطر. كان حبها له مثل الحلم القصير، راح وراح عمها حنحوت. ذرفت دمعتين، واحدة عليه والأخرى على عمها. كانت قد تزوجت من بكر ابن شيخ الأشمونين الطيب. تزوجته عن طيب خاطر بعد أن طالت غيبة الشاطر.

تهادت المياه حتى بر المنيا. تروي الأرض والدواب والناس. شرب منها الأهالى والمماليك الأنجاس. تسربت فى جدول صغير إلى قرية تلة. شربت منها طيور وأرانب أم الخير، وزوجها رضوان، وجميع الأهل والجيران. نظرت إلى جهة الشرق. لم تيأس ولن تيأس. إن عاد ابنها حنحوت فسوف يأتى من الشرق مثل الشمس. شربت بعض الماء ثم تهلت كثيراً. تذكرته قبل الشرب. وفى أثنائه وبعده. على بالها دائماً. وقلبها يحدثها أنه عائد بحكمة الشيوخ كما قالت الغجرية.

تهادت المياه المباركة إلى القاهرة، تروى سكانها المقهورين، وأراذل العساكر، من حثالات الأجناس وبهائمهم. تعكرت من جورهم. روت أيضاً المشايخ، ونقيب الأشراف عمر مكرم. كان حكم مصر بين يديه وأهداه إلى محمد على، ليصبح صاحب الأمر والنهى والأخذ والعطاء وقطع الرقاب. وحنحوت والشاطر لا يعلمان ذلك.

(١١)

العداء والمودة فى رحلة العودة

فى طريق العودة من أعالى النيل وبحيرة اكروى العظيمة تداعى هادى مريضاً. انزعج حنحوت والشاطر. فى البداية شعر بجفاف حلقه. شرب كثيراً فتحول الجفاف إلى تشقق، كأن فى حلقومه عشرات الإبر. أحضر إدريس جرابه الذى هرب به من عند الفرنسيس وبه قوارير لأدوية فرنسية عددها سبع. أخفق فى معرفة ما يصلح لصديقه. فشل الشاطر فى قراءة المكتوب عليها بلغة الفرنسيس. جربوا بعضاً منها فازداد عذاب هادى. عندئذ تقدم الساحر الطبيب وعاين المريض. اختفى فى الأدغال وعاد ببعض الأعشاب، وضعها فى ماء دافىء، جعله يشرب منه دون جدوى!

تعطلت رحلة العودة ومكثوا فى مكانهم لا يرحلون حتى شك فيهم أهالى المنطقة، فنصح الخبير بعمل نقالة لحمل العليل ومواصلة السير قبل التعرض للأخطار. بعد سير طويل بطىء وصلوا القرية ورأت حماة ادريس أنه مهموم لمرض صاحبه. تحاملت على نفسها وسارت إلى هادى. نظرت فى عينيه ثم تحسست إبطيه وقالت:

ـ هذا أمر سهل، سيشفى بفضل ربنا!

بعد ساعة جاءته بنوع من المأكول أضافت إليه بعض النباتات المرة وجعلته يأكل. أقل من أسبوع كان قد شفى. فرحوا ومكثوا يجهزون لرحلة

العودة وقد تأكدوا أن عساكر السلطان محمد فضل أهملوا أمرهم . بينما هم كذلك مات الزعيم حامل الرمح المقدس فأجلوا الرحيل ، لأن صاحبهم إدريس الذى صار اسمه آبوت ورثه ، بعد أن تعلم منه أسرار الطقوس وكيفية الدعاء لاستجلاب الأمطار والتقرب إلى الإله نهيالك . صار هو الزعيم المحبوب والرمح المقدس ، رزين راجح الرأى بسبب ما مر به من أحداث وترحال ، وما عرفه عندما كان بالقاهرة من الفرنسيس وحيلهم الصناعية ، والمماليك ودسائسهم ، ثم فى الصعيد والنوبة ، وما تدرب عليه من فنون الركوب ورمى الرماح عند عرب الشايقية ، وما وعيه من دسائس أبناء سلاطين دارفور ، فكان بذلك هو الابن البار الذى عاد لأهله وأحبوه .

بعد مرور زمن الحداد والجزم بأن سلطان الفور اعتقد فى فنائهم ، تجهزوا للرحيل . حزموا متاعهم وبضائعهم التى غنموها بالحلال عندما عملوا بالبيع والشراء فى الفاشر ثم فى بلاد الدنكا .

قرر إدريس اصطحابهم حتى حلفاية ملتقى النيل الأبيض بالأزرق آباى الكبير . فتحركوا يقودهم أعظم خبراء الطريق فى قافلة طويلة يحرسها دنكاويون بواسل أوفياء طوال القامة والهامة ، تحركوا شمالاً بانحراف ناحية الشرق، عبروا بحر الغزال وواصلوا السير حتى دخلوا أرض كردفان . استاءوا وقلقوا عندما علموا أنها خاضعة لدارفور !

قال الخبير : أن السلطان تيراب هو الذى أخضعها فى حرب المسبعات . قال أنه فى سالف الزمان حكم دارفور سلطان اسمه سليمان ، وحكم كردفان أخوه المسبع . استمر الأمر على ذلك فى ابنائها وأحفادهما حتى زمن السلطان تيراب ، يقابله على كردفان السلطان هاشم المسبعاوى الذى طمع

فى أخذ دارفور وراح يتعدى على حدودها . حذره تيراب مرارا . رآه لا يرتدع فتوجه إليه بجيشه وجميع أولاد أبيه كباراً وصغاراً ليخوض بهم الحروب ويتخلص منهم وتخلو الولاية لابنه اسحاق . ظل سائراً صوب كردفان يجمع عربان البادية ويستخدم دوابهم فى حمل الزاد والعتاد ، حتى صار فى جيش كثيف على هيئة مربع هائل زاحف . يتقدمه الدادات وهم العبيد الذين تربوا معه كأنهم أخوته ، تقدموا بالفئوس لقطع الأشواك والأشجار وتمهيد طريق الجيش . فى قلب المربع الموظفون الملكيون ثم السلطان ، يسبقه حاملو النبابيت ويتبعه الكوركوا حاملو الحراب . عن يمينه الوزراء والمكوك . عن يساره أولاده وأولاد السلاطين السابقين ، ثم حريمه يحيط بهم الأغوات على رأسهم « أبو شيخ » ثم عربان البادية بالمؤن والعتاد !

قال الخبير :

ـ إزاء هذا الجيش الرهيب تفرق معظم رجال المسبعاوى عنه . فهرب بعائلته وحاشيته واستجار بملك الفنج حاكم سنار . لكن تيراب طارده حتى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق . هناك التحم بجيش الفنج ودحرهم وغنم نحاسهم المسمى بالمنصورة ، من فرط فرحته بها طلاها بالذهب من الداخل والخارج ، ومازالت عندهم حتى الآن بالفاشر دليلاً على بأسهم . لم يمنعه عن غزو سنار إلا اخفاقه فى عبور النيل !

شكر هادى الخبير على حكايته ، شاعراً بالحزن وقد تذكر أخاه زيادى الذى مات بسبب قتله اسحاق بن تيراب . وظلوا سائرين فى أرض كردفان حتى دخلوا العاصمة الأبيض . وجدوا بيوتها من الطين والقش . بها عدد كبير من البقارة فوق أبقارهم بسراويل البفتة أو الدمور ذات الأكمام القصيرة

الواسعة، كاشفي الرؤوس حالقي الشعور على عكس أهالي دارفور والنوبة، وعدد من الكبابيش رعاة الكباش بشيلان قطنية بيضاء ملفوفة حول الأكتاف والرؤوس. وكانت سوق الأبيض عامرة بالناس من كل مكان قريب، وبضائع من حراب وسيوف ودروع مصنوعة من جلد الخرتيت السميك، وحبال الليف والحبوب والفاكهة والخضر والمطاط، والزراف وأنواع الماشية والجلود وريش النعام.

شقوا زحام السوق، الجميع يرمقونهم في فضول. يرون أسلحة هادي وأصحابه فيفسحون الطريق متعجبين من خلو القافلة من العبيد!

كان يحكم كردفان مقدوم من طرف محمد فضل، يفرض أتاوات باهظة على القوافل. سمع بأمرهم فخرج إليهم في رجاله مثيراً غباراً كثيفاً. تنبهوا إليه وظنوه يسعى في أثرهم للأسباب القديمة. لذلك أسرعوا حتى صار الطريق بين صخور.. اختبأ الشاطر وحنحوت وإدريس بالبنادق، بينما وقف هادي أمام القافلة. فلما وصل المقدوم وجده غير هياب. رأى ما هو فيه من حسن مظهر فتبلبلت أفكاره. ترجل من فوق جواده فحاكاه هادي. بينما أصحابه الثلاثة متأهبون بالبنادق من مكامنهم بين الصخور. سأله المقدوم:

ـ من أنتم؟ من أين وإلى أين؟

ـ تجار مصريون، كنا في دارفور ضيوفاً على قمر السلاطين السلطان محمد فضل، وعائدون إلى مصر عن طريق شندي والنيل. ولكن من أنت؟

ـ مقدوم كردفان، ان كنتم فعلاً من ضيوف سيدي السلطان محمد فضل فلابد أنه أعطاكم فرماناً لي كي أرحب بكم.

ـ لم يعطنا.

ـ إذن فأنتم من جواسيس باشا مصر محمد علي.

ـ نحن تجار نبيع ونشتري حسب شرع الله.

ـ سآخذ سلاحكم هذا.

على الفور سمع قعقعة بنادق آتية من عند الصخور من ثلاثة اتجاهات، فتلفت حوله ورأى الشاطر شاهراً بندقيته وفي جانبيه غدارتين وعلى كتفه بندقية أخرى وكأنه قلعة، وبالمثل حنحوت وإدريس، عندئذ لجأ إلى الملاينة:

ـ تنوون الرحيل إذن في سلام!

ـ نرحل مع أول قافلة متجهة إلى حلفاية.

ـ القوافل لا ترحل إلا بإذني.

ـ سوف ننتظر.

ـ تدفعون الأتاوة حسب تقديري.

ـ نقدم الهدايا لك حسب تقديرنا.

غضب وأشار إلى رجاله فشهروا الرماح نحو هادي، عندئذ انطلقت رصاصة أردت جواده قتيلاً، فانزعج الرجال وتراجعوا، أما هو فقد خرج شرار الغضب من عينيه، صاح الشاطر فيه:

ـ عليك أن تكون سعيداً.

ـ كيف وفرسي صريع؟!

ـ لأن الرصاصة كان من الممكن أن تكون فى رأسك .

هادنه هادى قائلاً :

ـ نعوضك عن فرسك بإذن الله ، وعن تعبك ومجيئك حتى هنا ، نحن فى ضيافتك ، سمعنا عنك حسن استضافة الغرباء .

ثم أهداه هدايا قيمة تشترى ثلاثة أفراس ، من حرير وخرز ومسابح وأشياء جميلة لا تهدى إلا للملوك ، ففرح بها لكن عينيه لمعتا فى طمع وهو يدعوهم على الغداء عنده فى اليوم التالى ، ثم استدار عائداً على فرس أحد أعوانه الذى ركض وراءه .

بعد انطلاقه قلبوا أمر الدعوة فيما بينهم وقرروا رفضها خوفاً من أن يدس السم لهم فى الطعام . وراحوا يتناوبون الحراسة ، وكلما سمعوا صوتاً اطلقوا رصاصة صوب مصدره فيفر من يراقبهم ، حتى ناموا آمنين من غير ان يغفلوا الحراسة .

فى اليوم التالى أبلغوا اعتذارهم لمندوب المقدوم فاغتاظ ، وأرسل هجيناً من طرفه إلى السلطان محمد فضل فى دارفور يستشيره ، على أساس ان يعوقهم ويمنعهم من الرحيل ، فلما بلغهم ذلك قرروا الرحيل دون انتظار قافلة ، ونجح خبيرهم الدنكاوى فى العثور لهم على خبير كردفانى يقودهم إلى حلفاية ..

فودعوا إدريس بالاحضان والدموع ، وزودوه بمزيد من البارود والبنادق، فيمم وجهه صوب الجنوب ليعود إلى عشيرته ، يحيطه حرسه الأشداء الأوفياء يحمونه من أى غدر ، وسوف يصل سالماً إلى طفليه حنحوت والشاطر وابنته

زهرة ، والذين سوف يحملون أسماء أخرى فى كل مرحلة من مراحل أعمارهم، وسوف ينجب المزيد من الأولاد والبنات بحيث تقوى عزوته .

أما أصحابه فقد ساروا نحو حلفاية مع النيل الأبيض من غير أن يدفعوا أتاوة للمتسلم ، وكان خبيرهم الكردفانى يكرهه لأنه يعطل أشغالهم ، إذ تكون القافلة جاهزة على أهبة الرحيل ولا يعطيها الاذن بالتحرك ، ويظل يماطل أسبوعاً بعد أسبوع كى يضطر أصحابها إلى رفع قيمة الاتاوة التى يدفعونها له ، وقد تمر ثلاثة أشهر دون خروج قافلة كردفانية واحدة ، وفى هذا تضييق على الخبراء ومؤجرى الجمال والدواب فى معيشتهم !

واصلوا السير أياماً وليالى ، يسترجون قرب المياه وفى المناطق المكشوفة حتى لا يفاجئهم قطاع الطرق ، إلى أن وصلوا حلفاية ، فوجدوها واسعة حسنة المظهر ، بيوتها من اللبن ، تبعد عن النيل قليلاً ، ويأكل سكانها التماسيح وفرسان النهر ان استطاعوا صيدها ، وذاقوا لحم التمساح فوجدوا لونه مائل إلى البياض يقرب من لون لحم العجل الصغير ، فى رائحته أثر من رائحة السمك .

ذهلوا من التقاء النيل الأبيض النابع من بحيرة اكروى العظيمة مع النيل الأزرق أباى الكبير الآتى من جبال الاحباش ، والذى يزود النيل المبارك بالمياه وقت الفيضان بتيار قوى ، كان فى مداه عندما وصلوا ، فإذا بالنيل الأبيض يبدو وكأنه متوقف عن الجريان وقد أخلى الطريق للنهر المتدفق بالمياه وأطنان الطمى إلى أرض مصر المحروسة ، لا يهدأ إلا فى الشتاء ، وعندئذ يأتى دور الأبيض ، فيدخل النهران معاً قرب حلفاية ويمضيان جنباً إلى جنب ، وخط فاصل يظل ظاهراً على سطح الماء مسافة كبيرة .

رأوا أن النيل الأبيض ليس أبيض تماماً ، وإنما بياضه مشوب بالطين ، أما الأزرق فلم تظهر زرقته إلا دقائق عند الفجر فى أول المساء ، لأنه فى الغالب أقرب إلى الاخضرار الضارب إلى حمرة الطمى ..

كان الجو حاراً بحيث إذا تحركوا خفيفاً تصببوا عرقاً ، وإذا أسرعوا صار العرق غزيراً ، هبطت قوتهم وانتاب بعضهم ميل إلى الاغماء وتخاذل فى الصوت . وكان حنحوت أكثر تحملاً لأنه من الصعيد الحار ، لكن الشاطر شعر فى بعض الأحيان أن رأسه زاد حجماً ، وأن وزنه خف وكأنه سابح فى الهواء . على الفور جعله الخبير يستلقى نائماً دون حراك ، ودهن جسمه بالدهن ، وأعطاه ماء غريب الطعم كان السبب فى نجاته من موت أكيد .

بعد أيام الراحة توجهوا شمالاً ، فوجدوا أن صيت محمد على يملأ جميع الأرجاء ، جميع الناس يذكرون اسمه بالرهبة ، وجميع المكوك يذكرونه بالريبة والخوف من أن يطمع فى ممالكهم ، وأنه ما إن ينتهى من حربه مع الوهابيين بالحجاز حتى يتجه جنوباً ، فكان الأهالى لا يرحبون إلا بالتجار المصريين الذين يعرفونهم من قديم الزمان ، أما القوافل الطارئة المدججة بالسلاح النارى فهى فى رأيهم تحمل جواسيس الباشا .

كانت هذه الفكرة أكبر سبب فيما لاقوه من مشاق ، لأن محمد على كان قد أرسل قافلة كبيرة قوية التسليح إلى سنار عاصمة الفنج وسائر الممالك الشمالية عدا بلاد الشايقية بحجة التجارة ، ومعها مندوب من قبله يحمل هدايا لا تقل قيمتها عن ثلاثة آلاف ريال ، ولم يكن ملك سنار لبقاً ، فقبلها وأعطاه مقابلها هدية تافهة إلى محمد على لا تزيد على ثمانين ريالاً بأسعار سنار ، ولم يأبه الباشا بذلك لأن مندوبه عاد إليه بتقرير مفصل عن المسالك

والدروب وعدد الجيوش وتسليحها الساذج ، كما أن هذا المندوب كان يحمل معه مدفعين صغيرين ، تعمد ان يكشف لملك سنار عن شيء من قوة تدميرهما ، وما أن بدأ بإطلاق النار وحدث الدوى الهائل حتى فر معظم الأهالى المتجمعين للفرجة ، وسقط كثيرون منهم على الأرض مستغيثين . وبعد ذلك ظل محمد على يرسل القوافل كل عدة شهور بحجة التجارة ، لذلك ظنوا قافلة هادى والشاطر وحنحوت موفدة للتجسس ، لم يبعد الخطر عنهم سوى بنادقهم النارية الواضحة للعيان ، وشدة يقظتهم .

لهذا سارعوا قدر طاقتهم بالرحيل شمالاً إلى شندى ، وهم فى فضول لمعرفة ماذا يغرى محمد على بها وبغيرها من ممالك السودان ، فوجدوا بها عدة احياء تفصلها عن بعضها بعضا ساحات فسيحة وأسواق ، وتشمل حوالى ألف دار ، مبثثة فوق السهل فى فوضى ، وتبعد عن النيل المبارك بمسيرة نصف ساعة ، أحسوا منذ وصولهم أنهم مراقبون فى جميع خطواتهم ، فأدركوا أن شبهة التجسس لحساب محمد على قد سبقتهم !!

سمعوا عن وجود المماليك بدنقلة ، تعجبوا ، ظن هادى أن محمد على أرسلهم تمهيداً لاحتلال السودان .

ومن عجيب ما سمعوه ان شندى كانت تحكمها امرأة من عشيرة « ود عجيب » حكام سنار ، يسمونها « ستنا » تحكم من وراء ستار مثل ملوك سنار ، ومن رآها وصفها بأنها طويلة القامة جميلة الشكل ذات شفتين شديدتى الحمرة ، وأسنان بديعة ، وعينين مذهلتين ، وتضع على رأسها تاجاً فاخراً من الذهب ، ولها ضفيرة تصل إلى ما تحت خاصرتها ، وأنها أم « نمر » الملك الحالى ، الذى يدفع الجزية كل عدة سنوات لسلطان الفنج فى سنار ،

وكان فى حرب سجال مع عرب الشايقية حتى وفد فلول المماليك إلى دنقلة بعد محمد على ، فانشغل الشايقية بقتالهم وتركوا المك نمر ، ونجح المماليك فى احتلال دنقلة وانتزاعها من براثنهم ومازالوا فى قتال معهم !

سمعوا عن أكوام من قواعد تماثيل فرعونية مهشمة وحطام مسلات منقوشة منثورة فى الصحراء شرق شندى وعشرات الأهرامات .. لكنهم لم يشاهدوها ، وطافوا بالمدينة الحافلة بالعديد من أهالى سنار وكردفان ومن عشيرة نمر وغيرهم ، وإن كان أغلب السكان من دنقلة ويشغلون حياً كاملاً ، لكنهم يشتهرون بالبخل وتعاطى الربا . نزلوا فى دار أحدهم بالأجر الباهظ ، بعد أن أحضر لهم جارية لتعد لهم الطعام وتنظف المكان . لم يدفعوا اتاوة للمك نمر ، لأنه لا يأخذها من القوافل ، وإنما يقبل الهدايا ، وهذا سبب رواج التجارة فى مملكته ، فصارت شندى تسمى البوابة ، تفد إليها القوافل من الغرب من دارفور وكردفان ، والجنوب من سنار والحبشة ، والشرق من ميناء سواكن على البحر الأحمر وبلاد اليمن والهند ، والشمال من مصر ، ربما كان رواج التجارة من أسباب طمع محمد على ، ان كان فعلاً يطمع فى احتلال السودان !

خرجوا يطوفون بالبلدة ، فوجدوها عامرة بمشارب البوظة وبيوت الخط ، ونساؤها يلبسن الاقراط الذهبية فى أنوفهن وآذانهن دليلا على الثراء ، وعندهم سوق يومى وآخر أسبوعى حافل يبيعون فيه التياتل الجبلية بقرونها الطوال المثنية حتى منتصف ظهرها ، والنعام وان كان ريشه يقل ثمنه عن الريش الذى احضروه معهم من دارفور.

تابعوا التجوال فى اليوم التالى ، بينما هم يعاينون البلدة إذا بالمك نمر يأتى فى أبهته وجلاله ، شاب طويل تبدو الكبرياء على ملامحه ، يمشى فى اختيال

المكوك ، مرتدياً زى المواكب وزى السلالة الملكية وهو جلد فهد ، وبجواره خادم يرفع فوق رأسه مظلة ، وأمامه نقارته ينقر عليها أحد عبيده . رآهم ولمح بنادقهم واكفهر وجهه لكنه تجاهلهم ، تبعوه عن بعد فى فضول ، حتى دخل قلعته على ضفاف النيل حيث السواقى تديرها الأبقار لتدفع المياه إلى الأراضى الزراعية المنتشرة !

كانت قلعة نمر مبنية من اللبن المطلى بلون الجير الأبيض ، وليست مثل قلعة مك عرب الشايقية المبنية من الأجر أو الحجارة ، لكنها البناية الوحيدة المشيدة من طابقين ، وقال لهم صاحب الدار الدنقلى الذى يسكنون عنده ان لنمر أسرة مطهمة بالصدف مثل أسرة المماليك عندما كانوا فى عزهم ، وله ثلاثة منازل أخرى فى كل منها هيئة حريم مستقلة ، يقضى فى كل منزل أسبوعين بترتيب لا يختل . وجيشه مكون من ثلثمائة فارس وأقل من عشرين بندقية بالية صدئة ، لكنه بهذه القوة يحكم ، وكثيراً ما شن بها حروبا على جيرانه عرب الشايقية ، لهذا فهم حنحوت والشاطر كيف أن مائتين وخمسين فقط من صعاليك المماليك الناجين من مذابح محمد على نجحوا فى فتح دنقلة وسيطروا عليها رغم مقاومة الدناقلة والشايقية مجتمعين . كما أنهما لاحظا أن مكوك السودان لا يختلفون فى شىء عن المماليك فى مصر مع فارق التسليح ، رغم أن نمر واسع الثراء من تجارة الرقيق ، وتأجير الجوارى قبل بيعهن بالليلة فى بيوت الخط فى شندى والقرى التابعة له !

عند الظهيرة اشتد القيظ وثار الغبار ، رغم ذلك نشطت الأسواق ، والسوق الكبير يتكون من ثلاثة صفوف من الأكواخ فى وسط المدينة ، وهو السوق الأسبوعى ويقام يومى الجمعة والسبت ، وفيه كل شىء من كل مكان ، جميع الصناعات المصرية والهندية ، توابل وخشب صندل ، حجر

الكحل والعقاقير والسيوف والسروج والمصنوعات الجلدية من كردفان ، ورق الكتابة وإن كان شحيحاً ، والخرز من البندقية بلاد الطليان ، والقماش والخزف والسلال بأنواعها ، والصابون المصري والقطن والملح وذهب الحبشة ، وقرود ونسانيس مدربة على القيام بالألعاب ، والأطباق الخشبية صناعة شندي ، وخيول دنقلة الشهيرة ، والجمال والدواب الأخرى ، وكل ما تشتهيه الأنفس !

وكل طائفة تبيع منفصلة ، من عرب أميل إلى البياض إلى أشد الزنوج سواداً . منهم من يرتدى العمائم والقفاطين والعباءات ومنهم من يمشى عارياً تماماً . وقال الشاطر لهادى :

ــ لعل محمد على طامع فى هذا الرواج !

ــ أظنه طامع فيما هو أكبر ، السودان ومنابع النيل والحبشة !

توقعوا أن يستدعيهم الملك نمر وقد رآهم لكنه لم يفعل . مع مجىء الليل شعروا بالملل وبالوقت لا يمر . توجهوا إلى مشرب الجعة . فى الطريق أعلن الشاطر عن شكه فى الجارية التى تخدمهم ، لماذا لا تكون مدسوسة عليهم من طرف نمر لمعرفة أخبارهم قبل أن يلقاهم ، مثلما فعل معهم أبو شيخ محمد كرا وأخوه باسى عوض الله عندما دسا عليهم العبد الذى ادعى الجهل باللغة العربية . شاركوه فى ظنه لأن كل شىء جائز عند الملوك حتى قتل العجائز !

لكن التجار فى المشرب كانوا متحفظين معهم لأنهم مصريون . كان هادى يريد معرفة أحوال الدروب التى سيسلكونها من شندى إلى أسوان . لم يلتفت إليه أحد من رؤساء القوافل ، الجميع فى صخب وضجيج ، والنساء

يتنقلن بين الجالسين ، وبعض العازفين يعزفون . أنزل هادى الشراب على حسابه للجالسين من حوله . فلما دارت الكئوس بالرؤوس انطلقت الألسن . لاموه لأنه لم يرسل الهدية المعتادة إلى الملك الذى يرتاب فيهم ، وهو إذا ارتاب فى إنسان يصبح لزاماً عليه إما مغادرة شندى سريعا وإما التعرض للاغتيال .

شعروا بالاكتئاب والقلق فنهضوا منصرفين تاركين السكارى يستمعون إلى الفرقة الموسيقية وعزف الطنبورة والمزمار والنقارة .

من طلعة اليوم التالى أرسلوا إلى الملك نمر هدية فاخرة من الحرير الهندى والمسابح وكميات من الصابون النادر . قبلها منهم عماله . ولم يطلب نمر مقابلتهم . فعادوا إلى السوق ، وكانت فى رواج أكثر من اليوم السابق بسبب وصول قافلة جديدة فى الليل أصحابها من حضرموت باليمن . جاءوا عن طريق سواكن على البحر الأحمر بالسلع الهندية من بخور وحرير وتبغ ، ليبيعوها ويشتروا بثمنها العبيد وجياد دنقلة الشهيرة .

كان العبيد المعروضون للبيع يقفون فى مهانة ، والتجار الأنجاس يذكرون محاسنهم ، الأحباش أغلاهم سعراً خصوصاً المرأة لجمالها وحرارة جسمها عند الجماع وثباتها على المودة والولاء لسيدها . للشارى أن يجرب العبد أو الجارية يوماً واحداً ، ومن حقه أن يعيد البضاعة إن اكتشف عيباً فيها مثل مرض قديم أو الشخير أثناء النوم .

أما الخصيان فتجارتهم ضئيلة ، وهم سلعة غالية ، ومالك الخصى يعتبر ثرياً جداً لديه نساء عديدات فى حريمه ، وسعة الثراء تجذب شهوة محمد على للاستيلاء عليها ، لهذا قل الطلب عليهم !

سمعوا كذلك عن محمد على أنه أمر منذ سنوات بخصى مائتين من العبيد صغار السن ، ثم أرسل من بقى منهم حياً إلى سلطانه التركى ليحرسوا حريمه !

سمعوا كثيراً عن محمد على والرعب منه . وكرهوا النخاسين الأنجاس ، ولو كان إدريس معهم لما تحمل ما يرونه . رأوا النخاسين يأمرون النساء بالوقوف فى صف يبدأ بالصغرى وينتهى بالأكبر طولاً وسناً ، وقد نظفن بشراتهن ودهنها بزيت جوز الهند وطلين وجوههن بالأحمر والأبيض للتزين ، وفى أيديهن وأنوفهن وآذانهن وأقدامهن الحلى المذهبة والمفضضة والجواهر المقلدة . والشارى يفحص السلعة ويتأكد من سمعها وبصرها ونطقها وأسنانها وجميع جسدها وعلى الأخص ثدييها ومواطن أنوثتها ، ثم يأمرها بالتحرك والجرى . فإن تم الاتفاق جردها النخاس من الزينة وسلمها لمولاها الجديد .

ثم رأوا مالم يخطر على بال أحدهم .

فى السوق الكبير التقوا بامرأة من نساء المماليك تتسوق حوائجها ومعها عبدان وخادمتان . تحدثوا معها لمعرفة أخبار مصر ، فذكرت أنها جارية لأمير مملوكى اسمه عبد الرحمن بك المنفوخ ، تولى زعامة المماليك الهاربين بدنقلة والنوبة لأن زعيمهم القديم إبراهيم بك مات بالشيخوخة والحسرة . خاف عليها مالكها من القتال الدائر مع الشايقية فأرسلها إلى شندى حيث هى الآن .. ولاحظوا أن الأهالى يسخرون منها لصلفها وتعاليها رغم شدة جمالها ، ولثيابها العجيبة !

لاحظ هادى أنها ترنو كثيراً إلى الشاطر فى إعجاب . همس له أن يتردد

إليها ويصطحبها ليعرف منها أخبار المماليك وأخبار الطرق إلى أسوان . رحب بالمهمة سعيداً ، وانفرد بها يمتدح حسنها وأنوثتها وهى راغبة راضية . ثم لبى دعوتها له إلى دارها .

فى إحدى غرف دارها خلعت حبرتها وبرقعها ، وبقى شعرها ملموماً تحت الطربوش القصير . سألها عن أحوال المماليك فحدثته عن والى مصر الجديد محمد على الرهيب وقسوته وغلظته . قالت أن الرحمة عنده هى قطع الرقاب لأنها الموت السريع ، أما الموت البطىء فهو بالخوزقة بإدخال خازوق كبير فى جسد المعاقب ، يبدأ من أسفله حتى يطلع من فمه مخترقاً أحشاءه . أما الجرسة فهى عقاب مثل المداعبة ، يركبون المغضوب عليه على حمار بالمقلوب وهو قابض على الذيل ، ويعممونه بأمعاء ذبيحة ويضعون على كتفيه كرشها ، بعد أن يكونوا قد حلقوا له نصف لحيته ونصف شاربه .

تنهدت تتأمله ثم قالت :

ــ لماذا تجلس بعيداً ؟؟ ما إسمك ؟؟

أخفى استياءه مما سمعه عن والى مصر الجديد ، واقترب منها هامساً :

ــ إسمى الشاطر .. ما سبب مجىء المماليك إلى السودان ؟

ــ صدقنى أنت جميل بهى الطلعة !

ــ صدقينى أنت أجمل من رأيت .. كيف حالك مع المماليك ؟

ــ حالى كما ترى لا يسر . منذ مدة أرسل المماليك إلى محمد على يستعطفونه أن ينعم عليهم بالأمان والعودة إلى مصر اتباعاً له . اشترط أن يحضروا فى حراسة عسكره . طبعاً خافوا أن يذبحهم كما فعل مع رفاقهم من

قبل ، ولو واثق لفرحت أنا وعدت إلى القاهرة التى أحبها . بقوا هنا فى ضواحى دنقلة حتى مات ابراهيم بك كما أخبرتكم ، فذهبت أرملته المسكينة إلى الباشا وقبلت يده تستأذنه فى نقل رمة زوجها إلى القاهرة ، سمح لها ونقلته فى صندوق وقد جف جلده على عظامه لنحافته . كان ذلك بعد موته بنحو ستة أشهر . فأى مذلة أنهى بها حياته . محمد على هذا لا قلب له .. وأنت قاسى القلب لجلوسك هكذا بعيداً عنى !

بداخله كان الشاطر راضياً عن فناء المماليك . التصق بها وأحاط كتفيها بساعده . شم عطرها وقال يواسيها ويستدرجها :

ـ مع أن ابراهيم بك فى حياته كان عين أعيان المماليك هو وشريكه مراد بك . اشترى الكثيرين منهم رباهم وأعتقهم وجعلهم سادة علينا !

ـ محمد على نفسه كان يأخذ راتبه وجرايته منه ، فضة وخبزاً ولحماً وأرزاً وسمناً ..

تنهدت فزادت رغبته فيها . تحسرت :

ـ وانتهى الحال بأن دفن كما سمعت بالمقبرة الصغيرة إلى جوار ابنه مرزوق بك الذى مات فى مذبحة القلعة ، ومن غير جنازة !

سألها عن مذبحة القلعة التى لم يسمع عنها . تصنعت الزعل :

ـ أنا لم أسمع عن شاب يختلى بامرأة مثلى ولا يغازلها !

مالت تقبله فوقع طربوشها من فوق رأسها وانسدل شعرها فى لون الذهب . بهره حسنها فارتبك . تأملت هى بياضه الذى لوحته الشمس . جذبته إليها تقبله فى شبق ، وظلا فى عناق وهناء حتى صياح ديك الفجر . وذاق طعم المرأة من بعد حرمان وتشرد .

فى الصباح ذاق وجبة إفطار شهية ، وعرف أنها فى الأصل من بلاد جورجيا خطفها النخاسون وهى طفلة ، ثم بيعت من مكان لمكان حتى استقرت فى مصر ثم شندى .

أمام دارهم ، ما إن رأى العبدة التى تخدمهم حتى اغتم وقد تذكر شكه فى أنها جاسوسة للمك نمر . أحس قلقاً غريباً شوش على ذكرى إمرأة الأمير الجميلة وتدفقها راغبة بين ذراعيه . اغتم أكثر لأنه نسى أن يسألها عن أحوال الطريق إلى أسوان كما طلب منه هادى .

(١٢)

نقيب الأشراف وباقى الأطراف

كان هادى وحتحوت ينتظران الشاطر فى لهفة ، والعبدة تعد الطعام . بينما هم كذلك وقبل أن يسألاه عن ليلته وما ظفر فيها من معلومات ، جاءتهم دعوة الملك نمر على يد أحد عساكره ، فتوجهوا معه من فورهم ، حتى وصلوا إلى القلعة . قبل دخولهم حاول حراسه تجريدهم من أسلحتهم النارية لكنهم رفضوا . إزاء إصرارهم سمحوا لهم بالدخول بها . قابلهم نمر فى تكبر .

بعد فترة صمت صاح فيهم :

ــ أنتم جواسيس باشا مصر

رد هادى فى هدوء :

ــ نحن تجار ولا نعرفه .

ــ فلماذا لم تتركوا بنادقكم بالخارج ؟

فسكت هادى وارتبك حتحوت ، ثم فوجئا بالشاطر يقول فى ثبات :

ــ لأن الباشا محمد على أمرنا بذلك .

وذهل صاحباه ، وصاح نمر فى فوز :

ــ تعترف أنكم من عماله .

ـ ويفخر بذلك وهو قادر على حمايتنا وجيوش غضبه لاحدّ لجبروتها .

فتبدل لونه واغتاظ لكنه كتم ما في نفسه . كان الشاطر قد أدرك خوفه من بأس محمد على فقال ما قال متوقعا أنه لن يؤذيهم خشية انتقام الباشا ولدهشة حنحوت وهادى وجداه يلين في الكلام ويتودد ويمتدح والى مصر وسلطانه ، ويطلب منه إبلاغه تحياته قائلا لهادى :

ـ كل ما نريده أن يظل على عرش مصر هناك ، ويتركنا هنا في حالنا

ـ هذا والله ما نريده أيضا .

ثم انصرفوا إلى البيت ، وفى وقت القيلولة في اليوم التالى لم يستطع حنحوت النوم ، جلس يراقب العبدة التى تعد لهم الطعام من خلال الباب الموارب ، رآها تتلفت صوب غرفتهم في حذر . لم تره لأنه كان في الظل فاطمأنت وأخرجت من عبها كيسا أفرغت ما فيه في وعاء الطعام وكان لونه مائلا للصفار .

دهش حنحوت وأيقظ الشاطر وأخبره ، ففكر قليلا وطلب منه أن ينسى الأمر . بعد أن جهزت الطعام وأحضرته لهم ، نظروا إليه وتركوه دون أكل وهى جالسة بالخارج ترقبهم ، مد الشاطر يده متظاهرا بالبدء في الأكل فلمعت عيناها ، فلما لم يأكل غطى الاحباط وجهها . بعد وقت فوجئت به يحمل الطبق ويتقدم به إلى حمار صاحب الدار الدنقلى ويضعه أمامه ، ما إن مد الحمار فمه ليأكل حتى أنزعجت المرأة ودفعت الحمار بعيدا، فأمسك بها وجرها إلى الغرفه وراح يحاورها حتى اعترفت له بأن الملك نمر أمرها بوضع نبات البنجو لهم في الطعام ، وهو ليس سما وإنما مخدر ، وكان يبغى من وراء ذلك تجريدهم من بنادقهم وسجنهم ، فتركها لكنها عادت بعد حين

وأطلت من عند الباب حيرى ، وسألتهم كيف عرفوا فعلتها وقد كانوا نياما ، أجابها الشاطر في اختصار :

ـ لاننا نعرف في السحر !

فحملقت خائفة ، وتراجعت بظهرها . وبعد أيام استدعاهم الملك نمر وطلب من هادى أن يهديه بعض بنادقهم الجديدة ، فاعتذر لشدة احتياجهم لها في رحلة العودة عبر الصحراء الآهلة بقطاع الطرق ، قال نمر مندهشا :

ـ كيف تخافون قطاع الطرق وأنتم سحرة ؟ ! فقهاء مملكة دامر السحرة يخرجون إلى الخلاء ليلا وهم عزل من السلاح ولا يجرؤ لص على الاعتداء عليهم ، حتى الوحوش والافاعى ترهبهم !

احتاروا بماذا يردون ، فظنهم لا يريدون البوح بأسرارهم ، وكانت قافلة قد وصلت من كردفان حكى أفرادها ما فعله هادى وأصحابه في المتسلم مقدوم كردفان ، وكيف أنهم قتلوا فرسه ورفضوا دعوته لهم ، وما جسر أن يفعل معهم شيئا .

لهذا أحضر نمر بنادقه الصدئه ، وعددها أربع عشرة هى جل سلاحه النارى ، وطلب منهم وهو في غاية التلطف إصلاحها ، فوجدوها تكاد تكون غير صالحة للاستعمال ، لكنهم قضوا اليوم كله يزيلون عنها الصدأ بقدر الإمكان ، آخر اليوم شعر نمر بالسعادة وهو يراها لامعه من جديد ومواسيرها سالكة ، عندئذ عرض عليهم أن يعملوا لحسابه كصناع سلاح ، وظل يغريهم بالاجور العالية وبجاريتين وعبدين لكل منهم ، فاعتذروا في أدب وحسم .. كتم غيظه وألح لهم إلى ضرورة الاسراع في الرحيل ، فرحبوا بذلك .

وعندما تجهزوا لمواصلة السفر أوفد معهم اثنين من عسكره يحرسون قافلتهم حتى آخر حدود مملكته.

دخلوا حدود الدامر، فاستقبلهم بعض شيوخها من الفقهاء الذين يسمونهم فقراء، أى فقراء إلى الله، ويخافهم اللصوص بسبب معرفتهم لفنون السحر. رافقوهم لحراستهم وهم عزل من السلاح، بينما لصوص عشيرة الجعليين يحومون عن قرب.

لما وصلوا بلدة الدامر وجدوها أفضل من الفاشر عاصمة درافور، وقريبة من التقاء نهر عطبرة بالنيل، وعدد مساكنها نصف عدد مساكن الفاشر، نظيفة وعلى شىء من التنسيق، شوارعها منتظمة، ويسكنها عرب جلهم من رجال الدين أو الفقراء، ورئيسهم الفقى الكبير هو القائم مقام الملك، وهم من عشيرة المجذوب، ولهذا فإن كل درويش فى مصر يسمى مجذوبا، وهم مشهورون بالسحر والعرافة وقراءة الغيب، ويقولون أن أحد الناس كان قد سرق شاة وذبحها وأكلها، فتمكن الفقى الكبير من كشف سرقته بأن جعل لحم الشاة فى بطنه يمأمىء!

ثم ارتحلوا إلى بربر، آخر الممالك الخاضعة لسنار. مر يومان دون منغصات، ثم حدث ما سوف يكون له أثر كبير على حنحوت بن رضوان وصاحبه الشاطر.

وصلت قافلة كبيرة بتجارة محمد على، تحت حراسة رجال أشداء مسلحين أعظم تسليح. رئيسها ممشوق طويل له لغد يرتج إذا ضحك، وعيناه نفاذتان. رآهم فى السوق يتجولون فتعرف إليهم. لم يطيلوا الحديث معه، واستأذن هادى منه وهو غير مرتاح.

فى الدار الذى ينامون فيه حذرهما:

ـ أنا أكبر منكما فاسمعا نصيحتى. تجاهلا هذا الرجل، أظنه من جواسيس محمد على

قال حنحوت:

ـ لماذا نخشاه ونحن لم نرتكب إثما!

ـ خرجت شابا وهأنذا أعود كهلا، ولا أريد إلا تجنب المشاكل

ـ بالليل نام هو، وجافاهما النوم، فخرجا يتمشيان. لم تكن بربر سوى أربع قرى صغيرة على حافة أرض زراعية، بينها وبين النهر الذى يشق الصحراء مسيرة ساعة. جميع النساء يسرن فيها سافرات، صغار البنات عاريات إلا من نطاق من شراريب جلدية قصيرة حول الخصر، بعضهن يتكحلن، والمتأنقة منهن تطرح فوق القميص عباءة بيضاء بحواش حمراء، من صنع المحلة الكبرى. لونهم أسمر داكن، للرجال لحى وشوارب قصيرة، شعرهم مجعد إن كان مقصوصا، وإن أطلقوه صار فى خصلات هائشة. وخمرهم من تفتيت خبز الذرة وتخميره، فيصبح مريسة أو كما يسمونه أم بلبل، لأنه يطلق لسان شاربه بالغناء. جميعهم مولعون بالشراب. للتحية عندهم يقولون: طيب طيب. وللأسرة المالكة يقولون: يا أرباب يا أرباب. لا يقولون السلام عليكم لأنها إشارة الحرب عند جيرانهم من الشايقية. وملكهم يدفع إتاوة لملك سنار، كما كان يفعل ملوك دنقلة قبل اجتياح المماليك لإقليمهم، وعرب الشايقية قبل أن يستقلوا.

لم يجدا ما يفعلانه سوى دخول مشرب الجعة. وجدا رئيس القافلة به، دعاهما للجلوس معه. حذر الشاطر صاحبه حنحوت بعدم شرب أم بلبل

لكن الرجل طلب لهما قدحين منها. تذوقا بعضه فى حذر ولم يكملا. سألهما من أى بلد هما. سارع الشاطر يرد:

ـ من القاهرة، من حى امبابة

ـ ماذا تفعلون هنا؟

ـ فى رحلة تجارة، طبعا شاهدت بضائعنا.

ـ بضاعة وفيرة وغالية.. اشربا، جعة أم بلبل تذهب بأحزان الشريد وتطلق لسانه بالتغريد!

رشفا قليلا فى حذر وارتياب. سأله حنحوت عن أخبار مصر المحروسه ومحمد على وعمر مكرم وسر وجود المماليك بدنقلة؟

قطب الرجل متعجبا:

ـ ألا تعرفان ما حدث لعمر مكرم؟! ألستم تجاراً؟.. وبنادقكم قديمة وإن كانت جيدة!

على الفور تظاهر الشاطر بالتثاؤب ونهض منصرفا بحنحوت. فى الخارج عاتبه لانفلات لسانه:

ـ أنت عائد من تغريبتك الطويلة بدون حكمة الشيوخ!

كان هادى قد دفع إتاوة المرور، خمسة أثواب دمور للملك، ثوبا لموظفيه وآخر لعبيده، وثالثا لرؤساء قبيلة البشارية لأنهم سادة الصحراء من بعد الخروج من البلدة. تعجل الرحيل فأذن له الملك بالسفر بعد يومين، وذلك كى ينفقوا بعض الأموال أثناء الإقامة.

لكنهم فى المساء التالى فوجئوا بزيارة رئيس قافلة محمد على لهم، يتبعه

بعض خدمه حاملين أطباق اللحم المشوى الساخن وعدة أباريق مملوءة جعة أم بلبل. رحب به هادى فى تحفظ وادعى التعب والتوعك. رمقه حنحوت فى شك وتحفز. وظل الشاطر يرقبه متوجسا.

أكلوا معه بعض الشواء ولم يشربوا. صب لهم الأقداح فتجاهلوها. ألح عليهم بالشراب فسأله حنحوت بعصبية:

ـ هل أنت من جواسيس محمد على؟

قهقه عاليا حتى اهتز لغده:

ـ من أجل هذا انصرفتما مبكرا. أنا أكرهه.

ـ كيف والقافلة التى تترأسها قافلته؟

ـ كانت لى تجارتى الخاصة، وكنت أربح كثيرا. تسعة أعشار الربح فى التجارة. ثم جاء هذا الباشا واحتكر لنفسه تجارة الشمع والقطن والكتان والسيرج والصابون والخيش والكركم وعسل النحل، كلما سمع عن تجارة رابحة يمنع العمل فيها ويتولاها وحده. هكذا صرت أجيراً عنده. أنه ظالم دموى أمكر من ثعلب!

بدت الحيرة فى وجوههم. قال هادى:

ـ تغربنا عن مصر وقت خروج الفرنسيس منها، ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ حدث الكثير. عاد المماليك أسيادا من جديد. تحكم فى مصر إبراهيم بك والبرديسى، ومحمد على يظهر لهما الود. وعساكرهم جميعا ينهبون الناس فى الريف والحضر، يخطفون الثياب والعمائم حتى أن الرجل إذا مشى ربط عمامته خوفا منهم.. استجار الأهالى بالمشايخ ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم. كان السلطان العثمانى تحالف مع الانجليز ليخرج الفرنسيس من

أجل المماليك . أرسل واليا جديدا إلى مصر حكايته تروى للاعتبار . اسمه على باشا الجزائرلى ، لأنه فى السابق كان مملوكا لحاكم الجزائر . وصل الأسكندرية فى نفخة كاذبة ومعه ألف جندى ، استقل مركبا كبيرا له مقصورة عليها بوارق وشراريب ذات ألوان . سار بها من [illegible] د إلى قرية شلقان ، بعد أن راسل محمد على سرا للتحالف معه ضد المماليك . كأنه أراد صيد النسر بالغراب . نقل محمد على الرسالة إلى البرديسى واتفقا معا على أخذه مواسطة بينهما والموعد فى شلقان ، وفيها قتلوه وغنم البرديسى فرقة مهاترنه والطبلخانة ، أى فرقته الموسيقية وطبول موكبه ، ودخل بها القاهرة بين الطبل والزمر !

تأملهم ثم دعا حنحوت والشاطر إلى شراب . حذرهما هادى خفية ابتسم الرجل وقال :

ـ كانوا قد غفلوا أمر محمد بك الألفى الذى سافر مع الانجليز وغاب هناك أكثر من عام ، وقابل ملكهم وجهزوه لحكم مصر . وقيل إن أخلاقه تهذبت بما أطلع عليه من عمارة بلادهم وعدلهم بين الرعية ، لا ينهب عساكرهم الفلاحين ولا يخطفون قبعات أهل المدن . وأهدوه جواهر وأدوات فلك ونظارات لمشاهدة النجوم وأخرى للرؤية فى الظلام مثل القطط ، وصندوق موسيقى بداخله أجسام تدور على الأنغام .

بعد أن أعدوه أرسلوه إلى شاطىء أبو قير ، فسار من فوره إلى رشيد ، وفيها اجتمع مع نائب قنصل الانجليز الذى أهداه زورقا ، انحدر به إلى القاهرة . وكان محمد على عرف بمجيئه فدس له عند البرديسى . ما طلع النهار حتى أغار عليه مماليك البرديسى . فى أقل وقت هرب واختفى وهم

حيارى . التجأ إلى عرب الحويطات . أجارته امرأة منهم وأركبته فرسا وأمرت بهجانين يكونان معه ، سارا به ليلا . وكان جالسا داخل خيمة من خيش عندما مر محمد على وعساكره يراهم من الداخل وهم لا يرونه وقد أعماهم الله !

اقتربوا منه وقد شدتهم الحكاية . قال متعجبا :

ـ الألفى جميل الصورة أبيض مشرب بالحمرة مثل هكذا ولكن بدون لغد ، مدور اللحية أشقر الشعر بشيب . حكايته مثل حكايات السير الشعبية . أحبته البدويات وأمتثل العربان لطاعته . تزوج كثيرات من بنات العرب ، التى تعجبه يبقيها حتى يقضى وطره منها . لم يبق فى عصمته غير واحدة هى التى أحبها . أظن أنه يملك سرا يسحرهن به . وأخفق محمد على فى العثور عليه وعاد إلى القاهرة ، كذلك أخفق مرزوق بن إبراهيم بك !

ابتسم حنحوت للشاطر . مرزوق هذا أهداه مرادبك وهو طفل البقرة الأعجوبة ذات الرأسين ، التى تأكل برأس وتجتر بالأخرى ، وكان ظهورها هو العلامة الثالثة المتحكمة فى حياة حنحوت ، حسبما قرأت الغجرية ذلك فى الرمل قبيل مولده .

نسى حنحوت تحذيرات هادى وشرب بعض الجعة ، سر الرجل وقال :

ـ الثعلب فى الحكاية التى أرويها لكم هو محمد على . أظهر الود للبرديسى وتآخى معه بأن جرح كل منهما نفسه ولعق من دم الآخر .

ابتسم حنحوت والشاطر . سبق أن تآخيا بالدم وهما صبيان . لكن فرق بين تآخى الذئاب وتآخى الأحباب . ضحك الرجل :

ـ راجت بضاعة الثعلب عند البرديسى حتى أنه جعل حراس أبراجه من الألبان عساكر الثعلب ، الذين طالبوه بأجورهم المتأخرة ، ففرض الأموال على الناس. ضج الفقراء وخرجت النسوة جماعات وقد صبغن أيديهن بالنيلة ، يصرخن على دقات الدفوف « إيش تاخد يابرديسى من تفليسى » .

كانت فرصة الثعلب للتخلص من البرديسى وإبراهيم بك . فى آخر لحظة أفلحا فى الهرب . وطاف الألبان على بيوت مماليكهما ينهبون الحريم والدواب والجوارى والغلال والسمن ، وكان انشغالهم بالنهب سببا فى فرار بعض المماليك . أنا رأيت النسوة النائحات وكدت أبكى تأثرا .

رأى عدم التصديق فى عيونهم فصب لهم مزيدا من الجعة وقال :

ـ عين السلطان التركى واليا جديدا اسمه خورشيد باشا وكان حاكما للأسكندرية . وظل محمد على يزوره فى القلعة ويظهر له الود ويحرضه على فرض الأتاوات ، وينزل ليلا الى دار نقيب الأشراف عمر مكرم ويتملقه حتى أحبه المشايخ والرعية . ثم إذا الألفى يظهر من جديد !

سكت وسأل حنحوت بغتة :

ـ من أين أنت ؟

أسرع الشاطر يقول :

ـ أكمل من فضل جنابك

ـ ظهر الألفى من جديد وتصالح مع الأمراء فى الصعيد على ما فى نفوسهم من ضغائن . وجمع جيشا كبيرا تحرك به إلى القاهرة ، بينما توالى

وصول النجدات إلى الباشا خورشيد ، من انكشارية جيش الأتراك الجديد ، ثم الدلاة الأكراد . ما إن وصلوا حتى أخرجوا السكان من بيوتهم بمصر القديمة وبولاق ، وسكنوها وأحضروا القحاب والخمور . لكن خورشيد باشا استأسد بهم وأمر محمد على بأخذ عسكره الألبان ومنازلة مماليك الصعيد بالمنيا .

خفق قلب حنحوت . خطف القدح فى عصبية وعب جميع ما فيه . أحمر وجه الرجل طربا وقال :

ـ كان المماليك متحصنين بالمنيا عندما وصل محمد على وحاصر أسوارها . وذاق أهالى المنيا العذاب حوالى شهرين . الألبان بالخارج والغز بالداخل . ثم تمكن المماليك من الفرار والاختفاء بالصحراء الغربية .

شرد حنحوت والجعة تخدر ذهنه إلى أهله بقرية تله ، مشفقا على أحوالهم . لابد أن الغز فى هروبهم مروا بالقرية . وكانت هذه الأحداث قد حملت الأذى إلى أسرته فانحط دخلها ، لأن أمه العفيفة أم الخير الملهوفه على غيابه امتنعت عن النزول إلى المنيا وبيع ما كانت تربية من دجاج وبط وأرانب . واضطر ابنها الأكبر الريس مرسى إلى التغرب جنوبا بمركبه عند شاطىء ملوى بعيدا عن حروب المدينة ، وصار يبيت عند ابنته زهرة وزوجها بكر ، زهرة التى مازال الشاطر يحبها ويحلم بالزواج منها !

التهم الرجل قطعة لحم كبيرة ، مسح فمه بكمه ، يراقب آثار جعة أم بلبل على الشاطر وحنحوت . ثم أكمل حكايته :

كانت القاهرة قد اكتظت داخلها وخارجها بأراذل العسكر . يخطفون الأرزاق والبنات والغلمان . فصعدت النسوة فوق المآذن مستجيرات بالخالق

الجبار. استخار عمر مكرم ربه وأخذ المشايخ والناس إلى بيت القاضي. بات وأصبح وأخذ قرارا هو الأول منذ القدم. أستدعى محمد على وخاطبه على الملأ قائلا:

ــ عزلنا الوالى خورشيد واخترناك برأى الكافة لتكون واليا علينا بشروطنا ونعينك قائمقام حتى تصل موافقة السلطان من الأستانه. لا تفرض ضريبة إلا بعد موافقتنا، لا يدخل جندى المدينة حاملا سلاحه، تعيد فتح طريق غلال الصعيد إلى القاهرة.

هاج خورشيد وماج، فقام الناس بالنبابيت والسلاح، سدوا طرقات القلعة ومنعوا عنها الماء. وطاف المنادى يحرضهم على رد أذى العسكر بالمثل. ظلوا يحاربون عدة أسابيع حتى جاء فرمان السلطان بعزل خورشيد المخلوع وتولية محمد على، فصار باشا مصر. وما انتصر إلا بالسيد عمر مكرم والرعية.

تعجب هادى:

ــ لماذا لم يأخذ عمر مكرم الولاية لنفسه وهو سيد الموقف؟

ــ لأنه مصري ليس عنده مدافع.

أما الألفى فقد راح يتنقل كالطائر الجريح من الفيوم إلى البحيرة إلى كل مكان فيه أعراب. كان ينتظر أصحابه الأنجليز. حارب الأنيان والدلاة وهزمهم، ولو طاردهم واقتفى أقفيتهم لدخل القاهرة دون ممانع، لكنه كان ينتظر الانجليز، يمشى كل يوم بمماليكه وعربانه فى بر الجيزه وأمامه وطبولهم تصم الأذان، ومحمد على يراقبهم من بعيد مرتاعا، مرة بعينيه ومرة بالمنظار.

مرت الأيام ولم يأت الأنجليز وتخلى عن الألفى معظم الأتباع. بكى وتأمل الحقول والزرع وقال:

ــ أنظرى يا مصر حالك وذل أولادك وقد استوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأنيان والدلاة *، يهدمون دورك ويفسقون بأولادك!

على الفور تحرك به خلط دموي. تقيأ دما وقال:

ــ قضى الأمر وسأموت، خلصت مصر لمحمد على وما بقى غيرى يعمل له حسابا.

ــ فلما مات اجتمعت بنات العرب وصرن يندبنه بكلام حزين تناقله المغنواتيه على آلات الربابة إلى كل مكان!

رشف هادى جعته على مهل يتأمل الرجل. كيف عرف كل هذه التفاصيل؟ أكان من أتباع الألفى ثم انضم للفائز؟ لماذا جاءهم بالشواء والخمر؟ ماذا يريد منهم؟

لكن جميع ذلك كان يحدث كى يتم المكتوب على حتحوت بن رضوان [1].

---

(١) كان بيت ابراهيم بركة الفيل، وبيت البرديسى فى قصر حسن كاشف الذى كان مقرا للمجمع العلمى فى عهد الثورة الفرنسية ومكانه الآن مدرسة السنية ــ واختار الناس محمد على فى مايو ١٨٠٥ وجاء فرمان السلطان فى شهر يوليو. وهناك رواية تقول أنه عندما كان فى وضع قائمقام الوالى وبيته بالأزبكية قام أحد أعوانه بجمع ممثل الطوائف والأعيان واستمع إلى شكاواهم ومطالبهم ثم جعلهم يضعون أختامهم فى الجزء الأسفل من ورقة خالية، على وعد أن يكتب أعلاها التماسا إلى السلطان عبد المجيد لتحقيق رغباتهم بدلا من ذلك كتب التماسا بتثبيت محمد على واليا!

* ودلاة كلمة تركية تعنى المجانين!

(١٣)

حضور الأنجال وذبح الأنذال

زاد شكهم فى الرجل ، والظلام بالخارج والهدوء إلا من أصوات خافتة لغناء السكارى بمشرب الجعة . لكنهم أكلوا حتى شبعوا ، وشربوا عدة أقداح حتى بدأ تأثير الخمر يتسرب إلى الرؤوس ، فتخلوا عن بعض حذرهم. إلا هادى الذى كان فى كامل يقظته . والرجل يصب لهما وله ويترنح ويحكى أخبار مصر المحروسة .

لم يعد أمام محمد على إلا المماليك بالصعيد والدلاة فى البحيرة ، والسيد عمر مكرم والمشايخ ، وكان قد أعفاهم من دفع ضريبة الأرض منذ أن ولوه ، فلعبت الثروة بعقول بعضهم واعتقدوا فى دوام الحظوة . حتى مات الألفى فطلب أموالا كثيرة من التجار والنصارى ، ثم فرض فردة على جميع البلاد للانفاق على تجريدة لطرد الدلاة فى البحيرة . فصارت كل قرية فيها تتعرض لنهبهم أولا ، فإذا انصرفوا داهمها العرب وأكملوا النهب، فإذا انقشعوا جاءت تجريدة الألبان وأجهزت على البقية ! .. أخيرا انزاح الأكراد فاستدار لملاقاة مماليك الصعيد ، وتوجه إليهم فى المنيا .

توقف الرجل يراقب شحوب حتحوت . كان يقاوم النوم بصعوبة فإذا هو يتنبه على كلمة المنيا . أغرورقت عيناه متذكرا أسرته . بشكل مشوش . هز رأسه يوقظ نفسه .

في تلك الأيام كان أخوه الريس مرسى قد ودع ابنته زهره العفيفة وزوجها بكر بن شيخ الأشمونين الطبيب . عاد بمركبه إلى المنيا ليجد المماليك يحكمونها ويمنعون غلال الصعيد عن القاهرة . دهش لأنهم تركوا الأسوار فى حراسة البدو ، ليناموا هم بين أحضان الجوارى والغلمان .

قبل مرور أربعين يوما على وفاة الألفى قدم محمد على إليهم فى جيش كبير . أشترى ذمم بدو السور ففتحوا له الأبواب والدنيا ظلام ، ليداهم المماليك وهم نيام . قطع أحلامهم وملذاتهم بقطع رقابهم . من فر منهم كان فى ثياب النوم . استرخى هو فى دار الكاشف سعيدا ، لكنه سرعان ما اغتم وقد بلغه أن الانجليز نزلوا إلى الاسكندرية واحتلوها من عساكر الأتراك دون قتال !

هز حنحوت رأسه بشدة :

ـ ماذا قلت !

ـ كان ذلك من عجائب الاتفاق . لو وصلوا قبل ذلك بشهرين لتغيرت أحوال الديار المصرية . وكانوا حثالة فى ستة آلاف مكثوا ينتظرون مماليك الألفى ثم زحفوا إلى رشيد . انحلت عزيمة محمد على وراح يدبر للفرار ويتسقط الأخبار وجاءته أعجب الأنباء . سكان رشيد وحدهم صدوا الانجليز ، بالنبابيت وشباك الصيد وأقل البنادق . ذبحوا منهم جملة وأرسلوا الرؤوس المقطوعة والأسرى إلى القاهرة . ردت فيه الروح . وفى طريق العودة من المنيا بلغه أن عمر مكرم يجهز الرجال لقتال الانجليز ، بينما العساكر فى القاهرة يذهبون إلى بولاق بحجة الذهاب لمقاتلة الكفار ويخطفون الدواب والغلمان ، ثم يتفرقون ويراهم السكان فى اليومين الثانى والثالث فى جهاد هو من أهوال الساعة .

أخيرا وصل محمد على إلى القاهرة . صعد إلى القلعة وهبط ، وفصل الفرنسيس يهندس له أماكن التحصن تحسباً لوصول الانجليز . والرشايدة وحدهم يقاتلون ويرسلون بشاراتهم ، ثلاثمائة وأربعين رأسا ثبتها الباشا فوق النبابيت بالأزبكية ، بعد أن قطع آذانها ووضعها فى ملح فى صندوق أرسله إلى تركيا مع أسيرين على سبيل العينة ، فانشرح قلب السلطان . اعتبر الباشا النصر نصره وفرض على الناس أبهظ الضرائب ، فهاجر منهم المئات إلى بر الشام . خاطبه المشايخ فى رفع المظالم فقال :

ـ أنا لست ظالما وحدى . رفعت الضرائب عن أطيانكم وداومتم على جمعها من الفلاحين ، وعندى دفتر مسجل فيه ماجمعتموه ويبلغ ألفى كيس !

ثم ركب إلى بيت ولده إبراهيم وطلب القضاء والمشايخ الذين مالوا إليه ، وأعطى نقابة الأشراف للشيخ السادات ، وأمر بنفى عمر مكرم إلى دمياط . فرحل من ليلته إلى منفاه ، وكان هذا بعض ما يستحق لأن من أعان ظالما ظلمه !

هب حنحوت محتدا فى وجه الرجل :

ـ عمر مكرم أشرف الناس . أنت لست مصريا . أقول لك من أنت ، كنت فى بلدك خادما أو حطابا وجئت مصر تستبد علينا !

ثم اندفع يريد خنقه لولا أن هادى لحق به وأجلسه ، واعتذر للرجل الذى شرب بعض الجعة وراح يكمل فى برود :

ـ أرسل محمد على وأحضر زوجته والأقارب وأهل الأهل ، فجاءت ونبهوا على نساء الأكابر أن يركبن لاستقبالها فى بولاق . كانت السيدة نفيسة أرملة مراد بك مريضة فأجبروها . ليتجمع على النيل خمسمائة سائس

بحميرهم ، فوق كل حمار امرأة تحمل هدايا لنساء الباشا . بعد ذلك وصلت أفواج الأنساب والأصحاب ، ونالوا القصور ولبست حريمهم الخواتم لكنني لست منهم يا أخي حتحوت . أنت من الصعيد ، أليس كذلك ؟

ـ من أية مصيبة . لا شأن لك بي !

ـ محمد علي جعل ابنه ابراهيم باشا حاكما على الصعيد لتطهيره من فلول المماليك ، فقتل منهم من طاله وفر الباقون إلى هنا ، وهذا سبب تواجدهم بالسودان . بعد ذلك استدار يذل الصعايدة الكرام . رفع الواطي وأخفض العالي . سلب نعمة أعزائهم وأخذ الأبقار والأغنام وفرض المغارم الهائلة ، من عجز عن الدفع أجرى عليه أنواع الآلام من ضرب وتعليق وكي بالنار .. تصور يا أخي حتحوت ؟

ـ لست أخاك !

ـ بلغني واستغفر ربي أنه مدد رجلا علي خشبة طويلة وربطه بالسلاسل ثم جعل رجلين يمسكان بطرفها ويقلبانه على النار المضرمة مثل الكباب . وهذا طبعا حرام يا أخي حتحوت !

ـ في الصعيد رجال . أنت كاذب !

ـ هذا ليس بمستبعد على شاب جاهل سنه دون العشرين عاما ، وجد نفسه يتحكم في عباد الله الطيبين ، بعد أن حضر من بلده دون أن يؤدبه مؤدب ، لا يعرف شريعة ولا منهيات إلا ما علمه أبوه ، حتى صار الفلاح الصعيدي أذل من العبد ، فربما هرب العبد من سيده إن أهانه بالضرب أما الفلاح فلا يمكنه ترك أرضه وأولاده .. أتوافقني يا أخي حتحوت ؟

ظل حتحوت جامدا شاحبا برهة ثم انهار باكيا . إهتز لغد الرجل :

ـ والباشا عزيز مصر احتكر شراء المحاصيل الجيدة بالثمن الذي يحدده .. من أين أنت يا أخي حتحوت ؟

انفجر فيه بإزدراء :

ـ أنت تلف وتدور لتعرف إسم بلدتي . أنا من المنيا من قرية تلة . وأنا لا أخشاك ولا أخشى سيدك .

ثم اندفع في عبارات غير مترابطة ففضحت جميع ما كان من أمر تغريبة مع الشاطر وادريس ثم مع هادي ، والرجل يصغي في تهدل السكير . لم يصدق أن الذهب غير موجود في جبال القمر ، وأنكر أن الباشا يريد احتلال السودان .

ثم وقف لينصرف .

قرب الباب اهتز لغده وقال لهادي :

ـ أنا والله معجب بصاحبيك ، تصبحون على خير !

لاحظ هادي أنه انصرف بخطوات ثابتة لا تنم عن السكر . التفت إلى رفيقيه موبخا :

ـ إن كان من جواسيس الباشا فالويل لنا ! .. آن أوان الرحيل .

كانت دوابهم قد ارتاحت ورعت وارتوت . اشتروا ناقتين للشرب من لبنها وهم في الصحراء ثم أسرعوا بالرحيل . منذ الصباح الباكر دخلوا المفازة الرهيبة ، من بربر قاصدين قرية دراو قرب أسوان ، ومدة السفر ثلاثة أسابيع وثلاثة أيام ، عبروا فيها واديا زاخرا بالأشجار ، ثم آخر اسمه وادي الحمار شاهدوا فيه بعض الحمر الوحشية ، ثم صخورا فسهلا فسيحا به نعام

وبعض بيضه الكبير مهشما . تغيرت الأرض من صخرية إلى صحراء داكنة اللون ، ارتفعت فى جبال شقرة . راوغتهم بحيرات السراب فى زرقة خالصة حتى انعكست عليها ظلال الجبال !

ناموا وصحوا وعبروا على بعض أشجار الدوم ، فأرض صخرية ثم واد منفتح يزخر بالأشجار . حلقت فوقهم طيور بيضاء فى حجم الأوز . هب عليهم هواء منعش بسبب انفتاح آخر الوادى على النيل . ثم اجتازوا وادى الطواشى المنسوب لأحد خصيان الكعبه الشريفة ، كان قد وفد إلى السودان متسولاً فقتله قطاع الطرق وسرقوا هبات ملوك الفور وسنار له !

صادفتهم أرتال الجراد وتكاثرت تلتهم الأشجار . ومن وادى كلأ إلى تلال حجرية ودروب صخرية ثم أشجار سنط . حتى دخلوا أرض العبابدة الموالين لمحمد على فاطمأنوا . رأوا بقايا روث ومزق خيام وثياب خلفها وراءهم المماليك الفارون ، وقبرا بُنِىَ على عجل .. من جديد صادفوا أسراب الجراد وتوقعوا أنها متوجهة إلى مصر . حتى دخلوا وادى هود فوجدوا مزيدا من الجراد يلتهم الشجيرات والأعشاب . بذلك صاروا على مسيرة يومين من قرية دراو .

استراحوا ثم واصلوا السير . باتوا وأصبحوا وتقدموا قبل طلعة الشمس حتى صاروا على بعد ثلاث ساعات من آخر الدروب . أخيرا داخلوا دراو . من شدة فرحتهم بالنجاة نزلوا واغتسلوا فى النيل المبارك ، غير آبهين بالتماسيح النائمة على الشاطىء .

قال حنحوت :

ــ يا سبحان الله ! أخيرا فوق أرض الوطن !

كانت أسوان على مسيرة نصف يوم من دراو ، مركزا عظيما للقوافل جميلة بمزارع القمح وصفوف الجمال ، والدواب رائحة غادية بين أشجار النخيل ، والقرى متناثرة والفلائك والمراكب ، والحمام على كل سطح ، ومالك الحزين يصطاد السمك بمنقاره من النهر ، والجاموس ينزل على مهل ليرتوى .

دفعوا لعمال الباشا مكوسا كبيرة ، ثم باعوا بضائعهم بعد أن استبقوا بعض الهدايا للأهل . لاحظوا أن الطرقات صارت آمنة ، وإن كانت القرى تعانى البؤس . مع ذلك كانوا منتعشين . صاح الشاطر من فوق جمله :

ــ أربعة عشر عاما من الغربة رأينا فيها مالم يره السندباد فى رحلاته السبع .

هز حنحوت رأسه :

ــ نقترب أنا وأنت الآن من الثلاثين ، لن نرتحل أبدا لأى سبب كان . نتزوج وننجب . لابد أن الأسرة تضاعف عددها الآن !

هذا ما قرراه . لكن المكتوب لم يكن قد تم جميعه . وللأقدار تصاريف أخرى ، حبلى بها فى بطن الغيب[1]

(١) تولى محمد على فى مايو ١٨٠٥ ــ ومات البرديسى فى نوفمبر ١٨٠٦ والألفى فى يناير ١٨٠٧ ــ ونزل الأنجليز الأسكندرية فى ٢١ مارس ١٨٠٧ .

(١٤)

زوال الأمان بالقبض على رضوان

أما ابنة الأصول الشريفة العفيفة أم الخير ، فهى عندما أمرت ولدها حتحوت منذ أربعة عشر عاما بالخروج للبحث عن أخيه الكبير مرسى ، ثم عاد مرسى ولم يعد هو ، راحت تتوقع عودته ، وبقيت تنظر صوب الطريق القادم من الشرق عله يكون آتيا ، وأيضا إلى طريق الغرب ، لأن مرسى عاد لها عن طريق الصحراء ، أبناؤها يعودون من أى اتجاه ، المهم أن يعودوا ، وكانت دائمة التحدث عنه ، وتحرص على أن تحفظ له نصيبه من كل وجبة حتى إذا عاد وجد طعاما جاهزا ، وكلما راقتها فتاة فكرت فيها عروسا له .

وكان زوجها رضوان وابنها الريس مرسى يشفقان عليها مخافة ألا يعود الغائب ، فلما طال الغياب كفت عن ذكره أمامهم ، لكن الهاما ما جعلها موقنة بسلامته ، حتى أنها آمنت بنبوءة الغجرية التى ظهرت وتنبأت واختفت ولم يعرف أحد عنها شيئا . رغم زيادة عدد أفراد الأسرة ظلت تحتفظ بمكان نومه نظيفا ، له ولصاحبه الشاطر الذى أضافته إلى الأسرة منذ عرفت أنه يتيم !

غير أنها منذ أسابيع فاجأت أسرتها بعودتها إلى الحديث عنه ، دهشوا وكان أكثرهم دهشة نسلها الذين ولدوا فى غيبته ولم يروه ، سألها الريس مرسى عن سر تذكرها لحتحوت ، ابتسمت وقالت :

ـ يأتيني في المنام كلما غفوت .

بعد آخر أحلامها استيقظت والطيور والناس في سبات ، ونهضت نشيطة واغتسلت ثم أيقظت أهل الدار وجعلت زوجها يخرج إلى الغيط ومعه الأحفاد ، انشغلت مع مبروكة زوجة ولدها مرسى في تنظيف الدار وترتيبه، ومبروكة متعجبة لكنها تعودت منذ حضورها الدار على طاعتها والثقة برجاحة عقلها ، وبعد أن تم جميع ذلك صعدت إلى سطح الدار وراحت ترقب الطريق الشرقي معظم الوقت والطريق الغربي أحيانا ، كلما رأت شابا قادما من بعيد دققت النظر إلى أن تتأكد من أنه ليس حنحوت ، فكرت كذلك في مصير صاحبه الشاطر اليتيم ، لم تحلم به لكنها دعت أن يعود مع ابنها سالما ظافرا ، ظلت في محل رصدها حتى علت الشمس وحميت وعندئذ نزلت ووجهها في حمرة النحاس والعرق يجعله لامعا ، ثم نادت على مبروكة وأشارت إلى أربع دجاجات سمان وأمرتها بعزلها جانبا ، فنفذت الطلب وقد زادت دهشة وسألت :

ـ أتنتظرين ضيفا يا خالة ؟

فابتسمت في صفاء :

ـ أنتظر حبيبا .

ذهلت مبروكة ، بينما كان زوجها مرسى في ذلك النهار قد رفع مرساة مركبه وبدأ يبتعد عن موردة الخشب ميناء المنيا على النيل المبارك ، عندما سمع صوتا يناديه .. التفت فرأى رجلين يلوحان له من فوق جملين ومعهما ثلاثة جمال محملة ، فظنهما تاجرين ، لكنه تذكر صوت المنادي رغم تغير هيئته ، بقي لا يصدق أنه يرى أخاه الصغير حنحوت وصاحبه الشاطر بعد غيبة أربع عشر عاما أو أكثر !

عاد المركب إلى الشاطر وارتمى حنحوت في حضن مرسى ثم جميع النوتية ، ورحبوا بصاحبه ، وتأملهم وتأملوا فعل الزمان فيه ، سافر فتى وعاد رجلا يناهز الثلاثين ويبدو كأنه في الأربعين . طلب مرسى من نوتيته أن يرحلوا بدونه ، فأقلعوا من جديد وبقي هو مع أخيه والشاطر ، وطال الحديث وكثرت الأسئلة والأجوبة والأحضان والقبلات ، وعرف حنحوت أن عمه الريس جابر أستاذ مرسى قد رحل منذ عامين إلى دار البقاء مغادرا الدنيا دار الفناء . فحزن عليه وترحم ، ثم سأل عن المواليد الجدد في أسرته ، ثم أصر على التوجه إلى الحمام العمومي للاستحمام كي يتوجه إلى أمه نظيفا متعطرا .

وبينما هو يستحم عرف أن أمه صارت جدة لولدين وبنت من سنبلة أخته ، وأن مرسى ذاته أصبح جدا لثلاث بنات وولدين من ابنيه منصور ومندور ، وأن زهرة تزوجت من بكر بن شيخ الاشمونين لكنها لم تنجب منه ، وهي التي كان حبها قد وقع في قلب الشاطر وتمناها امرأته !

كانت أم الخير ترش المكان أمام الدار ، ومبروكة يزداد عجبها لأن حماتها ظلت تفعل ذلك بنفسها طوال الأيام السابقة ولم تكن عادتها ، ثم أنها التفتت نحو الشرق فرأت ركبا من حمار وخمسة جمال ، تبينت فوق الحمار ولدها مرسى ، فدق قلبها بعنف ، وأيقنت أن الرجلين الآخرين هما حنحوت والشاطر ، وصعدت الدماء إلى رأسها بشدة حتى إنها شعرت بدوار خفيـف، وقالت :

ـ صدق قلبي .

ما أن اقترب الركب حتى قفز حنحوت من فوق الجمل من قبل أن يبرك ،

واندفع إلى حضن أمه التى ظلت تجذبه إلى صدرها وتقبله ودموعها تبلل وجنتيه ، ثم تنبهت إلى الشاطر الجميل الطلعة فتقدمت نحوه ، مد يده يحييها لكنها جذبته إلى صدرها فأحس بالطمأنينة ، وتذكر حضن أمه التى ماتت وهو طفل ، وسالت دموعه على صدر أم الخير ، التى تراجعت خطوات تمتع ناظريها برؤيتهما ، وفجأة تجهمت ورفعت أصبعها غاضبة فى وجه حنحوت :

– أربعة عشر عاما ، كيف طاوعك قلبك ؟!

ثم صاحت فى الاثنين :

– تستحقان عقابا شديدا .

استدارت داخلة الدار وهم فى أعقابها ، ونادت على مبروكة زوجة مرسى التى رأت حنحوت فتأملته ، وخجلت أن تأخذه فى حضنها وقد صار رجلا وهتفت :

– يا ربى ، جئت أنا الدار وأنت تحبو ، وأنا من علمتك المشى ، الآن صرت رجلا !

ثم تحركت تنفذ أمر حماتها أم الخير بذبح الدجاجات الاربع التى اختارتها فى الصباح ، وهى تقول لمبروكة :

– قلت لك إننى أنتظر حبيبا .

تأملت الشاطر واستدركت :

– أخطأت سامحنى الله ، بل حبيبين .

تأملها حنحوت فوجدها نضرة جميلة كما تركها رغم أنها تقترب من

الستين ، ورأى عينيها الحوراوين أسرتين كعهده بهما ، كان مرسى قد توجه إلى الحقل يخبر والده رضوان الذى جاء مهرولا مع أحفاده ، وكان لقاء ، ورأى الأحفاد حنحوت لأول مرة فى حياتهم بعد أن سمعوا عنه من أم الخير مرارا .

أخرجا الهدايا العجيبة التى أحضراها من بلاد السودان ، وجلست أم الخير تحرك الهواء أمام وجهها بمروحة بديعة من ريش النعام الغالى ، فكانت أول فلاحة فى بر مصر تفعل ذلك . وأخرجا العاج والحرير الهندى والتمر هندى وسبعة أصناف أخرى .

وكان الخبر قد فشا فى القرية كلها فامتلأت الدار بالوافدين للتحية ، وجاءت سنبلة أخته وزوجها أمين وذريتها ، ثم انتقلت الجلسة أمام الدار فوق الارض المرشوشة ، والجميع فى انبهار من حكايات الشاطر وحنحوت فى ممالك السودان وسلطنة الفنج وسلطنة دارفور وارض الشايقية ومنابع النيل والشلالات وأقواس قزح ، حتى أن أحدا لم يشأ النهوض عندما جاء موعد الطعام ، والقلوب هانئة والسعادة مرفرفة . أمرت أم الخير حنحوت والشاطر بعدم التغرب ثانية فواعداها ، ثم نظرت إلى الشاطر وقالت فى صراحة عجيبة :

– يا لطلعتك الجميلة ، من أجلت زواج زهرة أكثر من عام ثم اضطررت للموافقة ، حموها له أفضال علينا لا تنسى . لكن اطمئن ، سأختار لك عروسا لائقة ، أنت أولا ثم حنحوت .

ناما فى المكان المعد لهما منذ أيام ، وفى الصباح سألهما رضوان عما ينويان عمله ، فقال حنحوت :

ــ قررنا أن نعمل بالتجارة ، معنا خبرة طيبة من المال.

فاطرق وقال :

ــ بحر التجارة قارب الجفـاف ، احتكـر البـاشـا لنفـسـه معظم الرزق يا ولدى ، حتى المناسج التى فى بيوت العباد لا يشتري نسيجها إلا عماله ، فكفت أمك عن نسجها البديع إلا لنا . وصارت معظم مراكب النيل ملكه وملاحوها خدما عنده . مابقى حرا إلا القليل مثل أخيك مرسى الذى تضرر كثيرا . وزاد البلاء بوصول أسراب الجراد حاجبة قرص الشمس ، حطت وأكلت كل أخضر !

طالت الأحاديث والسهرات ، ورفرف الهناء على الجميع . ثم وصل القرية أحد عمال الباشا فى حراسة العسكر يريد أن يفرض على الفلاحين شراء النشوق . تصدى له حنحوت قائلا : أن الفلاحين لا يستعملونه . حدجه الرجل فى توعد قائلا : أخذتموه أو لم تأخذوه أنتم ملزمون بدفع ثمنه . إحتد حنحوت لكن الشاطر أخذه بعيدا لأن الفلاحين سبق لهم أن اشتروا النشوق.

مر أسبوع وعاد العامل والعساكر يريد إن يبيعهم خمر العرقى بحجة أنه مشروب يقوى الفلاح فى عمل الزراعة وشغل الشادوف ! هذه المرة دفع حنحوت صاحبه الشاطر بعيدا ثائرا ومنع الفلاحين من الشراء لأن هذا ضد الدين ، وتم له ما أراد ، وانصرف العامل والعساكر بغيظهم !

ولم يكن رضوان مرتاحا لاندفاع حنحوت . لكنه شكا قائلا :

ــ عيد الفطر الأخير لم يكن فيه من علامات الأعياد إلا فطر الصائمين . هذا الباشا يا ولدى جبار أذل المماليك العتاة . أخباره تملأ البلاد ، يسمعها

مرسى فى ترحاله وراء الرزق ويأتى ليرويها لنا . أخبره أطباؤه الطليان أن ذبح البهائم فى البيوت من أهم أسباب انتشار الأوبئة ، فأمر بألا تذبح بهيمة إلا فى مذابحه وبعد التأكد من سلامتها ، وجعل على كل رأس تذبح مبلغا إلى جانب أنهم يأخذون السقط والجلد . هو ينفق على حملته بالحجاز وعلى حفلات الزواج ونحن الفقراء ندفع !

وكان القمر ينير السماء وأم الخير جالسة تتأمل حنحوت والشاطر ، بينما رضوان يحكى كيف أن الباشا زوج إبنته لمحمد بك الدفتر دار متولى شئون المال ، وابنه اسماعيل من ثرية تركية ، وأن هدايا الأعيان وحريمهم انهالت على العرسان بالأوامر ، إن كانت الهدية غير باهظة الثمن ردتها زوجة البـاشـا . ثم حدثت فى الزفة التى شاهدها مرسى أحداثاسماوية ، إذ أطبق الجو وأمطرت السماء فتوحلت الأرض وتزحلق معظم الناس وتلطخوا!

مع سيرة الزواج قررت أم الخير تزويج حنحوت والشاطر فى ليلة واحدة ، كى تدخل الأفراح دارهم من بعد طول كآبة .

ثم جاءت زهرة مع زوجها بكر من الأشمونين لترحب بعمها حنحوت . رآها الشاطر فتلون وجهه بسبب الحب القديم . لم يزد حديثه معها عن التحيات حتى سافرت . لم يكن للمسكينة نسل ، فكلما أنجبت طفلا مات بعد الولادة ، مثلما كانت أم الخير فى بداية زواجها !

ثم إن أم الخير اختارت عروسين .. مبسورة لابنها من الرحم حنحوت ، وغندورة لابنها بالتبنى الشاطر ، وانهمكوا فى الاستعدادات وشراء المفروشات والحصر وحلوى الزفاف . أنفق حنحوت والشاطر دون شح شيدا دارين متجاورين .

بعد أربعة أشهر تحدد اليوم الموعود. وهما لا يملان الحديث عن رحلتهما. شاعت مغامراتهما فى القرية والمنيا ورددها الريس مرسى على طول مجرى النيل المبارك.

ثم جاءت زهرة ثانية مع زوجها بكر للمشاركة فى الأفراح. هذه المرة دق قلب الشاطر صاخبا وضاع منه الكلام. وما كان حالها بأقل منه. لكنها تماسكت وحيته بأدب العفيفة إبنة الأصول. عندما انفرد بها قال فى حسرة:

ــ المفروض أن تكونى أنت عروستى!

ردت فى أسى:

ــ ربما كنت ملكتنى. أنجبت من زوجى أربعة أطفال ماتوا جميعا لأنهم ولدوا ضعفاء، رحمى ضعيف. وبكر زوجى يحبنى ويحنو علىّ.

ولما تحدث مع زوجها بكر وجده رقيق المعشر مهذبا كريما فأحبه.

فى اليوم السابق على الزفاف، والاستعدادات فى ذروتها، والقرية تتأهب لزفتين وطبول وزمر وحلوى وأكل، حدث ما لم يكن على البال. كانوا جالسين إلى العشاء يتحدثون عن الغد وأفراحه، فجاء سبعة من عسكر كاشف المنيا المسلحين ومعهم سراج موقد. طلبوا رضوان، فلما خرج لهم هجموا عليه وقيدوا يديه ومضوا به بين نباح الكلاب ووجوم الجميع.

تم ذلك بسرعة بالغة حتى أن معظم أهالى القرية لم يتجمعوا كعادتهم. بعد الصدمة حل الغضب ثم الحيرة، لأن أحدا لم يعرف السبب. والظلام فوق القرية والنواحى. صار مفهوما أن أبواب المنيا قد أغلقت، ولن يستطيع أحد الدخول.

أمضوا ليلتهم فى هم وكدر. شك حنحوت والشاطر ومرسى فى أن أحد العسس سمعهم وهم يتحدثون عن محمد على. قبل الشروق كانوا أول الداخلين إلى المدينة. اتجهوا إلى بيت الكاشف رأسا، والمدينة ما زالت نائمة. منعهم الحراس من الدخول. ارتفعت أصواتهم فى غضب وهياج، خرج أحد الصناجق يستطلع الأمر. عرف سبب مجيئهم فقال فى اقتضاب:

ــ نفذنا أوامر أفندينا عزيز مصر

ــ وهل يعرف عزيز مصر فلاحا عجوزا مثل أبى رضوان!

ــ الباشا يعرف كل شىء

ــ فلماذا أخذ تموه؟

ــ الباشا وحده يعرف. نحن لا نناقش أوامره. انصرفوا من هنا وإلا أمرت العسكر بجلدكم

انصرفوا موقنين أن الأمر لا علاقة له بأحاديثهم عن محمد على وإنما بعامله الذى جاء يبيع لهم خمر العرقى وتصدى له حنحوت ومنعه. وقفوا حائرين عاجزين إلى أن خطرت لمرسى فكرة. أخذ الشاطر وحنحوت وتوجه بهما إلى بيت الصراف المختص بقريتهم. قابلوه وما عرفوا إلا أن الأوامر هى بالفعل أوامر محمد على، وهذا ما يدهشه ويحيره. حك ذقنه وقال:

ــ هذه أول مرة فى حياتى أسمع أن الباشا الوالى يستدعى فلاحا، فى الأمر سر غامض!

خرجوا من عنده. توجه مرسى إلى مركبه. عاد حنحوت والشاطر إلى القرية بخطوات الخيبة والغم، والقرية كلها فى حزن وهم، وأكثر البيوت حزنا بيوت رضوان والعروسين، لأن الزفاف تأجل. تكرر نزول حنحوت وصاحبه وأخيه إلى المنيا من غير طائل

بعد ذلك بأسبوع جاءت غبرة العساكر من جديد ، يسحبون معهم جوادين. نزلوا أمام الدار وطلبوا حنحوت والشاطر بالاسم. وقفت أم الخير أمامهما تحميهما بجسدها الرقيق. تجمع أهل القرية غاضبين ، فوجئوا برئيس العسكر يترجل مبتسما فى أدب جم:

ـ اطمئنى يا هانم. أفندينا يريدهما وأوامرنا أن نعاملهما معاملة ضيوفه.

فكان أول عسكرى يرونه مبتسما فى قريتهم ويخاطب فلاحة بلقب هانـم !. أشار إلى الجوادين ، فتقدم حنحوت أولا قائلا للشاطر:

ـ على الأقل نعرف سر اختفاء والدنا رضوان.

انصرفا مع العسكر ، وأم الخير ومبروكة والأولاد والبنات ، وجميع القرية يودعونهما بدموع عديمى الحيلة ، حتى اختفت الغبرة فى الأفق البعيد.

(١٥)

ما قاله الباشا الحوت للشاطر وحنحوت

ما إن وصل حنحوت والشاطر إلى مدينة المنيا فى حراسة العسكر حتى وجدا أحد الغلايين القوية فى انتظارهما على النيل أمام بيت الكاشف. بمجرد أن أصعدهما رئيس العسكر إليه ، تحرك بهما على الفور صوب الشمـال ، جلسا فوق الغليون لا يفهمان شيئاً ، الجميع يعاملونهما فى غاية التأدب ، وهما فى غاية الذهول. فى وقت الغداء احضروا لهما طعاماً فاخراً ، رئيس الغليون يجاملهما ويلاطفهما. ومن شدة حيرتهما أصيبا بعدم التفكير فجلسا واسترخيا وراحا ينقلان أنظارهما من مياه النيل المبارك إلى طيور السماء إلى القرى التى يعبرون من أمامها ، وعند الليل كانوا يرسون فى ثغر مصر القديمة ، حيث وجدا بها حامية مقيمة على الشاطئ.

رحب بهما رئيسها وأعد لهما جوادين ، ورافقهما مع ثلة من الجنود إلى أحد البيوت القريبة داخل المدينة ، حيث باتا ليلتهما فى نوم متقطع من شدة التعب والارهاق والتوتر.

فى الصباح صحبهما إلى ثغر بولاق ومنه ركبا غليوناً قوياً من غلايين الباشا سار بهما إلى ثغر رشيد على البحر المالح ، فباتا ليلة ، وعند الفجر ركبا إلى الاسكندرية حيث كان الباشا هناك ، انزلوهما فى قصر بديع يحرسه العسكر من كل جانب ، وإن كانوا قد تركوهما يتجولان خلال القصر وبستانه كما يشاءان ، مع إظهار الاحترام الزائد لهما.

ظلا فى هذا القصر ثلاثة أيام لا يحادثهما أحد أو يجيب عن أسئلتهما . فى اليوم الرابع جاء من يصحبهما إلى قصر الباشا المطل على البحر المتوسط ، وتسلمهما عند الباب الخارجى ضابط كبير أبيض البشرة فى احمرار ، ضخم البدن ، تبعاه خلال بستان واسع عامر بأشجار التين وكروم العنب وأصناف الزهور ، وسار بهما عدة دقائق حتى باب القصر ، ودخلوا فإذا بالقصر مشيد كأفخر ما يكون ، مذهب الجدران عالى السقف ، ثم صعد بهما الدرج إلى الطابق الأعلى وأدخلهما غرفة وتركهما بعد أن أغلق عليهما الباب ، ولم يملك أحدهما القدرة على الحديث إلى الآخر ، ولم يجد فى ذهنه ما يريد أن يقول .

بقيا على هذه الحال أكثر من ساعة ، ثم حدثت حركة وفتح الباب وظهر ضابط آخر أحمر اللون شركسى أو تركى أشار لهما أن يتبعاه ، قادهما عبر ممرات طويلة على جانبيها التماثيل المذهبة والمفضضة ، والمرايات الضخمة من الأرض إلى السقف العالى ، والنجفات والثريات متدلية ، والحراس وقوفاً مثل التماثيل كل عدة خطوات ، حتى أوقفهما أمام باب مرتفع وعريض ودخل وغاب ثم عاد يشير لهما بالدخول .

مثل المخدرين دخلا ، فوجدا غرفة فسيحة جداً ، وممتدة ، يجلس الباشا عند آخرها ومن ورائه جدار كامل الزجاج محاط بالستائر ، وزرقة السماء من ورائه ، وأصوات الموج مسموعة ، خيل إليهما أن المسافة إليه طويلة جداً بعد وقفة جمود تحركا صوبه ، شاعرين بأن المسافة لن تنتهى ودوار خفيف يصحب خطوهما ، مشياً وتقدماً ، ونظرات الباشا فى عينيهما وهو يدخن الشبك الذهبى .

أحسا رجفة الرعب ، بعد وقت حسباه دهراً تسمرا على بعد أمتار منه ، فتفحصهما بنظرات قاسية سحبت الدماء من جميع أطرافهما ، ثم أشار لهما أن

يقتربا فتقدما حتى وقفا من جديد . تركهما جامدين إلى أن أشار لهما أن يجلسا ، فجلسا فوق مقعدين وطيئين بلا مساند ، وبقى يدخن ويخرج الدخان من فمه وفتحتى أنفه حتى شعرا بالأرض تدور ، ذكرتهما عيناه بعينى بونابرته عندما وصل إلى قصر الألفى بميدان الأزبكية لأول مرة ، كان يبدو مثل نمر يستعد للانقضاض ، لكن بونابرته كان فى الثامنة والعشرين وقتها ، والباشا فى الخمسين تقريباً الآن، وفى عز مجده بينما بونابرته منفياً فى جزيرة صغيرة خاملة الذكر (١).

سأل محمد على عن أبيهما المدعو حتحوت ، فابتلع ريقه وقال بصوت راجف:

ــ أنــا .

بعد فترة صمت وتدخين وتأمل قال له :

ــ أبوك رضوان بخير اطمئن ، وهو ضيف لدى كاشف المنيا .

فشعر بارتياح ، ودام الصمت إلى أن سمع الشاطر نفسه يسأل :

ــ لـماذا ؟

ثم سكت مرعوباً من نظرة الوالى القاسية ، لما طال صمته أمره الباشا أن يكمل سؤاله ، فقال :

ــ لماذا أخذتموه ؟

---

(١) جزيرة سانت هيلانة التى سوف يموت بها العام التالى ١٨٢١.

ـ لأنى أمرت .

التفت إلى حتحوت :

ـ سوف يبيت أبوك الليلة فى داره ، هل فهمت معنى ذلك ؟

ففهم أن باشا مصر يريده أن يكون طوع أمره وإلا نكل بأسرته ، لكنه لم يتكلم . وقال محمد على :

ـ سيرة رحلتكما على لسان الكافة فى أنحاء الصعيد ، كلامكما كثير ، والكلام الكثير خطر .

فأطرقا فى خوف ، حتى قال بعد مزيد من التدخين :

ـ عندى تقرير عنكما جاءنى من بربر وقبل وصولكما إلى مصر ، أرسله أحد عمالى .

دهشا ، وخيل لهما أنه ابتسم وقال :

ـ تحدث تقرير عاملى عن رحلات وأسفار لكما فى دارفور وعبر الصحارى والأدغال حتى أعالى النيل ثم على مجراه من حلفاية حتى بربر .

قال حتحوت مندهشاً :

ـ لكننا لم نقابل أحداً .

لكن الشاطر قال :

ـ رئيس القافلة الذى قابلناه فى بربر وكان متجهاً إلى سنار .

ـ عظيم يا ولد ، كان أحد عمالى .

ـ جاسوس لجنابك .

ـ أحد عمالى يا ولد ، لى عمال يذهبون دائماً إلى السودان وبلاد الشام ، وحتى بلاد السلطان ذاته ، والآن حدثانى عن جميع ما مر بكما منذ وصولكما إلى بلاد النوبة .

فراحا يتبادلان الحكى ، وباشا مصر والحجاز يستوقفهما كل حين يسأل أسئلة دقيقة عن الناس وعاداتهم وما يعجبهم وما يغضبهم ومدى خضوعهم لحكامهم ، والأحزاب المتنافرة هناك ، وعن الجيوش فى كل مملكة حلّو بها ، وعن قوات الشايقية ونوعية سلاحهم وكفاءتهم القتالية ، وسلطان دارفور وجيوشه وأخوته المتنابذين ومساجين جبل مرة ، ونظام الحكم عنده خاصة الحواكير التى وزعها على رعاياه بعد أن جعل نفسه مالكاً لجميع الأرض بما عليها ، واهتم تماماً عندما حدثاه أن الجراحة فى دارفور متقدمة جداً بسبب كثرة الحروب ، خاصة التجبير ولأم الجراح ، حتى أن منهم من يزيل الماء الأبيض من العيون !

لما سألهما عن قبائل الدنكا وعقائدهم وأسلحتهم اختصروا الإجابة من أجل صاحبهم إدريس الذى صار اسمه آبوت حامل الرمح المقدس ، سألهما عن مملكة الفنج فقال الشاطر :

ـ لم نذهب إلى عاصمتهم سنار ، عمالك وصلوا ، لكننا سمعنا ـ والله أعلم ـ عندما كنا بشندى أن ملكهم الشاب ضعيف مهزوز ، يميل إلى الطيش والملذات ، يحب التدليك بكميات كبيرة من دهن الفيل ظناً منه أن هذا يجعله قوياً مثل الفيل ، وأنه شغوف بالحريم البدينات !

رمقه بنظرة غامضة من عينيه الباردتين متوقفاً عن التدخين . أمسك بمسبحة غالية وقال :

ــ وما عيب البدينات ؟ أكمل ..

ــ وإن الشخصية القوية هناك هو محمد ولد عدلان ، أما السلطان فقد صار إمعة ، ومحمد هذا سليل الشيخ عدلان الذى كان فى حياته شخصية قوية ، وكان يعيش خارج سنار ، ويقال أنه كان زعيماً حقيقياً من زعماء الصحارى ، يزدان مثلما يفعل ولده بثوب من الساتان القرمزى وفى حزامه خنجر مطهم بالذهب ، وفى اصبعه خاتم ضخم من الياقوت الأزرق وكأنه أمير مملوكى ، ويحف به العبيد المقاتلون ، له فرقة من الخيالة مشهورة جداً فى سنار ، وفى جميع المهالك الخاضعة فى شندى والدامر وبربر ، يمتطون صهوات أربعمائة جواد عربى أصيل . وكان يمتلك قميص زرد من فولاذ يغطيه ليلاً بجلد غزال لحمايته من ندى الليل ، وله خوذة نحاسية وسيف عريض له غمد من الجلد الأحمر . هذا ما سمعناه ولم نره . وجميع هذا لا يصمد دقيقة واحدة أمام مدفع قوى من مدافع أفندينا .

ابتسم محمد على وهو يترك المسبحة :

ــ الانتصار لا يكون بالمدافع وحدها ، بالذكاء .. عندما كنت جندياً .. صغيراً فى بلدتى قولة ، وهى من ثغور مقدونيا بلد الاسكندر الأكبر ، حدث أن رفضت إحدى القرى دفع ما عليها من ضرائب وجاهرت بحمل السلاح ، وأخفق عسكر عمدة مقدونيا فى السيطرة عليها . فأخذت أنا عشرة من رفاقى الأقوياء وتوجهت إليها .ذهبت رأساً إلى مسجدها وتظاهرت بالصلاة فاطمأنوا إلى . من الجامع أرسلت من يستدعى أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلتهم فى أمر يخصهم ، فلما حضروا قبضت عليهم وكبلتهم بالسلاسل وهددت بقتلهم ، فامتنع الأهالى عن المقاومة . أخذت

الرهائن الأربع إلى قولة ، واضطرت القرية إلى دفع ما عليها لإنقاذهم . وهكذا هزمت كثرتهم بذكائى . فرح العمدة وزوجنى من قريبة له مطلقة وثرية هى أم ابراهيم وطوسون واسماعيل ، واسماعيل ولدى سوف تعملان معه . هل فهمتما مغزى القصة ، بكثير من الذكاء وبعض القوة يحقق الإنسان مايريد

صمت مفكراً وهو يعبث بعلبة تبغ ثمينة ثم قال :

ــ وبعض الحظ طبعاً . عندما جئت إلى مصر أول مرة كنت ضمن الحملة التركية التى نزلت شواطىء أبى قير لطرد الفرنسيين . بخطة ذكية جداً أباد نابليون معظمها ، وأوشكت أنا على الغرق لولا ان انتشلنى زورق انجليزى مصادفة . ضربة حظ ، ولو عرف الانجليز أننى سوف احكم مصر لتركونى أغرق . كانوا يحبون الألفى وأخذوه إلى بلادهم مدة عام أو أكثر ودربوه ثم أعادوه . لكن الحظ خدمنى ومات قبل وصول حملتهم الخائبة التى هزمتها فى رشيد !

أطرق حزيناً :

ــ خدم الحظ أيضاً ابنى طوسون فى حرب الحجاز . كان الوهابيون قد تمردوا على السلطان المعظم وفشل جنوده فى استعادة الحجاز منهم ، لجأ إلىّ فأرسلت ابنى طوسون بقوات مناسبة ، بعد كر وفر وشراء الذمم بالمال نجح فى فتح مكة والطائف . وكنت احتفل بهذا النصر فى القلعة عندما جاءنى قنصل فرنسا وأخبرنى أن نابليون بعد أن هيمن على بلاد النمسا أخذ جيوشه وزحف إلى بلاد الروس واحتل عاصمتهم موسكو .

فرحت لأننى كنت أحب نابليون وأمرت باطلاق مدافع القلعة ابتهاجاً ،

لكن سرعان ما انعكس حظه ، وضاع حظ طوسون فى الحجاز ، ثم خدمنى الحظ ، فكما مات الألفى فى اللحظة الحاسمة مات سعود كبير الوهابيين وحل ولده عبد الله محله ولم يكن له بأسه .. نابليون المسكين الآن صار منفياً فى جزيرة سانت هيلانة !

قال شارحاً :

ـ بالذكاء والمال وبعض الحظ والقوة يحقق الرجل ما يريد .

أطرق صامتاً برهة ودمعت عيناه :

ـ لكننى فقدته ، ابنى الحبيب طوسون وهو دون العشرين . تعب كثيراً فى حرب الحجاز فأرسلت ابراهيم مكانه . بعد أن عاد المسكين أذنت له بالتوجه إلى رشيد للاسترواح . أخذ معه المغنين والعازفين وبعض الجوارى والغلمان الترك الملاح . هناك أصيب بالطاعون ، تململ المسكين عشر ساعات ومات وانتفخ جسده وازرق ، وأعادوه إلىّ بالقاهرة فى صندوق ، أمرت بوضع تاج الوزارة على رأس نعشه ، وسرت وراءه أبكيه ، ورجال يشرون القروش والدراهم وينحرون الجواميس الكبار لتوزيعها على الفقراء رحمة عليه !

استرد صرامته فجأة وسألهما ان كانا يلعبان الشطرنج أو النرد . انكرا ذلك . قال للشاطر :

ـ خلاصة قولكما أن أهل السودان طيبون وحكامهم مكروهون !

ـ هو كذلك يا سيدى

حدجه بنظرة فاحصة ثم عاد يستجوبهما بأسئلة أدهشتهما حتى أحسا أنه كان معهما . وبقيا صامتين حتى قال :

ـ الاخباريات عندى كثيرة لكنكما امتزتما عن الآخرين بوفرة المعلومات وكثرة التفاصيل عن الناس ، أنتما أكثر ذكاء وأنا أحب النجباء . منذ شهور استدعيت هنا رجلاً يعرفكما هو محمد بن عمر التونسى ، كان معكما فى رحلة دارفور ، حدثنى طويلاً عنها ، لقد عاش هناك مدة طويلة ، كلمنى حتى عن طريقة زواجهم ، لكنكما تفوقتما عليه بزيارة الدنكا وأعالى النيل وحلفاية وحتى أسوان . التونسى عينته واعظاً فى جيشى بمرتب طيب ، وأنتما سوف أكلفكما بعمل قريباً ، وتكليفى أمر لا يرد .

سأله حتحوت عن هذا التكليف فزجره :

ـ لا تسأل يا ولد . ستعرفان فى حينه .. كنتما تستعدان للزواج أليس كذلك ؟

ـ نعم ، قبل أخذ أبى بيوم

ـ ستعودان إلى قريتكما وتمكثان بها ولا تغادراها ، وبإمكانكما الزواج الخميس القادم ، لكما هذا .. لكن حذار أن تتكلما مع أى إنسان بما دار هنا .

ـ وإن سألونا أين كنا ؟

ـ فى دار كاشف المنيا رهن التحقيق .

ثم أمر لهما بألف ريال ، وأدار رأسه ناحية الشاطئ ، وقال :

ـ سوف أقيم هنا ترسانة لبناء السفن الكبيرة عابرة البحار فى مكان الترسانة القديمة ، سوف أبنى سفناً أقوى من سفن الأتراك .

احتارا بماذا يردان . قال :

ـ جاءنى منذ مدة شخص مصرى اسمه حسين عجوة ابتكر مضرباً

للأرز يدور بأسهل طريقة بواسطة ثورين بدلاً من أربعة كما فى المضارب القديمة ، حمل معه نموذجاً من الصفيح أعجبنى وأنعمت عليه بدراهم وأمرته بتنفيذه فى دمياط وأعطيته حاجته من الأخشاب والحديد ، فنفذه وصح قوله وأمرته بتكرار ذلك فى رشيد . فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، لهذا أمرت بإنشاء مدرسة تعلم أبناء البلد الحساب والهندسة وعلم القياسات والارتفاعات والمساحة ، وأحضرت لهم معلمين أجانب ورتبت لهم شهريات وكساوى وأسميتها المهندسخانة . قلت لكما انى أحب النجباء .

ثم شدد عليهما:

ـ سوف تعملان مع ولدى اسماعيل ، وأريدكما أن تكونا من رجاله الأوفياء . اربطا لسانيكما ولا تتكلما عن السودان بعد ذلك ، فأنتما ستكونان مراقبين فى كل خطواتكما .

خرجا من عنده بعد الانحناءات والاحترامات الواجبة ، والرعب يملأ قلبيهما وأيضاً الانبهار . قبل الانصراف فوجئا برجل ضخم يرحب بهما ، من اهتزاز لغده تذكرا أنه رئيس القافلة الذى أسكرهما فى بربر ليعرف من أى بلدة هما . انتحى بهما جانباً وسألهما عما دار بينهما وبين الباشا . كاد لسان حنحوت أن يفلت لولا أن الشاطر سبقه قائلاً:

ـ ليس لدينا ما نقوله لك أو لغيرك!

لما أخفق الرجل فى استخراج معلومة واحدة منهما بش لهما واهتز لغده قائلاً:

ـ نجحتما فى الاختبار . إلزما الصمت كما أمركما أفندينا .

قال له الشاطر:

ـ سمعنا كثيراً عن مذبحة حدثت للمماليك بالقلعة ، بالله عليك يا سيدى قص علينا حقيقة ما جرى .

تقدمهما سائراً فتبعاه وهو يقول:

ـ أفراد قلائل الذين يعرفون الحقيقة مثلى . وقتها كان المماليك بالمنيا يمنعون غلال الصعيد عن القاهرة ، وهذا أمر خطير لا يمكن تجاهله . بذكائه الخارق أعطى الباشا الأمان لهم ، فرجع معظمهم إلى القاهرة وقد زهدوا الكر والفر . آمنوا للزمان واشتروا الرياش والقيان . وكان السلطان قد عجز عن استرداد الحجاز من الوهابيين وطلب أن يقوم الباشا بذلك . وافق وأعد جيشاً على رأسه إبنه المرحوم طوسون . ثم رأى أن يواكب خروج موكب الجيش من القلعة ساعة سعد ، وطلب من المنجمين قراءة الطالع لتحديد موعد السعد هذا . اختاروا الساعة الرابعة من يوم الجمعة أول مارس ، وكنا فى سنة ١٨١١ .

فلما كان يوم الخميس آخر فبراير حتى طاف الجاويشية يعلنون عن الموكب ويدعون الأمراء بدعوات ، فحففوا شواربهم وذقونهم وتوافدوا . فلما انتظم الموكب يوم الجمعة فى ساعة السعد تقدم أنصارنا حتى تجاوزوا البوابة ، فجأة أغلقت على المماليك لينهمر الرصاص عليهم من فوق الأسوار ويفنيهم عن آخرهم وهم فى كامل أبهتهم . فى نفس الساعة كان الألبان فى المدينة يقتلون زملاءهم ، إلا من فر أو اختفى .

توقف قرب الباب الخارجى مكملاً بصوت أعلى من صوت الموج :

ـ كان الباشا يجلس فى بهو الاستقبال ساكناً . عندما دقت الساعة الرابعة صار قلقاً . كنت قريباً منه وسائر القاعة فى صمت ، إلى أن بدأ اطلاق الرصاص فوقف جامداً شاحب الوجه ، مع تخافت الطلقات دخل عليه طبيبه الايطالى وقال مهنئاً « قضى الأمر يا باشا واليوم يوم سعدك » ، فطلب بعض الماء وبلل ريقه الجاف ، وأباح لعسكره نهب بيوت المماليك ثلاثة أيام ، وكان من بين القتلى مرزوق بن ابراهيم بك .. توكلا على الله وتذكرا جيداً ، سعيد ذلك الرجل الذى يرضى عنه مولاى ، بشرط أن يكون مطيعاً وفياً .

خارج القصر وجدا جوادين فى انتظارهما بصحبة ضابط قادهما إلى رشيد ومنها بالغليون إلى القاهرة . استأذنا فى قضاء يومين بها فسمح لهما . عندما انفردا تساءلا عما يريده الباشا منهما ، ولحن حنحوت أن للسودان علاقة بما جرى.

فى تجوالهما أحسا خوف الناس من العسس ورعب باعة الخضار واللحم والبقالة من المحتسب المسئول عن الأسعار والجودة . وجدا طرقاً جديدة ، وأيضاً أحياء كانت مزدهرة وانحطت ، وقد أنشأ الباشا أو مازال ينشىء صناعة السواقى والصابون والأوانى النحاسية والبارود والمدافع والقنابل ، وكانا قد لمحا بعض ما عمره بالاسكندرية الجميلة . حتى أنه حجر على الطوب والبنائين والفعلة واحتكرهم له ولخاصته !

اعترف حنحوت محتاراً :

ـ هذا الرجل عالى الهمة ، أنشأ الكثير وينشىء . جعل شوارع القاهرة آمنة . ولو وفقه الله إلى شىء من العدالة على مافيه من العزم والرياسة والتدبير لكان أعجوبة زمانه !

فرد الشاطر :

ـ لا تنس أنه سجن والدك دون ذنب حتى تنقاد له دون نقاش . أساليه بغيضة وعماله ملاعين ، وطموحه طموح الفرس الجامح ، إن لم يشكمه أوقعه أرضاً لدى أول غلطة !

وكانا قد سمعا همساً أن الباشا له وكلاء فى موانىء فرنسا وانجلترا ومالطة وازمير وتونس والبندقية واليمن والهند ، أعطاهم أموالاً كبيرة ليجلبوا له البضائع اللازمة لمشاريعه ، وليتقصوا أخبار هذه البلاد . وأنه جلب من بلاد الانجليز آلة عجيبة مصنوعة تنقل الماء من أسفل إلى أعلى دون مشقة اسمها الطلمبة . وأنه عمل ديواناً للموازين بالقلعة لضبط البيع والشراء ، فيزنون الصنج التى يبيع بها البائع ، إن كانت زائدة أو ناقصة صادروها ، وإن كانت مضبوطة ختموها ، وجميع ذلك لمنع غش الباعة . وكلما حل الطاعون بالبلاد عمل كورنتيلة على طريقة بونابرته يحجر فيها على القادمين إلى المدينة أربعين يوماً للتأكد من خلوهم من الأوبئة [1] .

بعد أن تعبا من الطواف ، واستحما فى الحمام العمومى ، وناما فى أفخم الخانات ، واشتريا أفخر الثياب والهدايا ، توجها عائدين بالغليون إلى مدينة المنيا ، وهما بين الاعجاب بهمة الباشا والكره لظلمه .

وكان محمد على قد وَفَى بوعده . فوجدا رضوان فى داره عزيز مكرماً ، حتى أن شيخ القرية راح يتودد إليه ويسأله عن سر أخذه وإعادته ، فلم يخرج

---

(١) الحجر الصحى . وكورنتيلة مشتقة من رقم أربعين بالفرنسية .

بإجابة لأن رضوان نفسه لم يكن يعرف . أما حنحوت والشاطر فلزما الصمت تماماً!

يوم الزفاف اجتمعت القرية مبكراً تحتفل بالعريسين والعروسين ، وتم الزفاف على خير ، ودخل حنحوت على عروسه ميسورة ، والشاطر على عروسه غندورة ، وكان ان علقت الاثنتان منهما فى الليلة نفسها ، وبقى العريسان فى القرية لا يبرحانها ، ولا يتحدثان إلا فى الزراعة والفلاحة ، حتى أمها وأبوهما ومرسى ومبروكة وسنبلة لم يعرفوا شيئاً عن مقابلتهما للباشا ، وكفا عن حديث السودان وكأنهما لم يسافرا إليه .

مرت الأيام وأم الخير تظن أن الشاطر وحنحوت يعيشان أسعد أيامهما ، بينما كان القلق يعكر صفوهما ، بعد ثلاثة أسابيع وثلاثة أيام وصل القرية رجل غريب متنكر فى ثياب الفلاحين ، وإن كان حذاؤه يشير إلى أنه ليس بفلاح ، ظل يراقب دارى حنحوت والشاطر المتلاصقتين ، حتى رأى الشاطر يخرج ويبتعد عن داره ، فاقترب منه وهمس له خلسة :

ــ غداً صباحاً تسلم نفسك أنت وزميلك إلى كاشف المنيا .

ثم أسرع مغادراً القرية دون أن يلحظه أحد ، فاكتأب الشاطر ، ولم يفهم السر وراء هذا الغموض ، لكنه فى الصباح نفذ الأمر . ورحل مع حنحوت إلى المدينة بعد أن ودعا زوجتيهما وأم الخير ورضوان ومرسى وسنبلة ومبروكة والأنجال والأحفاد والأنساب والأصهار والأحبة كافة .

(١٦)

حرب الوحوش من أجل القروش

ظهر حمل غندورة وزوجها الشاطر بعيداً عنها ، وانتفخت بطن ميسورة وهى محرومة من رجلها حنحوت . مرت شهور الحمل . قبل الوضع بيومين وصلا فى أجازة قصيرة . وضعت ميسورة لحنحوت ولداً أسماه إدريس على اسم صاحبه الدنكاوى . لكن الفرحة لم تتم . تعثرت ولادة غندورة إلى اليوم التالى ، تعبت كثيراً وأرهقت . فشلت معها فنون الداية . عند الظهيرة فارقت الحياة بحملها . بكاها الشاطر ، حزن الجميع من أجله، حتى الذين لا يعرفونه من القرى المجاورة . أخذته أم الخير فى حضنها ، ربتت عليه فى حنان :

ــ مسكين يا ولدى . ربنا معك يا حبيبى .

فى هذه المدة كانا قد التحقا بإحدى الثكنات الجديدة ، يتدربان على بعض فنون العسكر . وجاءت أنباء حرب الحجاز تزف بشرى استسلام زعيم الوهابيين عبد الله بن سعود . أرسله ابراهيم باشا إلى والده أسيراً ، فأبقاه مدة بالقاهرة ومدافع القلعة تضرب بهجة ، ثم أرسله إلى السلطان العثمانى بتركيا ، الذى علقه على باب همايون وقتل بقية أتباعه وعلقهم فى نواح متفرقة !

فتح طريق الحجاز فطلب النقيب المنفى بدمياط عمر مكرم الإذن له

بالحج فأذن له وتركه يعود إلى القاهرة قائلاً : « إنما أبعدته خوفاً عليه لأنه بمثابة أبى » . ما إن وصل إلى بولاق منذ شهور ، حتى ثبت أن محبته فى قلوب الناس مازالت راسخة . التفوا من حوله يهنئونه ، فآثر الاعتكاف تجنباً لحقد الباشا ، وحسناً فعل (1).

عاد إبراهيم باشا فاتح الحجاز ومحرر الحرمين ، فعمل له والده موكباً عظيماً ، دخل من باب النصر مثل نابليون ، وضربت المدافع فى كل وقت ، ودام الغناء والاحتفال سبعة أيام بلياليها .فانتقل حنحوت والشاطر إلى حاشية اسماعيل باشا بن محمد على حيث التقيا برفيق رحلتهما إلى دارفور محمد بن عمر التونسى ، وجلسوا يحتسون القهوة ويسترجعون ذكرياتهم مع سلطان الفور محمد فضل وجبال مرة وكهوفها الرهيبة .

قبل أن يتم الطفل ادريس بن حنحوت شهره الخامس ، كان جيش من أربعة آلاف مقاتل يحتشد فى مصر القديمة على رأسه اسماعيل . تجول حنحوت والشاطر بين الوحدات ، فوجداها مجموعات من حثالات الأوباش ، بشكل الأتراك الانكشارية والألبان الارناءود نصفها ، بطرابيش غير مفرودة خضراء أو حمراء ، سترات قصيرة زرقاء موشاة بشرائط مذهبة ، سراويل منتفخة متموجة ، ومراكيب حمراء . ووراء كل رجل منهم عبد وحمار . وجنود آخرون يرتدون جلاليب بيضاء وجوارب طويلة . وعلى صدور الدلاة الأكراد دروع من فولاذ ، فوق رءوسهم غطاءات مخروطية

(1) وصل إلى بولاق فى ٩ يناير ١٨١٩ (وبعد ثلاثة أعوام ثارت القاهرة ضد محمد على بسبب ضرائب جديدة ، فظن أن عمر مكرم وراء الثورة فنفاه إلى طنطا حيث مات فى ٢٥ أبريل ١٨٢٢) .

الشكل مثل الطراطير ، يمتطون خيولاً مغطاة بحشايا تقاوم السهام . إلى جانب ما يقرب من ألف بدوى مزودين بخوذات وزرد ، وحشد من الأتباع يرتدى كل منهم ما شاء . جميعهم على أهبة التوجه إلى الحرب ، أملاً فى الأسلاب ، وطمعاً فى وعد محمد على لهم ، أن يعطيهم خمسين قرشاً نظير كل أذن بشرية يقدمونها بعد كل معركة ، فيكون ثمن الضحية مائة قرش .

كانوا يجهلون كل شيء عن الحرب ووجهتها ودوافعها ، لذلك كثر اللغط والكلام بمختلف ألسنتهم ، وتحدث بعض اتباعهم بالعربية ، كل واحد يذكر لصاحبه ما فهمه من سيده . حتى سمع الشاطر وحنحوت عشرات الأقوال: ينوى الباشا فتح السودان للقضاء على المماليك المنقطعين بدنقلة لأن أمرهم استفحل واستكثروا من شراء العبيد وصنعوا البارود والمدافع ، الباشا يريد أخذ بلاد دارفور لاستجلاب العبيد ، يطمع الباشا فى معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ببلاد السودان ، غرضه ضم سنار عاصمة الفنج . لكن أحداً منهم لم يخطر على باله أهم أهداف الباشا ، إبعاد هؤلاء العسكر بعد أن صاروا خطراً عليه بسبب تكرار تمردهم ، وإنشاء جيش من الفلاحين .

رغم عدوانية الجميع فإن أحداً منهم لم يجرؤ على التعرض لحنحوت أو الشاطر بأية بذاءات ، لعلمهم أنهما من حاشية قائد الحملة اسماعيل نجل محمد على . وكل يوم يجتمع المزيد من العسكر والأتباع . وتأتى حمولات البارود والمدافع المصنوعة ببلاد الصعيد والشرقية ، بصحبتها اللغمنجية الذين يبثون الألغام وينسفون الصخور ، وعشرة مدافع خفيفة ، وواحد ثقيل ومدفعا حصار ، وتشكيلة عجيبة من ثلثمائة رجل ما بين مدفعى ومعاون وحامل ذخيرة ، على رأسهم أمريكى اسمه انجلش .

وجميع ذلك يتم بكل دقة وهمة . بينما الباشا فى الاسكندرية كأن الأمر لا يهمه . إلى أن جاء الموعد المنشود ، فركب المشاة بأحمالهم فوق المراكب الشراعية والغلايين ، انحدروا فى النيل بغيتهم أسوان . تقاطروا على مدى شهرين تباعاً . بينما سار الفرسان ورجال المدفعية على البر ، تتقدمهم طليعة من خمسمائة فارس . حتى خلا بر مصر القديمة منهم . وكانت المراكب مصنوعة خصيصاً لهذه الحملة ، بحيث يمكن فكها إلى أجزاء ونقلها فوق الدواب فى منطقة الجنادل ثم إعادة تركيبها وتعويمها .

أما حتحوت والشاطر فقد ارتحلا بعد ذلك بيومين ضمن حاشية اسماعيل قائد الحملة ، وهما فى غاية العجب من أن يقود هذا الفتى حملة مثل هذه . كان أقل من العشرين ، على قدر من الذكاء لكنه لا يصل إلى حد ما قيل عن أخيه الأكبر ابراهيم ، به عاهة فى سقف حلقه ، تجعل كلامه عالياً مضغوماً يكاد يكون غير مفهوم ، به عنف وتعاظم وسرعة غضب ، لكنه كان مع حتحوت والشاطر وباقى الحاشية مهذباً مجاملاً كريماً إلى حد العطف . وكان يخشى أباه إلى حد الرهبة .

تحركوا ، تحيط به الأبهة ، يصحبه متاعه الفاخر بالنيل . حتى وصلوا مدينة المنيا فارتاحوا . ورفض المبيت فى ضيافة الكاشف . جعل خدامه ينصبون خيمته العظيمة ، فبدت سميكة القماش مصبوغة باللون الأخضر ، سقفها قبة عظيمة مذهبة ، تحيطها كرات أخرى أصغر حجماً ، رحبة من الداخل فى اتساع غرفتين فسيحتين ، مبطنة بالستائر الحريرية . وعلى الأرض البسط والحشايا ، وتتدلى من سقفها ثريا كبيرة من مصابيح البترول الزجاجية. جلس يستريح مربع الرجلين على أريكة ومن حوله كبار ضباطه وحرسه الخاص ، وكاتموا أسراره وجراحوه من اليونانيين والايطاليين ، وفى

أحسن مكان جلس مهرجه الخاص يرمقه ويطلق ملحه من حين لآخر ، كثيراً ما تكون بذيئة فيضحك لها الجميع ، ولم يجرؤ أحد الضباط الكبار على الغضب من سخرياته إن هو هزأ به ، وظل كاشف المنيا التركى عن قرب يرمق اسماعيل عله يشير بطلب .

ما إن وجد حتحوت نفسه بالمنيا حتى خفق قلبه حنيناً إلى زوجته ميسورة وطفله إدريس وجميع الأسرة ، وامتلأت عيناه شوقاً ، وامتلأت عينا الشاطر بدموع الحزن على زوجته غندورة التى ماتت بجنينها ، وحاولا الاستئذان من اسماعيل لزيارة قريتهما لكنه لم يأذن ، لأنه كان ينوى استئناف السير قبل الفجر بساعتين ، مستفيداً من ليل الصعيد اللطيف ونسمة فجره المنعشة .

ثم استراحوا فى أسيوط فى بيت حاكم الصعيد ، وبعد ذلك فى اسنا بلدة هادى شقيق زيادى ، حيث كان فى انتظارهم ثلاثة آلاف من الابل للسير بها فى موكب طويل مع الفرسان والاتباع ، بحيث من كان فى أوله لا يقدر أن يرى بعينيه المجردة آخره .. إلى أن التقى الجميع عند أسوان ، من جاءوا بالمراكب ثم الابل ومن جاءوا بالخيول ، فكان حشداً هائلاً لم تشهد مثله أسوان حتى ولا أيام الجنرال ديزيه عندما كان يطارد المماليك !

سمح اسماعيل للشاطر وحتحوت أن يتجولا على حريتهما بين الجنود ، فطافا هنا وهناك وتحدثا مع الكثيرين لشغل الوقت ، وعندما عادا كان اسماعيل على مائدة الغذاء فدعاهما إلى المشاركة ، وكان لطيفاً ، وإذا به يسألهما عما سمعاه من العسكر فى أثناء تجوالهما ، فأخبراه بجميع ما يريد ، وكانت أسئلته كثيرة ودقيقة مثل أسئلة والده ، وكانا قد اكتشفا أن كثيراً ممن فى معيته من غير الضباط والأعوان تجمعهم صفة واحدة ، وهى أنهم جميعاً

زاروا السودان مثلها ، وكان يسأل كل واحد على حدة ، وقرأ جميع ما كتبه الرحالة عن السودان ، تشبهاً ببونابرته عندما قرأ جميع ماكتب عن مصر وقابل من زاروها قبل مجيئه لاحتلالها . وبينما هم فى أسوان وصل رجل من الفرنسيس اسمه كايو ، أراد أن يلتحق بالحملة بحجة زيارة الآثار الفرعونية عند مدينة مروى القديمة شرق دنقلة ، لكن اسماعيل أعاده بلباقة ، فانصرف كايو هذا إلى القاهرة . لكنه سوف يعود ثانية

فيما وراء أسوان تمت عملية فك المراكب وجرها فوق العجلات ، مشقة عظيمة بهرت الجميع ، حتى اجتازوا منطقة الجندل الأول ، ثم اعادوا تركيبها وأنزلوها إلى النيل ، بعد حوالى الشهرين والنصف من مغادرتهم القاهرة كانت معظم القوة قد تجمعت عند وادى حلفا ، فعسكروا من جديد نحو عشرين يوماً حتى تم نقل المراكب فوق البر إلى ما بعد الجندل الثانى ليبدأ الاحتلال .

وفى أثناء الانتظار كان اسماعيل يتسلى بملاعبة مهرجه الخاص الشطرنـج ، يمنحه قطعة ذهبية مقابل كل دور يخسره هو ، ويأمر بضربه عشرين عصا نظير كل دور يكسبه ، فمرت أيام الانتظار على المهرج ما بين الضرب وربح القطع الذهبية .

ثم تحركوا بالمراكب فى النيل ومشاة على الشاطىء ، يستقيم فيستقيمون معه ، ينثنى فينثنون معه ، وأهالى النوبة يظنون أنهم متوجهون لإبادة فلول المماليك .

بعد الجندل الثالث عبروا من جوار قرية العجوز عبد الصبور جد نور ، والذى أوى الشاطر وحنحوت وإدريس عدة أيام ، فردوا له الجميل بإنقاذ

حفيده نور من براثن المماليك ، وكانت القرية خربة تماماً ، ومن الواضح أن عبد الصبور قد مات أو هجرها . ثم عبر الجيش إلى جوار الشاطىء الذى كان فيه المماليك آسرى نور ، ثم قتلوا عن آخرهم بحراب عرب الشايقية ، وبعد أيام سيصبح على فرسان الشايقية أما أن يستسلموا أو يقاتلوا بحرابهم مدافع اسماعيل !

وصلوا إلى نواحى دنقلة آخر معاقل المماليك ، فاستسلم بعضهم دون قتال ، وهرب بعضهم إلى شندى يحتمى بالمك نمر ، فرفض ايواءهم وشتتوا بين القبائل السودانية فسلبوهم أسلحتهم ، وبهذا انقطع دابرهم وانتهى أمرهم تماماً ! . ورغم عدم وقوع المقاومة فى أى مكان انهمك العسكر ينهبون الناس ويأخذون المواشى والطيور والعسل والسمن ، ويعاشرون النساء ويخطفون الغلمان لبيعهم ، واسماعيل لا يمنعهم ، لأن ذلك جزء من أجرهـم ، وكانوا فرحين بمهمتهم حتى الآن ، وإلى أن أخذت الحملة تدور مع انحناءة النيل الكبيرة نحو الشرق قرب كورتى معقل عرب الشايقية ، عندها خرج رجالهم للقتال . كان اسماعيل يعرف عنهم كل شىء من حنحوت والشاطر اللذين تدربا عندهم هما وإدريس على فنون الحرب ، ومنهم تعلموا ركوب الخيل والقفز بها أثناء المنازلة ورمى الرمح وهم فى أقصى اندفاعهم ، وكاد أن يزوجهم الملك لولا أن جاء هادى وأخذهم إلى دارفور .

لم يكن إسماعيل يخشى من سلاح الشايقية المكون من رماح فقط ، ولا من شجاعة رجالهم الذين يذهبون إلى الحرب فى شغف ، ولا من نسائهم الباسلات . ومع ذلك رأى أن يفاوضهم ، فدعا وفداً من شيوخهم وفقائهم إلى معسكره ، احتفى بهم بتقديم القهوة والشبك ، وسأله شيخهم :

ـ لماذا جئتم ونحن حاربنا المماليك مثلكم ؟ هذه بلادنا !

ـ رغبة أبى والى مصر وحامى الحرمين أن تكفوا منذ الآن عن النهب والاغارة على القوافل وأهل النوبة . ومن الآن هذه البلاد بلاد أبى .

ـ ليس لنا مصدر آخر للرزق !

ـ يجب أن تتحولوا إلى الزراعة والفلاحة .

ـ هذه مهنة المستضعفين ، ولدنا مقاتلون ، أو كما تسميهم أنت لصوص، ولا نحب أن نزرع مثل الفلاحين الضعفاء !

ـ أوامر والدى أن تدفعوا جزية صغيرة وأن تسلموا أسلحتكم وخيولكم .

ـ لا مجال لذلك .

فخرج صوته عالياً من حلقه المشقوق السقف يرج جدران الخيمة :

ـ إذن سأرغمكم .

فخرجوا غاضبين ، وحزن حتحوت لإخفاق المفاوضات ، لعلمه أن الشايقية لن يصمدوا أمام الأسلحة النارية . وأمر إسماعيل بإرسال مائة من فرسان البدو لاستطلاع أرضهم ، وكانوا متنبهين فاشتبكوا معهم ، ولم يعد إليه من المائة سوى ربعهم ، اغتاظ وتشاور مع مساعده عابدين بك والأمريكى انجلش رئيس المدفعية ، وقرر الانتقام بعنف كى لا يتكرر ذلك، ثم نام والظلام من حول معسكره شديد . بات الجميع متوترين ، وانكمش الشاطر إلى جانب حتحوت هامساً له :

ـ الظلام هو فرصة الشايقية ، أنهم يعرفون الأرض حتى فى أثناء الليل،

لو هاجموا الآن صاروا متكافئين مع الأتراك ، لأن القتال سيكون بالسيوف ، والشايقية أكثر مهارة !

فزاد رعب حتحوت ، وما كان صاحبه بأقل منه رعباً ، لأن القتل سوف يشمل الجميع ، بقيا متيقظين متنبهين إلى أقل صوت ، ولم تغمض لهما عين حتى شقشق الفجر ، وبدأ يومهما الرابع فى هذا السهل المترامى الذى عسكروا فيه ، قال الشاطر :

ـ نجونا من الموت ، وضاعت فرصتهم ، كان الله فى عونهم .

بعد صمت وترقب جاءت آلاف الشايقية ، يمتطى كل منهم فرسه الدنقلى القوى ، لا يضع فى الركاب سوى أصبع قدمه الأكبر ، حاملاً حرابه وسيوفه وسكاكينه . فى مقابلهم تجهز مقاتلو اسماعيل فوق أفراسهم .

لم يدهش اسماعيل عندما رأى جملاً عليه هودج مزخرف يتقدم صفوف الشايقية ، وعرف أن بداخل الهودج عذراء صغيرة السن هى تعويذة المعركـة ، والتى سوف تعطيهم اشارة البدء ، عرف ذلك من الشاطر وحتحوت ، وكانت العذراء اسمها مهيرة بنت عبود ، سرعان ما اطلقت من فوق سنام الجمل صيحة الهجوم فى زغرودة طويلة ملعلعة ، ظهر على أثرها من خلف الفرسان حشد هائل من الفلاحين كان أحد الفقهاء قد أكد لهم أن الرصاص لا يمكن أن يقتل المؤمنين الصادقين ، فلم يحملوا معهم سوى الحبال التى نووا ان يقيدوا بها العساكر الاتراك بعد أسرهم ، ومن ورائهم أقبل الخيالة المحترفون فى عدد لا يتجاوز الالف ، تصحبهم دقات مدوية على الطبول وهم يصيحون صيحتهم الحربية الخاصة بهم :

ـ السلام عليكم ، السلام عليكم .

يقصدون سلام الموت الأولى على الأعداء . وكان اندفاع الفلاحين العزل أمراً لم يتوقعه أحد ، أصاب الأتراك بالارتباك عدة دقائق ، وصل فيها الفرسان إليهم واحرزوا تقدماً برماحهم ، لكن سرعان ما دقت طبول اسماعيل فهدرت المدفعية وأطلق المشاة البنادق والغدارات ، عند المغيب كانت المعركة قد انتهت ، وانسحب الشايقية بعذرائهم تاركين مئات القتلى .

سارع الارناءود والدلاة والمغاربة والبدو يتنقلون بينهم كالمجانين يقطعون آذانهم ، انتهوا منهم فانهمكوا فى وحشية يقطعون آذان الاسرى الاحياء والجرحى ، ليرسلوها إلى محمد على باشا مقابل خمسين قرشاً للأذن كما وعدهم ، وكانت هذه تسعيرته ، وأرسلت إلى القاهرة فى اليوم التالى ثلاثة آلاف أذن بشرية .

ارتاع حنحوت من بشاعة المنظر إلى درجة القيء والاقتراب من الاغماء ، فسارع إليه الشاطر ، وبعد أن تماسك قال :

ــ ذكرنى منظرهم بمنظر عسكر الفرنسيس بعد معركة امبابة وهم يتجولون بين قتلى المماليك يفتشون فى عماماتهم عن نقودهم المخبأة ، لكن فرق ان تفتش فى العمائم وان تقطع آذان الموتى والأحياء !

غمت عليه نفسه من جديد ، وعاد يقول :

ــ أنا وأنت ساعدنا اسماعيل بمعلوماتنا !

ــ وماذا بيدنا ، أنسيت تهديد الباشا لك بسجن والدنا رضوان ؟

مر شهر من الزمان لاعب فيه اسماعيل مهرجه الشطرنج ، ربح فيها المهرج عشر قطع ذهبية ، وخسر عشرين مرة نال عنها أربعمائة ضربة

بالعصا . وكان عرب الشايقية قد تحصنوا عند جبل داعز ، وتعويذتهم هذه المرة عذراء أخرى صغيرة اسمها صفية ابنة الملك الذى عاش عنده الشاطر وادريس وحنحوت عدة شهور ، وقامت مدفعية انجلش بحصدهم ، فجرح ومات المئات ، ثم انقض الأتراك عليهم ، وتمكنوا من أسر تعويذتهم العذراء صفية بجملها المزين بالزخارف البديعة ، وأخذوها إلى المعسكر ، فرح اسماعيل بأسرها ، وخيل للشاطر وحنحوت أنه سيهبها لأحد ضباطه ، فاهتاج حنحوت ، لكن الشاطر زغده يكتم انفعاله ، وتقدم فى دهاء البواسل من اسماعيل وهو بين أعوانه وضباطه ومهرجه وقال بصوت جسور :

ــ الشايقية عرب شجعان يا مولانا ، أليسوا كذلك ؟

فصاح فيه التركى عابدين معاون اسماعيل :

ــ بل كلاب مثلك يا ولد !

لكن اسماعيل اسكته بإشارة ، وقال للشاطر :

ــ أنهم حقاً شجعان ، فماذا تريد ؟

ــ الشجاع يقدر الشهامة ، أنا وحنحوت عرفنا والد هذه الصبية ، وهو الملك رئيس القبيلة ، وكان كريماً معنا ، وساعد صاحبنا هادى على قدر طاقته .

ــ هو صاحبك إذن ، فماذا تريد ؟

ــ أن تسمح لى بالبوح بفكرة قد تكسبون بها ود عرب الشايقية .

ــ تكلم .

ـ أنهم قوم تأسرهم الشهامة رغم أنهم قطاع طرق ، الشرف عندهم فوق كل اعتبار ، أرى أن تعيد إليهم تعويذتهم صفية عزيزة مكرمة وعذراء كما هى ، وسوف نكسب بهذا ودهم .

لمعت عينا اسماعيل اعجاباً بالفكرة ، لاحظ المهرج ذلك ، فأشار إلى الشاطر مداعباً :

ـ ولد ناصح ، شاطر واسمه الشاطر .

على الفور أمر إسماعيل بادخالها الحمام وتعطيرها والباسها أفخر الثياب ، ثم اعادها معززة مكرمة إلى عشيرة أبيها الشيخ ، رفقة ثلاثة من الحراس ، وما ان وصلت إلى عشيرتها حتى ارتمت فى حضن أمها التى فرحت بعودتها سالمة ، ورأت ما هى عليه من أبهة وشمت ما يفوح منها من عطر ، فكشفت عليها وتأكدت من عفافها ، ثم ذهبت إلى زوجها تحكى له ما سمعته عن التكريم والاحترام الذى لقيته الصبية ، فظل يستمع وقتاً ثم قاطعها بصبر نافد :

ـ كل هذا حسن ، ولكن هل مازالت بكراً ؟

أكدت له ان صفية لم تزل بكراً ، وعلى الفور ردت فيه الروح وهدأت أعصابه من بعد الهم وتوقع المذلة والعار ، وأمر بسحب رجاله المشتركين فى الحرب ، حاول بعض رجاله مجادلته ، فحدثهم بالكلام المقنع قائلاً :

ـ إذا عجزت عن قهر عدوك صادقه حتى يضعف !

وبعث برسول من طرفه إلى إسماعيل يقول له : إن شيخنا أقسم ألا يحارب الرجل الذى حافظ على عذرية ابنته ! .. فسر من ذلك وقال مهرجه :

ـ قلت لك الشاطر شاطر ، امنحنى قطعة ذهبية مكافأة له !

فمنحه قطعة ذهبية مكافأة للشاطر ، الذى كان أسعد الناس هو وصديقه حتحوت ، وعندما جاء الملك فى زيارة ودية ورآهما تذكرهما وقال :

ـ كنت على حق عندما أمرت بضمكما إلى جيشى ، أين صاحبكما الأسمر ؟

فأجاب حتحوت بأن إدريس الآن مع عشيرته .. وسرعان ما انتشر خبر هذه الحادثة بين جميع الشايقية ، فتوافد رؤساؤهم ومكوكهم لزيارة اسماعيل يطلبون الانضمام إلى صفوف جيشه ، فزاد ذلك من رعب جميع الممالك ومكوكها من بربر شمالاً حتى سنار ذاتها جنوباً .. واحتار حتحوت إن كان الشايقية قد استسلموا من أجل إنقاذ عفاف صفية أم بسبب آلاف الآذان التى أرسلت إلى محمد على مملحة !!أم لأنهم طمعوا بانضمامهم للجيش المنتصر فى أن يشاركوه نهب باقى أهالى السودان . بعد أكثر من شهر وعندما استأنف اسماعيل تقدمه رفض أن يصحبوه كى لا يشاركوا عسكره فى الغنائم ، ولعلمه أنهم أعداء قدامى لأهل بربر وكثيراً ما أغاروا عليهم ، وكان ينوى التظاهر أمامهم بأنه ما جاء إلا لينقذهم من عدوان الشايقية ، وبمجرد وصوله انهارت المدينة مستسلمة ، ومع ذلك طاف عسكر المنقذ ينهبون ويعتدون ، فصارت بربر فى بكاء ومذلة بعد أن كانت بلدة الأنس والانشراح ومشارب اللهو والأفراح .

وبينما اسماعيل يستريح ويلاعب مهرجه الشطرنج ، جاءه خبر من أحد عسسه أن « نمر » مك شندى قادم بنفسه للتسليم . زاده الخبر غروراً . داعبه المهرج :

ـ جنكيز خان زمانك يا باشا !

(١٧)
النـار فـى سنـار

بعد أيام وصل الملك نمر جالساً فوق هودج معلق بين جملين ، وعلى سيماه كبرياء جريح ، ومعه جوادان كريمان على سبيل الهدية . فى الخيمة العظيمة الخضراء سجد أمام اسماعيل وقبل قدمه ووضعها فوق رأسه . نظر إليه المهرج مشفقاً ، بينما ازداد ابن الباشا غطرسة ، ولم يقدم القهوة والنرجيلة للملك المستسلم حسب عادة الضيافة . أمر بتقديمها له خارج الخيمة مثل أتباع الملوك ورسلهم . بدا الغضب فى عينى نمر لكنه لم يتكلم ، وهو يرى آخر الهاربين من المماليك يفدون ساجدين أمام اسماعيل لتقديم آيات الخضوع ، كانوا حوالى المائة ، تحدثوا مع اسماعيل بالتركية فضمهم إلى حرسه الخاص . ثم وجد مهرجه يقول له :

ــ قسوت على نمر يا باشا . احفظ للمهزوم بعض كرامته .

ــ وماذا بإمكانه أن يفعل !

ــ بإمكان النملة أن تضايق الفيل .

التفت اسماعيل إلى الشاطر وحتحوت رافعاً أصبعه محذراً :

ــ قلتما أن جل سلاحه عشر بنادق قديمة .

أكدا كلامه . لكن مهرجه قال :

ــ خف من جريح الكرامة ، لا تدفعه لليأس فيضرك !

امر بجلده ، فصاح معترضاً :

ـ لكنك لم تهزمني في الشطرنج !

ـ سأهزمك .

طلب الشطرنج ، وعندما جاءت مازحه المهرج :

ـ سنعكس الرهان هذه المرة . إن كسبت أنا تمنحك قطعة ذهبية ، وإن خسرت أنت تأمر بجلد نفسك عشرين عصا !

وكان الفرنسي كايو قد عاد دخل يستأذن في الذهاب من أجل التنقيب عن الماس حسب أوامر محمد علي . سمح له ، قبل انصرافه أوقفه قائلاً :

ـ سنأخذ هذا معك .

بعد أن خرج كايو قال لحتحوت :

ـ راقبه جيداً . قد يوفق ويعثر على الماس ويختلس بعضه !

فلما خرج من الخيمة وجد الشاطر يراقب عن كثب وبألم شديد مك شندي نمر وهو ينتهي من شرب القهوة والنرجيلة ، ثم ينهض ذليلاً ليركب هودجه المحمول على الجملين . وهو يعتدل في جلسته فوق الهودج لمحهما . بصق على الأرض بازدراء وقال :

ـ كنت متأكداً أنكما جاسوسان . أين ثالثكما الكبير ؟

لم يكن يهمه الرد ، وكان الجملان قد وقفا واستدارا إلى شندي . تابعاه بنظرة تعاطف له ولمملكته شندي . وكان كايو قد جهز للرحيل فتبعه حتحوت ، حتى وجده يقصد اطلال مدينة مروى المندثرة ، التي وصلها قبل

الفجر ، ثم راح يراقب أول أشعة الشمس وهي تشرق على قمم عشرات من الأهرام المتدرجة وتلونها بلون الذهب ، لتبدو رائعة مهيبة ، رغم انهيار معظمها ، قال الفرنسي لمرافقه : أن مروى هذه كانت في قديم الزمان وأيام الفراعين عاصمة جميع الأراضي من سنار جنوباً حتى الدلتا شمالاً .

قضى اسبوعين تحت وطأة الشمس يرسم النقوش والكتابات والأشكال البديعة للملوك والملكات ، ولم ينقب عن الماس . تذكر حتحوت الرسام دينون الذي عمل معه إدريس ورافق الجنرال ديزيه في بعض حملاته على الصعيد ، في زمن بونابرته ، ورسم جميع ما رآه على طول الوادي من آثار الفراعين ، وعندما قابل الشاطر بعد عودتهم سأله عن السر في انقضاء دولة الفراعين رغم عظمة آثارهم ، فقال :

ـ يندثر جاه الملوك ، لأن الدنيا قلابة !

واصل الجيش زحفه جنوباً . دخل دامر بلاد الكتاتيب والفقهاء الذين يسمون فقراء ، والمشهورين بالسحر . عاث فيها العسكر فساداً رغم هيبة الفقي الكبير . سخر إسماعيل من خرافات السحر . أطلق العنان لجيشه في الاغارة على الأهالي .

بعد ذلك وعلى طول الطريق من دامر إلى شندي بلدة نمر ، وحتى حلفاية مكان التقاء النيلين الأبيض والأزرق آباي الكبير الهابط من بلاد الأحباش ، والعساكر ينهبون ويقتلون ويقطعون الآذان . لا يقتنصون الحيوانات وإنما الأهالي . من وجدوه لا يصلح عبداً ذبحوه وقطعوا أذنيه من أجل المائة قرش .

في حلفاية أصدر اسماعيل أمره بعبور النهر إلى الضفة الشرقية . استغرق

العبور ثلاثة أيام . منهم من عبر متعلقاً بذيل حصانه أو فوق أطواف صنعوها على عجل . بين الفوضى والهرجلة واندفاع مياه النيل المبارك ، غرق ثلاثون رجلاً ومائة وخمسون جملاً . وكانت سنار عاصمة الفنج هى الهدف .

قبل العبور شعر حنحوت والشاطر بالشوق إلى إدريس الدنكاوى ، الذى صار حامل الرمح المقدس . تمنيا ألا يوغل اسماعيل إلى منابع بحر الغزال حيث يعيش . ارتاحا عندما عبروا النهر . زال الخطر عن صاحبهما ليحط على ملك الفنج !

مثل كل شىء شاخت المملكة . لم يعد لديها إلا الذكريات الأولى ، عندما سيطرت عدة قرون على النهر ، من حدود الحبشة إلى حدود مصر . لو استمرت قوية لدافعت عن البلدان التابعة لها .

كانت قسوة الجيش وشراسته قد طوفت فى جميع الأنحاء . فمشوا على البر وبالمراكب الشراعية التى رآها الأهالى لأول مرة . والأعشاب القصيرة المتشابكة تغطى ضفتى آباى الكبير ، والأمطار تسقط دون توقف ، توحل الطرقات وتلطف من شدة القيظ ، ولا تمنع الطيور من التحليق بألوانها البراقة ، والأزهار تزهو بجمالها ، وأفراس النهر تتأمل الجيش فى بلادة وكســل ، والقرود تقفز وتصرخ منذرة ، ولا من سميع !

تبعتهم الضباع متوقعة جثث القتلى ، والزراف يراقبهم ، وببغاوات خضراء تغرد وتقلد أصوات الطيور والبشر ، وآثار أفيال . دهسوا تحت أقدامهم عشرات من بيض التماسيح ، شاهدوا بعضها يفقس ويتجه مباشرة إلى النهر . كلما اعترضتهم صخور أو أشجار ضخمة نسفها جنود الألغام ، فتفزع الطيور والحيوانات وتتشتت !

فى سنار خرج لهم رجل قصير اسمه بادى ، آخر ملوك الفنج ، مستسلماً دون رمية رمح . اختار حنحوت فيه ، وجهه ساكن متبلد ، حزين منكسر ، مأخوذ بالرهبة . رآه يبتسم ويتودد ، يقدم عباءة هدية إلى إسماعيل ، الذى وجدها غير ملائمة فألقاها جانباً . بلع الملك الاهانة . ابتسم فى بلادة يدعوه إلى المدينة العريقة .

دخل العسكر المدينة . ساروا فى الطرقات . شعروا بالملل فشرعوا فى النهب والتنشين على رؤوس الأحياء . حاول شاب الدفاع عن فتاته . أمسكوا به وكتفوه . وقف مرتعباً مقهوراً . ثبتوا وسط الساحة خازوقاً ، رأسه مدبب إلى أعلى . حملوه وأجلسوه فوقه . ليبدأوا لهوهم ومرحهم . أداروا جذعه يميناً يساراً ، وهو يصرخ مرتجفاً من بشاعة الألم . بدأ الخازوق يخترقه . سالت الدماء والدموع والعرق . مزقه عذاب لا حد له . غطت قهقهاتهم على صراخه . فى بطء اخترق الخازوق أحشاءه . كلما أغمى عليه انتظروه حتى يفيق ، وضغطوا عليه حتى ظهر طرف الخازوق من فمه . وعرف السناريون بعض أهوال الساعة : فزع ، رعب ، ارتياع ، جمود . صرخ حنحوت دون توقف . تقيأ الشاطر . سالت دموع المهرج . وكان الانهيار التام [1] .

أمر إسماعيل فانتظم العسكر فى عرض سخيف . ثم أجلس الملك بادى على مقعد ملكه ، تابعاً للباشا محمد على . أخرج بهلول علبة كبريت . أشعل عوداً ، نفخ أطفأه وقال :

ــ يا اسماعيل باشا ، لكل نار نهاية .

ظهر الفزع فى عينى بادى . كان يرى الثقاب لأول مرة !

(١) دخول سنار ١٢ يونيو ١٨٢١ بلا قتال .

بعد ركود الأهوال ، سار حنحوت والشاطر فى أرجاء سنار ، عاصمة شرق السودان التى سمعوا عنها فى كل مكان . الحر يخنقهم وعربدة العسكر تخنقهم . قصر الملك بارى آيل للسقوط ، كذلك الجامع الوحيد . القصر والجامع كانا أفخر ما فى المدينة ، هكذا حكى لهما معلم الشايقية . الغابات المحيطة دمرها الماعز ، وكانت تأهل برحلات الملوك الأولين ، والجوارى المنشدات المادحات ، النساء شرهات فى التدخين وشرب الجعة ، شعرهن فى جدائل صغيرة عديدة . لم يريا أثواباً فاخرة ولا حلى ذهبية أو فضية . اختفى ذلك بزوال المجد الغابر .

البنات لا يرتدين سوى حزام من جلد حول الخصر ، مزداناً بأصداف الودع دلالة على البكارة ، التى فقدنها فى أسرع وقت بفعل الأرناءود والدلاة والمغاربة والبدو .

اختفت الخيول السوداء الرشيقة الماهرة ، التى وصفها لهما معلم الشايقية . كانت لدى الملك بارى أربعة مدافع عتيقة صدئة ، ألقاها فى نهر أباى الكبير ليطمئن الغزاة . ولم يكن رأى الثقاب من قبل ، فحقت على أهله الهزيمة ، مثلما حققت على المماليك فى مواجهة نابليون .

سالت دموع حنحوت الطيب . تحجرت دموع الشاطر .شاهدا رؤية العين فناء مملكة الفنج التى طال احتضارها . فما الحال مع كردفان ؟

كان محمد على قد دفع بجيش آخر إلى كردفان ، يقوده محمد بك الدفتر دار . اجتاز الصحراء من دنقلة إلى الأبيض ، حيث لا ماء ولا زرع . مات بعض الجنود ، نفقت بعض الدواب . عند بلدة اسمها بارا لاقاه سلطان الفور ، محمد فضل قمر السلاطين . دقت طبول الحرب ، نحاساتهم

المشهورة . نشبت معركة صغيرة ، وهزمت مدافع الباشا شجاعة الفور . احتل الدفتردار «الأبيض» عاصمة كردفان . فشل قمر السلاطين فى استعادتها ، وعاد خائباً متعظاً إلى الفاشر . بماذا تجدى النبال والشوم والبسالة وحماس دق النحاس فى زمن المدافع والألغام !

عاد متعظاً خائفاً على سلطته . أخذ يحشد الرجال ، يفكر فى شراء البنادق لحماية بلاده . إمعاناً فى الحرص كتب الفقهاء عدة أحجبة وأسماء مباركة ، لمنع جيوش محمد على من غزو الديار . وضعها فى قماقم من نحاس ، دفنها فى الصحراء الشمالية والشرقية . أغفل الجنوبية لأنه لم يخش الغزو ، منها بالتحديد سوف يأتى فناء السلطنة ، فى زمن لاحق . وهذا ثابت ومدون فيما يلى من التغريبة .

صار النيل وشرقه تحت سيطرة أفندينا عزيز مصر . استرخى ابنه اسماعيل مزهوا بما حقق . تكابر وتخايل . والمهرج بهلول يحملق فيه ملياً . كف عن الحملقة واتجه إلى الشاطر وهمس فى أذنه ، فشحب وجهه وتراجع متوارياً . صاح اسماعيل ضاحكاً بصوته المضغوم :

ـ ماذا قال لك يا الشاطر ؟

ـ لم أسمعه جيداً يا مولاى

تشقلب المهرج حتى جلس عند قدميه :

ـ قلت له أن ملاك الموت عزرائيل فرح بك .

ماتت ابتسامة اسماعيل .

قال المهرج :

ـ أرسلت له آلاف الأحياء وأنت لم تكمل بعد العشرين من عمرك السعيـــد !

تجهم اسماعيل جامداً فى مكانه . توقع المهرج ضرباً مبرحاً . لكنه وجده ينطوى على نفسه ، والجو خانق ، ولا يكلم أحداً حتى اليوم التالى . زاد اكتئابه . نام وصحا وصار يتطير . يتفاءل بعلامات ويتشاءم بأخرى . يتلفت حوله من حين لآخر .

مرت عدة أسابيع وأصيب رجاله بالدوسنتاريا و الملاريا و الرمد ، من الحرارة والقذارة والعربدة . تساقطوا تباعاً حتى مات ألف و خمسمائة مقاتل ، ومرض أكثر من الألفين ، والعدد يتزايد كل يوم . تذكر الشاطر حال جنود بونابرته فى مصر عندما أصيبوا بنفس هذه الأمراض ، وتساقطوا بالعشرات أو فقدوا الأبصار . قال حنحوت :

ـ اللهم لا شماتة ، لكنها عدالتك !

من وقتها كف إسماعيل عن التلهى مع مهرجه ، ساءت حالته ، وظلت تتدهور !

(١٨)

وليمة النار والدمار

أرسل إسماعيل إلى أبيه شاكياً . رجاله لا يجدون طعاماً إلا نبات الدخن . بليت نعالهم ولم تعد ثيابهم تقيهم رطوبة ولا مطراً . ليس معه أطباء ولا أدوية شافية . استحالت الحركة فى الطرق الموحلة والأمطار لا تتوقف . لم يتبق له من العسكر الأصحاء سوى خمسمائة ، هم جميع المتبقين من الخمسة آلاف الذين بدأ بهم ، عدا بعض العبيد . العسكر دائم التبرم وعلى وشك التمرد لتأخر رواتبهم . حتى أهالى سنار صاروا على أهبة الانتفاض !

أرسل الباشا إليه ولده الكبير إبراهيم ، وكان مصاباً بالدوسنتاريا ، ولقبه محرر الحرمين وقاهر الوهابيين . تلقاه الجميع بالتبجيل هو والأطباء والأدوية والمئونة والرواتب المتأخرة . أعاد تنظيم الحملة .

بعد حوالى الشهر صار الجو أقل حرارة وأكثر جفافاً . فاستأنف الجيش توغله صوب حدود الأحباش فى محاذاة آباى الكبير أو النيل الأزرق . إسماعيل على الضفة اليمنى بجزء من العسكر ومعه حنحوت والشاطر والفرنسى كايو ، وابراهيم على اليسرى بالباقين ، وهدفهما معاً تنفيذ تعليمات والدهما ، الذهب والعبيد لتعويض نفقات الحملة . أسروا كل من وقع فى أيديهم . عندما حاول القرويون الدفاع عن صغارهم برمى السهام وإلقاء الصخور من فوق المرتفعات ، أبيدوا عن آخرهم . غشيت نفس حنحوت وشكا للشاطر :

ـ ماذا ارتكبنا حتى يوقعنا الله فى هذا الكرب .. كم أتمنى موت اسماعيل هو وجميع وحوشه !

توغلوا حتى برزت لهم من السهل المنبسط سفوح تلال وصخور نائتة ومن خلفها جبال أثيوبيا العظيمة شامخة فى السماء . توقفوا مرغمين لأن النيل الأزرق اختفى داخل مضيق رهيب لا يمكن لأحد أن يجتازه ولو كان سائراً على قدميه . فتوقف ابراهيم واسماعيل ، والحبشة فوقهم على مرمى البصر .

فى فاظوغلى آخر الممالك أسرع ملكها إلى السجود أمام اسماعيل ومدافعه ، وانهمك الفرنساوى كايو يؤدى مهمته منقباً عن الذهب فما عثر على شىء يذكر ، أما العبيد فقد جمعوا منهم حوالى الثلاثين ألفا أرسلوهم عن طريق النهر إلى مصر ، فلم يصل إلا نصفهم معظمهم من النساء والأطفال ومات الباقون بالأمراض والانهاك وسوء المعاملة ، وكان منظرهم على طول الطريق من سنار إلى حلفاية ثم شندى ودامر فبربر ودنقلة مثيراً لغضب الأهالى ، حتى أنهم هاجوا وهاجموا بعض قوافلهم وأفلحوا فى تخليص بعض الأسرى .

كان ابراهيم بطل الحجاز قد أنهك هو الآخر ووقع مريضاً ، خاف الموت لدرجة أنه عرض على طبيبه الايطالى عشرة آلاف ريال إن هو أوصله إلى القاهرة حيا ، فنفذ الطبيب وعده وأوصله فى زمن قصير هو ستة وثلاثين يوماً ، وتسلم أجره .. وكان محمد على يريد إبراهيم لحروب جديدة فى الشمال مجالها البر والبحر ! لكن رحيله كان السبب فى كآبة اسماعيل ، حتى أنه صار سوداوى المزاج ، شاعراً بالعجز عن تلبية مطالب والده بارسال المزيد من الناس المخطوفين .

طالت هجرته الوحشية سنتان فى هذه المتاهة، ولم يحقق سوى قتل آلاف الأهالى ومعظم جيشه ، فصار عليل البدن سقيم الذهن ، وراح يلح بالرسائل على والده أن يسمح له بالعودة ، فسمح له بعد إلحاح كثير ، وانطلق مسرعاً هابطاً مجرى النيل ومعه طبيبه وعدد من حاشيته وحتحوت والشاطر ومهرجه الذى لم يعد يفلح فى اضحاكه ، وهو يرى على طول الطريق الآثار المدمرة التى تركها عساكره وحامياته !

وكان الأهالى فى شندى يذهبون إلى نمر مكهم ويشتكون له ويقولون :

ـ أنت مكنا ، انقذنا من هذا الهول !

فيتألم من أجلهم ومن عجزه .. بينما كان اسماعيل يسمع عن هياج الأهالى وافراجهم عن بعض المأسورين ، وعن ثوراتهم على عساكره ، وقيل له إن نمراً وراء جميع ذلك ، فما إن وصل إلى شندى حتى أرسل يستدعيه، فلما مثل بين يديه راح يقرعه بصوته العالى بفعل سقف حلقه المشقوق ، وأسرف فى تأنيبه وكال له من الشتائم الشىء الكثير ، ثم تمادى ولطمه على صدغه بالشبك الذى كان يدخن فيه ، فلم ينطق نمر بأية كلمة ، وخرج مقهوراً غاضباً من البذاءات التى وجهت إليه ، وهو الذى نشأ ملكاً مطاعاً منحدراً من ملكة سليلة سلاطين الفنج حكام نصف السودان الشرقى !

بعد انصرافه اقترب المهرج الذى كان صامتاً طوال العودة من فاظوغلى حتى شندى ، وقال لإسماعيل بصوت جاد :

ـ قلت لك اترك بعض الكرامة للرجل المهزوم !

فضربه بالشبك هو أيضاً وتناثر الدخان المشتعل . وأمر بأن يدفع نمر اتاوة جسيمة من المال وألفاً من العبيد والمهلة خمسة أيام ، فتدخل مهرجه من جديد وقال :

ـ محال تجهيز كل ذلك فى خمسة أيام ، وشندى أسواقها معطلة منذ تشريفنا، أمهله يمهلك الله !

فضربه من جديد وقد استعاد تجبره لقرب عودته إلى مصر ، متوقعاً أن يجهز له والده موكباً عظيماً يدخل به إلى القاهرة دخول الظافرين ، ففاتح السودان لن يقل عن فاتح الحجاز ! .

وكان معاونوه يريدون إزجاء نفس نصيحة المهرج له لكنهم لم يتجاسروا ، وتظاهر الملك نمر بالاذعان ودعا إسماعيل وبطانته إلى وليمة فى قصره الذى سبق أن زاره حنحوت والشاطر وهادى ، وكان القصر محاطاً بالقش الكثير وزاد عليه نمر أكواماً من الحطب والتبن لعلف خيول الضيوف ، فلما توجهوا إليه رحب بهم أعظم ترحيب ، وقامت جواريه الحبشيات الحسان بخدمتهم والترفيه عنهم كأحسن ما يكون ، أكلوا كثيراً وانتشوا من شرب جعة المريسة القوية .

بعد شوط طويل من الليل أخذوا يتأهبون للعودة إلى معسكرهم وهم سكارى ، وقد انسحبت الجوارى والعبيد ، فإذا بالنار تتطاير فى أكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر ، أمسكت بكل شىء ، وتحول القصر إلى شعلة من الجحيم ، وحصرت النيران اسماعيل وبطانته من الأتراك والشراكسة فلم يستطيعوا الافلات من هذا الحصار الجهنمى ، لهول النار يرمونهم بالنبل والسهام المسممة من كل صوب تسد جميع سبل النجاة فى وجوههم الحمراء ، حتى ماتوا عن آخرهم ، واختلط شواء أبدانهم بدخان الحطب والتبن وروث البهائم [1] .

(1) أواخر أكتوبر ١٨٢٢ .

عندما شاهد جنود حامية العسكر النيران ، وشرعوا فى التحرك لإنقاذ اسماعيل ، لم يكن هذا بامكان أى إنسان ، كان اتباع نمر والأهالى قد فتكوا بهم عن آخرهم ، عدا أفراد قلائل كان من جملتهم حنحوت والشاطر، وقد تمكنا من الهرب بسبب أنهما لا يرتديان الزى العسكرى التركى ، وبسبب معرفتهما القديمة بالبلدة . وبينما هما يجريان لحق بهما مهرج اسماعيل مرعوباً ، ولم يكن قد أخذه معه إلى الوليمة بسبب غضبه منه ، فصحباه وتوجها به مسرعين إلى حى الدناقلة ، بحثا عن البيت الذى نزلا فيه عندما كانا فى قافلة هادى ، فوجدا صاحب الدار واقفاً مذعوراً يراقب لهب النار المتصاعدة إلى السماء فى هدير مفزع ، بحيث أنارت المكان إلى مسافات بعيدة ، فلما رآهم ظنهم يقصدون به شراً ، ذكره الشاطر بنفسه وطلب منه استضافتهم ،إرتبك ولم يكن فى حالة تسمح له بأخذ أى قرار ، وقال :

ـ سينتشر النهب والسلب ، هذه هى فرصة العمر لقطاع الطرق ، وقد يأتى الشايقية أشياع الترك الكلاب !

فأراه الشاطر ما معهما من بنادق وغدارات وقال :

ـ بإمكاننا حمايتك أنت وأسرتك ، وعندما يأتى جنود محمد على من الأماكن القريبة ، ولابد أنهم قادمون للثأر ولقتل نمر ، فبإمكاننا انقاذك على أساس أنك عاونتنا ! .

اقتنع الرجل . دخلوا داره وأغلقوه ، وراحوا يراقبون الطريق من كوات الغرف ، بعد حين بكى المهرج ، واصطبغت دموعه بلهب النار ، فنهره حنحوت وسأله إن كان يبكى على اسماعيل السفاح ؟! . فقال فى شجاعة باكية :

ـ عاشرته كثيراً ، وكان عطوفاً على ويضربنى ، نصحته أكثر من مرة بألا يذل الرجال !

فأمره بالكف عن ذلك والاهتمام بمراقبة الطريق و حتى قرب الفجر لم يقع أى طارىء سوى أن النيران بدأت تخمد ، وبدا واضحاً أن الملك نمر يسيطر على الأمن والنظام . تذكر حنحوت الحريق الكبير الذى اندلع بأمر مراد بك بعد أن دحره بونابرته فى معركة إمبابة ، وكان يتعجل الفرار إلى الصعيد ، ثقلت الصنادل بحاجاته الثمينة له ولحريمه ، حتى تعذر تعويمهـا ، وخشى أن تقع فى يد بونابرته فأحرقها ، وبقيت نيرانها مشتعلة طوال الليل وهى تلقى بظلالها على القاهرة المذعورة !

مع أنوار الفجر اقترب الشاطر من المهرج وسأله فى عطف :

ـ ماذا ستفعل إن كتبت لنا النجاة ؟

ـ أنا لا أصلح لشىء .

ـ لكن مهنتك غريبة ، أتجد سهولة فى إضحاك الناس ؟

ـ إن كانوا خائفين .

ـ لا تقل ان اسماعيل العاتى كان خائفاً .

ـ كان جباراً والتجبر قرين الخوف ، كلما كان الإنسان آمراً ناهياً متعاظماً كان متوجساً خائفاً ، من يملك الكثير يخشى من فقده !

تأمله معجباً وقال :

ـ كأنك حكيم !

ـ كان بإمكانى إضحاك الناس رغم مشاغلى الخاصة ، لكنى فقدت القدرة على ذلك بعد ما رأيته من قتل واغتصاب . أنا لم أعد أفهم لماذا جاءوا بنا إلى هنا ! . هل رأيتما الآذان المقطوعة وقد صارت عملة نقدية ! من كان يظن ؟!

ثم اعتدل ممسكاً أذنيه بكفيه ، وقال :

ـ إن عدت سالماً إلى القاهرة ، واحتجت المال فسوف أقطعهما وأبيعهما حسب تسعيرة الباشا بمائة قرش !

ثم انهار على الأرض باكياً حتى نام . واقترب صاحب الدار من الشاطر وحنحوت وقال :

ـ ستنتهى شندى الجميلة ، مركز القوافل ، مرسى التجار ، مدينة كل شىء ، ملتقى تجارة العالم كله ، بوابة الجهات الأربع . ستختفى بضحكات السعداء وغناء سكارى الليل ، سيندثر جميع ذلك وهو كل حياتى !

كانت النيران قد خبت ، والدخان مازال يتصاعد بروائح كريهة ، نظر حنحوت إلى صاحب الدار المنهار وقال :

ـ أظنك على حق ، سوف يكون انتقام محمد على بشعاً !

بعد اختفاء طول النهار اتفق حنحوت والشاطر أن بقاءهما خطر ، فالملك نمر يسيطر على شندى ويظنهما من جواسيس محمد على ، وقد يغدر بهما مضيفهما الدنقلى . انتظرا هبوط الظلام ثم تسللا بصحبة المهرج إلى خارج البلدة . وكان رجال نمر والأهالى منهمكين فى جمع الأتربة واحضار الطمى من جسر النيل بالحمير ، وقد شرعوا فى بناء سور من طين يطوق المدينة كلها . هز الشاطر رأسه مشفقاً :

ـ وهل يصمد الطين أمام المدفع !

رد حتحوت :

ـ هو على الأقل يحاول الصمود .

(١٩)

مولد بهية الطفلة العفية

فى ليل القلعة سمع الحراس صوت عواء ، ظنوه ذئبا شاردا فى تل المقطم ، ثم تأكدوا أنه صادر من داخل القلعة . كان محمد على الجبار يبكى ويعوى مثل ذئبة فقدت أطفالها . منذ سنوات مات ابنه طوسون بالطاعون ، والآن اسماعيل بالنار . أمر بالانتقام الرهيب .

وصل الأمر إلى محمد بك الدفتردار زوج ابنته وفاتح كردفان . غادر الأبيض وكر هائجا ، مدمرا جميع ما صادفه حرقا ونهبا . دك مدينة دامر بلد الفقراء الفقهاء ، جعلها أنقاضا ولم يفدها سحر الفقهاء . ثم مشط المنطقة من بربر إلى سنار .

كما توقع الشاطر أشعلت مدافعه النيران فى شندى ، فمات من سكانها المئات ، تعالت صيحات الذعر والألم . ثم أقتحمها بالسيوف لينهال جنوده ذبحا ، ولم يظفروا بنمر ، الذى فرّ مع أسرته وأعوانه . تعقبه مصعدا فى النيل الأزرق ، يبتر أثداء النساء ، يقطع أعضاء الذكور التناسلية ، ثم يملأ الجروح بالقار المغلى ، كى يمنع ضحاياه من النزف والموت السريع !

ولم يظفر بنمر ، الذى لجأ إلى بلاد الأحباش الكارهين للأتراك . عجز الدفتردار عن تعقبه داخل مجاهل المرتفعات والمغارات ، فقفل راجعا إلى زمام أم درمان يبيد ويفتك وينكل ، ويرسل الآذان المبتورة إلى حميه ، علها تشفى بعض غليله فى ولده المحروق .

بعد ذلك حكم الباشا السودان جميعه ، عدا دارفور وأعالى النيل ، من بلدة جديدة صار اسمها الخرطوم . كانت فى الأصل قرية صيادين قريبة من حلفاية ، بدأت بأكواخ من طين وطرقات ضيقة قذرة ، اتسعت وصارت عاصمة حقيقية . وانتشرت الحاميات على حدود أثيوبيا فى كسلا ، وعلى النيل الأزرق فى واد مدنى ، وفى الأبيض حاضرة كردفان ، وحتى ساحل البحر الأحمر . تحولت تباعا إلى مصائد للعبيد ومتاجر لريش النعام وسن الفيل !

أما حنحوت والشاطر والمهرج ، فبعد أن شاهدوا تدمير شندى وانتهاء أمرها ، هبطت دموعهم ، وقال المهرج فى لمحة ذكاء :

ـ الآن نحن موتى !

إلتفت إليه حنحوت . تنبه الشاطر إلى معنى كلامه وقال :

ـ فكرة رائعة . المفروض أننا متنا مع اسماعيل . سنهرب ونعود إلى ديارنا ولن يسأل عنا أحد . فعلا نحن موتى !

عثروا فى الطريق على دواب هائمة قتل أصحابها . اختاروا ثلاثة وجمعوا من الطريق حاجتهم من الطعام ، ثم يمموا صوب بربر لقطع طريق الصحراء إلى مصر المحروسة .. قطعوه فى عزم وهمة ، وهم جاهزون لسحق من يعترضهم من قطاع الطرق ، وأعظم دافع لهم هو الفكاك من هذا الجحيم ، والابتعاد عن هذا الجنون . هرولوا مسرعين ، كلما مروا بقرية دمعت عينا حنحوت وقال :

ـ كانت هنا قرية وطيور وأحلام ، ناس طيبون بسطاء ، وحكام مغفلون سفهاء ، قضت عليهم مدافع محمد على كما قضت مدافع بونابرته على غفلة مماليك مصر !

عندما أوغلوا فى الصحراء بعد بربر ، توقفوا يودعون أرض السودان بعيون حزينة . وكان الشاطر هو الذى ناح :

ـ كانت هناك ممالك ومشارب لهو وأسواق وتجارة وزواج وحب ومقت ، ذهب كل ذلك وبقيت الخرائب ينعب فيها بوم الدلاة والانكشارية والأرناءود والدفتردار . سيطر الباشا على مصر ونحن فى تغريبتنا ببلاد الفور والدنكا ، وها نحن رأيناه وقد أخضع بلاد السودان . مهما أنشأ وشيد وجعلنا نطاول أقوى الدول ، إلا أن جميع ذلك لا يرد قدرا ضئيلا مما رأيناه بأعيننا . لن يتمرد عليه إنسان لعدة سنوات . صار اسمه أو اسم صهره يعنى الموت والويل .. العجيب أن بعض الناس نجوا !

فى الطريق إلى مصر ، وبينما يمرون على وادى الطواشى ، أصيب المهرج بضربة شمس لم تمهله . مات وقد سلم الحياة بعد أن دلهما على مخبأ نقوده الذهبية التى ربحها من إسماعيل . كانت فى جيب سرى بملابسه . فدفناه إلى جوارى درويش مكة الذى اغتاله قطاع الطرق . ثم واصلا المسير إلى أسوان .

أما عن الملك نمر فهو عندما وصل إلى حدود الحبشة ، انضم إليه جمع غفير من المنكوبين . حتى عرفت البقعة التى سيطر عليها بأرض نمر ، وصارت ملاذا لجميع الناقمين على جيش الباشا .

بعد مشقة وأهوال وصلا إلى شاطىء النيل عند قرية دراو ، وهما فى أبأس حال من الإعياء وتهلهل الثياب ، حتى ظن من رآهما أنهما من الفقراء الدراويش فأحسن عليهما ببعض الطعام . باتا فى العراء ، ثم واصلا السير شمالا حتى وصلا إلى إسنا ـ بلدة هادى ـ فرأى حنحوت التوقف للراحة

والسلام على رفيق رحلتهما إلى دارفور وبلاد الدنكا ومنابع النيل . سألا عنه حتى وصلا إلى داره . لم يكن موجودا واستقبلتهما أمه الطاعنة فى السن . ثم ذهبت تعد لهما بعض الطعام . غابت ساعة وعادت فوجدتهما مستغرقين فى نوم عميق .

عندما جاء هادى بقى جالسا فى صمت يتأملهما فى مودة إلى أن استيقظا . أحتضنهما مرحبا . تحادثوا عن الماضى . اغتاظ هادى من فعل محمد على بهما . قال للشاطر :

ـ هذه غلطتى . كان على أن أحذركما . دنيانا هذه تشبه الأحراش التى كنا فيها ، الأقوى يلتهم القوى ، والقوى يلتهم الضعيف . بونابرته ضعضع قوة المماليك ، ومحمد على أجهز على مكوك السودان .

ـ فكيف كنت السبب ؟

ـ أنستنى فرحة العودة إلى بلدى وأمي أن أنبه عليكما بعدم الثرثرة . تكلمتما فاستدعاكما محمد على وكان يخطط لحرب السودان . مع أنى عندما عدت هنا ادعيت أننى كنت بالقاهرة ثم ببلاد الحجاز للحج ، حيث مرضت فمكثت عدة سنوات . ثم أخفيت أموالى وخلعت ملابس التجار الغالية ولبست لبس الفلاحين هذا ، وعملت بالفلاحة حتى الآن . تزوجت وأنجبت ، وأحمد الرزاق علي جميع نعمه .

فأبلغاه بأمر جاسوس الباشا الذى قابلهم فى بربر . ثم نهضوا للطعام ، وأكلوا حتى شبعوا . فى هدأة الليل قال هادى :

ـ أنصحكما بعدم العودة إلى تلة ، إن رجعتما الآن وصل الخبر إلى الباشا ، وأعادكما إلى العمل فى مشاريعه التى لا تنتهى !

اعترض حنحوت :

ـ لكنى فى أشد الشوق إلى أمى وأبى وأهلى ، وزوجتى ميسورة التى أحببتها . تركت ولدى إدريس رضيعا فى شهره السادس .

ـ من أجلهم جميعا تحمل فراقهم عاما بدلا من أن تغيب أعواما . لن تنتهى حروب محمد على ، عسسه في كل مكان . إختفاؤكما سيجعل الجميع يعتقدون في موتكما بالسودان .

وتركهما للنوم . رغم الإرهاق ظلا يقظين شوطا من الليل ، يسمعان نقيق الضفادع ونباح الكلاب بالخارج . تشاورا طويلا حتى توصلا مع صياح ديك الفجر إلى أن هادى على حق . أخبراه بذلك فى الصباح . ففرح بهما وأبلغ جميع الأهالى أنهما من أقاربه .

بقيا عنده أكثر من عامين . عاونه حنحوت فى فلاحة الأرض . بينما عمل الشاطر معاونا فى معمل فروج يملكه رجل اسمه عبد القدوس . ظل يعاونه حتى تعلم منه فنون التفريخ ، فالفلاحون يحضرون البيض وعبد القدوس يتولى تفريخه ويرد لهم كتكوت من كل بيضتين . أما المعمل فكان يتكون من أفران صغيرة ، كل فرن له كوة لمرور الدخان ، يوضع البيض فوق الحصر أو القش على ثلاث طبقات يعلو بعضها البعض ، بعيدا عن النار المباشرة . بعد واحد وعشرين يوما يفقس تباعا وتخرج الكتاكيت ، التى يتسلمها صاحبها بعد يومين .

بقيا ضيفين علي هادى حتى هدأت الأمور . وكان معظم السودان قد دان للباشا تماما ، فبدأ حروبا جديدة في بلاد بعيدة مجالها البر والبحر . عندما أيقنا أن أسميهما شطبا من كشوف معاونيه ، تجهزا للعودة .

فى موردة الخنش بالمنيا ، كان لقاؤهما بالريس مرسى حافلا بالأحضان ودموع الفرح . أخبرهما أن الوالد رضوان مات ودفن إلى جوار الجد الأكبر حنحوت . بكيا معه ساعة زمنية ، ثم استأذنا فى التوجه إلى القرية لفرط الاشتياق .

دخلا نلة على حمارين من حمير الأجرة ، فى هدوء ودون فخامة مثل المرة السابقة . فرحت أم الخير والجميع . دهشا لأن زهرة كانت بالدار ، والجميع فى ثياب الحداد رغم انقضاء الحداد على موت رضوان . تركتهما أم الخير حتى استراحا ، ثم أخبرتهما بأنها كانت تعد لزفاف حفيدها عوض بن مرسى ومبروكة ، وإذ زوجها رضوان ينتقل إلى دار البقاء .

أجلت الزفاف إلى ما بعد الحداد ، فحدث ما لم يكن فى الحسبان . ذلك أن رجال الباشا انتشروا فى جميع القرى ، يتربصون ساعة المغيب وقت عودة الفلاحين من الحقول ، فيأمرونهم بالوقوف صفا ، لينتقوا منهم الشباب الأصحاء ، ثم يربطوا المختارين من أرجلهم بحبل واحد طويل ، ويسوقونهم للخدمة في جيش محمد على ، الذى راح يكونه من المصريين . كان من ضمن من أخذهم بكر زوج زهرة ، لهذا جاءت تعيش معهم لحين عودته ، إن عاد . ثم قالت أم الخير :

ـ عندما سار طابور المخطوفين خرجت أمهاتهم يلطمن ، ويشققن الثياب . كل أم تبكي ابنها الذى يغيب أمام عينيها صارخة : يا عزيز عيني ! وعدت أنا بدموع القهر على حفيدى ، أواسى زهرة ، كلما رأت أحدا تعرفه جرت نحوه شاكية قائلة فى مذلة : السلطة أخذت رجلى ، عزيز عينى !

انتحبت زهرة من جديد على زوجها . تأمل حنحوت أمه فوجدها

متماسكة رغم النكبات ، رغم تسلط الشعر الأبيض على الأسود . فنهض يقبلها . ثم تشاغل بملاعبة ابنه ادريس ، وزوجته ميسورة ترقبه فى رغبة المحبة ، بينما الشاطر وحيد حزين !

أما بكر زوج زهرة العفيفة فقد أرسلوه هو وأمثاله إلى التجنيد . وصار يدربهم ضباط أتراك أو شركس ، يرأسهم ضابط فرنسى أسمه سليمان بك الفرنساوى .

وفى تلك الأيام كانت بلاد اليونان ، مثلها مثل الشام ومصر والمغرب جزءاًمن السلطنة العثمانية ، يحكمها ولاة اتراك وتقاسى من الظلم ودفع الجزية وسبى الجميلات ، صار أهلها يريدون الخلاص .

عجز السلطان عن قمعهم كما عجز من قبل عن قمع الوهابيين ، فطلب من محمد على تأديبهم .. خضع وأعد أسطولاً نقل عليه آلاف الجنود .. منهم بكر زوج زهرة ، والقائد كان ولده إبراهيم ، ومن الوعاظ محمد بن عمر التونسى رفيق رحلة دار فور ، الذى تعرف عليه وعرف أصله ونسبه .

طالت الحرب . وحل حنحوت محل والده فى فلاحة الأرض ، وأنشأ الشاطر مفرخة كتاكيت مثل مفرخة عبد القدوس بإسنا . كانت أول مفرخة فى أرض الغروب . وحرب المورة دائرة ، حتى أرسل الانجليز والفرنسيس مراكبهم وأغرقوا مراكب محمد على ، بما عليها من ضباط أجانب وثلاثة آلاف مصرى ، من بينهم بكر . غرق فى مياه مالحة غريبة . وكتبت النجاة لعمر التونسى ، الذي ما إن عاد إلى مصر ، حتى توجه إلى المنيا قاصدا أسرة بنى حنحوت .

ماإن رآه حتحوت حتى فتح له ذراعيه . ثم شاركهما الشاطر الغداء والعشاء .قبل أن يرجع التونسى أخبرهما بالنبأ الحزين.

بكت زهرة ، ومدت فى حدادها عاما كاملا ، وجميع ذلك يحدث كى يتم المكتوب ويلتئم شمل العاشقين ، تحمل الشاطر عام الحداد ، ثم طلبها زوجة له . فى ليلة الدخلة أضاء السحر عينيها وتلون وجهها بلون الورد ، ثم ولدت له طفلة عفية لأنها خلفة محبة ، صار أسمها بهية وهى بالفعل بهية .

ظلت أم الخير سعيدة بأبنائها وأحفادها ، حتى جاء كاشف المنيا فى أدب يطلب من الشاطر وحتحوت التوجه إلى القاهرة ، للعمل فى جيش الباشا . أجابا بالسمع والطاعة ، ولم يكن باليد حيلة !

ضحك الشاطر يواسى صاحبه :

ـ لا تحزن . تعودنا الترحال والتجوال فى بلاد الناس

قالت أم الخير فى سكينة لابنها :

ـ الغربة مكتوبة على بنى حتحوت . أنت يا حبيبى لا خوف عليك .

التفتت إلى الشاطر :

ـ أما أنت أيها الجميل ، يا بهى الطلعة ، فاحذر من البندريات !

ضحك مازحا .. وراحا يستعدان لتغريبتهما الجديدة . كان خطا حياتيهما ما زالا يتقاطعان مع خط حياة عزيز مصر الألبانى.

كتب للمؤلف

١-فوستوك يصل إلى القمر - قصص		١٩٦٧
٢-خمس جرائد لم تقرأ - قصص		١٩٧٠
٣-الأيام التالية - قصص		١٩٧٢
٤-دوائر عدم الإمكان - رواية	طبعة أولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٧٥
٥-أبناء الصمت - رواية	طبعة أولى	١٩٧٤
	طبعة ثانية	١٩٨٤
٦-غرائب الملوك ودسائس البنوك		١٩٧٦
٧-الهؤلاء	طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٣
٨-الوليف - قصص		١٩٧٨
٩-غرفة المصادفة الأرضية - رواية		١٩٧٨
١٠-مغامرات عجيبة - رواية للطلائع		١٩٨٠
١١- كشك الموسيقى - رواية للطلائع		١٩٨٠
١٢-حنان - رواية		١٩٨١
١٣-عذراء الغروب - رواية		١٩٨٦
١٤-الحادثة التى جرت - قصص		١٩٨٧
١٥-تغريبة بنى حتحوت إلى بلاد الشمال - رواية		١٩٨٨
١٦-حكاية ريم الجميلة - رواية		١٩٩١
١٧-الأعمال الكاملة (١) ويشمل المجموعات القصصية ١، ٢، ٣، ٨ من هذا الجدول		١٩٩٢
١٨- تغريبة بنى حتحوت إلى بلاد الجنوب - رواية		١٩٩٢

٢/٥

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح
ص.ب: ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص. ب: ١٣ المقطم - القاهرة

